من التراث
اليمني

سيف بن ذي يزن

بين الحقيقة والأسطورة والأمل

يا منقوش

سيف بن ذي يزن

من التراث اليمني

سَيفُ بنِ ذِي يَزَنْ

بين الحقيقة والأسطورة والأمل

ثريا منقوش

الإهداء

من الحركة الوطنية اليمنية
الى الثورة العربية المعاصرة
وفي طليعتها حركة المقاومة الفلسطينية

توطئة

يشتمل هذا الكتاب على القضيــة اليزنية بشقيها الحقيقي التاريخي ، والاسطوري الروائي . وقد قمنا بعملية الفصل بين الجانبين الحقيقي والاسطوري لننهي الالتباس القائم في اذهــان الكثيرين ، والمازج بين الجانبين حتى بديا ــ كما لو انهما كــل في واحد ، فتلبس سيف الحقيقة لبوسا اسطورية ، وتداخلت ملامح سيف الاسطورة بسيف الحقيقة والتاريخ ، ومن اجل ذلك فصلنا بين الشخصيتين ، وتناولنا في البداية سيف الحقيقــة والتاريخ بالتحليل المسهب ، ومناقشة الاراء التي قيلت حوله كشخصيــة واقعية ثم حوله كشخصية وطنية ، وحول حركته ومقارعته للاحتلال الحبشي لليمن . ولقد اعتمدنا في ذلك على المنطق التحليلي الواقعي لنسدد الفراغ وجوانب النقص الكبيرة التي تركها الرواة والمؤرخون شاغرة بعد ان عجزوا بذهنيتهم الميتافيزيقية من القيام بهذه المهمة الشاقة فكريا ، وقد اجتهدنا قدر الامكان في ذلك لنرسم اولا صورة تقريبية للواقع السياسي في تلك الفترة حتى تبسط وتسهل لنا عملية الفهم الواقعي المنطقي لحركة « سيف » . ولقد ناقشنا الاراء التي اختلفت وتباينت حول حقيقة رحلته الى الجزيرة العربية والشام ثم

الى الحيرة وفارس ، وانا لا نرجو من ذلك سوى انصاف سيف وحركته الوطنية وعدم تحميلها فوق ما تحتمل سلبا او ايجابا . انصافا لذلك التاريخ اليمني ، ولدور اليمنيين ومشاركتهم في صنع اول تجربة تحررية وطنية في التاريخ العربي بصورة عامة ، وحين انتهينا من مهمتنا في تحليل واعادة تركيب الواقع التاريخي ، ووضع حركة سيف ضمن اطارها ، وفي سياقها التاريخي فاصلين بذلك بين الواقع والاسطورة تناولنا سيف في سيرته الشعبية ، وضمن اطاره الاسطوري . وفي هذا الاطار قمنا بشرح الواقع الموضوعي الذي افرز الاسطورة بعد ان تدرجنا فيه زمنيا منذ بداية تكون الجوانب الاسطورية لشخصية سيف التاريخية ، وحتى تلاشي صورة سيف الحقيقية ، وما حل محلها من صور اسطورية وحوادث خرافية لم تبق لنا غير الاسماء فقط ، وحتى الاسماء التاريخية ، فقد زاوجت بينها زمنيا بفعل الضرورة التي اوصلت الى ابرام ذاك العقد بين شخصيات متباعدة زمنيا ، وتباعد بينها اجيال واجيال وقرون ومراحل .

— — — — — — — — —

ولقد تناولنا الجانب الاسطوري في الشخصية اليزنية ، وقمنا بتحليل الاراء التي قيلت فيها للوصول الى فهم مادي للاسطورة ، محاولين قدر الامكان تجنب الاسهابات الرومانتيكية اللاموضوعية ، حتى لا نقع في نفس خطأ المحللين للاسطورة من الرومانتيكيين . والبعيدين عن الموقف المؤدلج المحدد الواضح الرؤيا والمعالم . لقد استشفينا من آرائهم ، ومن الواقع الموضوعي المحلل تحليلا ماديا موضوعيا حقيقة نشوء الاسطورة، والدوافع التي دفعت الى روايتها في السيرة الشعبية وبقائها حية ومتداولة فترة طويلة من الزمن ، وخرجنا باستنتاج مفاده ، ان السيرة رويت في فترة مبكرة فرضتها الظروف الموضوعية ، ثم ما حدث لها من رواية وتداول ثم انكماش واختباء ، حتى استكملت صورتها بالسيرة التي بين ايدينا ، والتي تمت اعادة صياغتها في القرن الثامن للهجرة على عهد المماليك ، وفي فترة الانحطاط التاريخية التي عاشتها المنطقة العربية . وحين وصل بنا المطاف اليها بالتماس المباشر معها ، قمنا بطرح وجهة نظرنا حول تحديد الجهة التي وضعت خطوطها العامة ، وحددت الاطار الاساسي الذي اندرجت فيه وتحته تفاصيل السيرة ، رافضين بذلك الرأي القائل بأنها شعبية الهدف والتفاصيل ، مقدرين بفهم

موضوعي مشاركة واسهامات السلطة في اخضاعها لاهدافهـــا السياسية ، ولا يعني ذلك استبعادنا للمجهودات الشعبية المجهولة وانما القصد هو ايضاح مساهمة ومشاركة الطرفين كـل حسب وضعه وامكاناته ، ومكانته السياسية والاجتماعية ، حيث تمثل الاولى اي السلطة البنى الفوقية ، ولذلك في يدها زمام المبادرة ، بينما الاخـيرة مستجيبة للاولـى ومؤثـرة فيها . وتصورنـا الاهداف التي وضعت من اجلها السيرة ، والتي حملتها معها وفي طياتها مشاركة من الطرفين السلطوي والجماهيري . رافضين في ذلك شل فعاليات واسهامات طرف ، وتحميلها طرف اخر علـى حساب الطرف المقابل له .

لقد رفضنا في تحليلنا للقضية اليزنية عملية التبسيط والتسطيح والايجاز ، منطلقين من مفاهيم نؤمن بها ، لما للتراث من أهمية قصوى تستدعي الوقوف امامه طويلا وتقييم ما نرغب في استلهامه لحياتنا المعاصرة التواقة الى التغيير والثورة والبناء . ويأتي عملنا هذا ضمن اعمالنا التاريخية التراثية التـي بدأناها في كتابنـا الاول « التوحيد في تطوره التاريخي » « التوحيد يمان » . تدفعنا الى ذلك الرغبة ، والحرص الشديد على ضرورة اعادة النظـر في التاريخ القديم لتقييمه ووضعه في اطاره الحقيقي ، ثم ضمن سياقه التراثي من أجل الثورة ، وبذلك يتواصل التراث العربي والثورة العربيـة المرتقبة والمأمول فيها .

الباب الأول

الصراع الدولي في ذلك العصر

قبل ان ندخل في البحث عن حقيقة الحركة اليزنية ، لا بد لنا من الوقوف امام الاحداث التاريخية الدولية في تلك الفترة ، لتساعدنا في القاء الضوء على الحركة والظروف التي احاطت بها ، ولنتمكن من الحكم عليها فيما بعد حكما موضوعيا غير مشوه ، كما حدث عند الكثيرين ممن جازفوا بآرائهم حول الحركة وحملوها فوق ما تحتمل سلبا أو ايجابا .

ان ضرورة العمل على استقصاء وتحليل الحركة السياسية الدولية تبدو الان ملحة اكثر من أي وقت مضى لا لمعرفة الظروف الموضوعية التي أحاطت بالحركة فحسب ، بل لاستكشاف التفاعلات الداخلية في الصراع الدولي في امتداده الزمني عبر العصور الوسطية ، وحتى يومنا هذا ، والى المستقبل بأبعاده القريبة والبعيدة .

متى بدأ الصراع الدولي وما هي حقيقته ؟

يصعب علينا ان نحدد تاريخ بدايات الصراع الدولي على مناطق النفوذ وبالاخص في منطقة الشرق الاوسط . الا اننا نستطيع ان نقول ان ذلك قد حدث مع النقلة التاريخية للنشاط الانساني ، وخاصة في جوانبه الاقتصادية ، وتحدد ذلك في المرحلة التي اصطلح على تسميتها «بالعبودية »وبعد ان تمكنت دول الحضارة القديمة من اقامة

حكم مركزي صارم وشديد ادى الى التوسع مكانيا ، فبدأ بناء الامبراطوريات الكبيرة ، والتي كانت تتسع ، اما على حساب اراضي لدويلات وممالك متاخمة ، او اطراف دولة او امبراطورية اخرى كبيرة محاذيــة .

وبعد بناء الاساطيل البحرية سواء الحربية منها او التجارية ، واعتماد البحر الى جانب البر طريق مواصلات عسكري وتجاري ، والى جانب ذلك فان تطور الحياة وازدياد متطلبات التجارة وحاجتها للمواد الخام ، ومع تزايد الطلبات للمواد المستهلكة للاغراض الدينية .

لكل ذلك ولغيرهـا من الاسبـاب خرجت الامبراطوريـات العظمى من حدودها القومية والجغرافية ، تبحث لها عن أسواق للتجارة ومناطق للنفوذ ، وعند هذه النقطـة تضاربت المصالح ، فتقالبت الجيوش في سلسلة صراعات وحروب مدمرة لم تقف ، بل ظلت متواصلة ومستمرة .

شهد القرن الثالث للميلاد عظمة ومحنة رومـا وميـلاد فارس الساسانية ، والتي ما ان قويت وتصلب عرشها الساساني ، حتى بادر مؤسسها « أردشير » بمناهضة روما ، وافتتح بذلك سلسلـة الصراعات الدولية بين القوتين الاعظم في تلك الحقبة . وكانت ارمينيا محور الصراع في بداياته باعتبارها منطقة حدود متنازع عليها بين الامبراطوريتين ، واستطاعت الامبراطورية الفتية ان توجه ضربات موجعة لروما ، وان تسحب من تحت يدها ارمينيا ، وتخرجها من دائرة النفوذ الروماني ، وقد ساعدها في تحقيق طموحاتها تلـك ظروف روما الداخلية ، ولم تقف اطماع الفرس التوسعية عنـد ذاك الحد ، بل امتدت الى أجزاء اخرى من مناطق النفوذ الروماني في الشرق . فتوجهوا الى الارض السورية ناقلين بحركتهم حلبـة الصراع الدولي الى الشرق العربي ، واختلف الهدف هذه المرة ، او بتعبير أدق تطور بتطور الامبراطورية الساسانية ، فقد استهدفت سوريا لموقعها الاستراتيجي العسكري والتجاري ، حيث كانت مدنها الساحلية منافذ مشرفة على الجانب الشرقي لحوض البحر الابيض المتوسـط . الا ان صـديق روما السوري حـاكم « بالميرا » « اودينامواس » استطاع ان يـردهم على اعقابهم ويحمي بذلك سوريا ومصر ويحفظ بذلك العلاقات التقليدية مع روما ، والتي تحدتها زوجته الملكة «زنوبيا» حين اعتلت العرش السوري، وفاجأت

الاوضاع السياسية الدولية على الاخص الرومانية بقرارها التاريخي بالاستقلال عن الامبراطورية ، وكان على روما أن تقوم في سوريا بمهمتين : اعادة سوريا الى حظيرة الامبراطورية من جهة ، ومن جهة اخرى رد هجمات الفرس المتكررة على الممالك والامارات الشرقية التابعة للامبراطورية وعلى وجه الخصوص سوريا . وحين تقهقر الفرس الى الوراء سحبوا معهم في أواخر القرن الثالث الصراع الدولي الى ولاية « ميزوبوتاميا » الرومانية ، والتي شهدت معارك مدمرة حتى عادت الى الحظيرة الرومانية من جديد .

وفي القرن الرابع عادت الاراضي الارمينية من جديد الى حلبة الصراع الدولي بين فارس وروما . وسعت كل منهما الى وضع يدها عليها وتجريد الاخرى من اي حق في ارمينيا . فتمكن سابور الثاني امبراطور فارس ٣٣٦م ، من وضع يده عليها ، اثر الصراع الديني بين المعتنقين الجدد للمسيحية من اهل ارمينيا ، وبين المتمسكين بالديانة القومية . وقد استنجد الفريق الاول بالامبراطور « قنسطنطيوس » والتجأت الجماعة الثانية لسابور الفارسي ، الا أن سابور تمكن منها فانضوت بذلك تحت العرش الساساني وبقيت كذلك اكثر من قرن . ونقلت فارس المعركة بعد ذلك الى بلاد ما بين النهرين ودفعت فارس كما دفعت روما اصدقاء من القبائل العربية البدوية في حرب عصابات داخل اراضي الاخر . وتمكنت القبائل الموالية لفارس من نشر الدمار والخراب في ممتلكات الامبراطورية الرومانية ، داخل الارض السورية وبلاد ما بين النهرين . وعلى الرغم من خفة حدة التوتر بين روما وفارس حول ارمينيا بعد أن وقعت في يد الفرس ، الا ان تلك الحدة المستديمة بين الامبراطوريتين قد عادت في القرن الخامس اقوى ما تكون عليه بسبب استعادة روما لمجدها العسكري في آسيا الصغرى . ولم يهدأ الصراع السياسي والعسكري الا بعقد معاهدة سلام مدتها ستين عاما ، اضطرتا الى ابرامها الظروف الصعبة لكلا الدولتين العظميين . فقد انهكت فارس في دفاعات مستميتة عن ولاياتها الشرقية المهددة من قبل الهياطلة ، اما روما فقد ذهبت تقاتل في أكثر من جبهة قوية، مع الوندال المنقضين عليها من نهر الدانوب الاوسط ، والقوطيين الغربيين الزاحفين من بلاد البلقان ، والقبائل الجرمانية من ناحية البحر . وفي الهدنة ذهب كل طرف يستعد لحرب طويلة

الامد ضد الطرف الاخر ، وما ان أطل القرن السادس للميلاد حتى تجددت الحرب بين الامبراطوريتين فقد ارادت فارس تسديد ضربة قوية ضد الروم في الشمال ، وذهبت انطاكية ضحية تلك الصفعة المفاجئة والتي لم تكن روما على عهد جستينان مستعدة لها .. وقد عمل جستينان بعدها بكل قدراته على استكمال استعداداته العسكرية ليدخل بعدها مع الفرس في حروب طويلة استمرت عدة سنوات . ورأى كسرى في خطته العسكرية الهجومية ضرورة تهديد القسطنطينية نفسها فانزل لذلك اسطولا كبيرا في البحر الاسود ، ثم تبين له استحالة الحصول على نصر عسكري ، بل والاكثر من ذلك فقد يؤدي ذلك الى فقدان جيشه كله ، فعاد وأبرم صلح عام ٥٣٢م.

عقد كسرى صلحه على أساس الاستمرار في المهادنة والتعايش سلميا مع روما التي رغبت هي الاخرى في مثل ذلك التعايش ، خاصة بعد ان اقتنع جستنيان بعدم جدوى الحروب في الشرق لقناعاته بأن سكانها سيظلون في عداء دائم له . من هنا جاءت سياسته الجديدة بعدم التدخل المباشر في شؤونه. اما قناعات كسرى بضرورة عقد ذاك الصلح فقد جاءت نتيجة رغبته في الاحتفاظ بقوة فارس للبناء الداخلي والذي تحمل لنا الوقائع التاريخية صورة له . ونصت بنود الصلح على : ــ

١ ــ عقد صلح وتحالف دائم .

٢ ــ وهناك نقطة تفصيلية تتعلق « بدارا » حلها كسرى مع روما بأن ابقاها كما كانت عليه حصنا للروم مقابل دفع أحد عشر الف رطل من الذهب حوله لصيانة القلاع المقابلة لها من حيث الاهمية وهي « قلاع القوقاز » .

التزم الفرس تحت القيادة الجديدة بشروط الاتفاق . الا ان الروم أخلوا به . وحولوا استفزازاتهم هذه المرة الى افريقيا وايطاليا ، وأمام هذا التحدي والاخلال بشروط الاتفاق وجد كسرى نفسه يشن حربا تأديبية بين ٥٣٢ ــ ٥٣٩م .

وتابعت روما سلسلة استفزازاتها في تقديرات منها خاطئه ، وقامت بغزو سوريا كمدخل لاحتلال اراضي الرافدين ، وتهديد اطراف الامبراطوريه الكسرويه ورد انوشروان الصفعة لروما متجنبا قدر الامكان المواجهة المباشرة فأمد « لازيكا » (كلوخس القديمة) بمساعدات كبيرة

للتخلص من النير الروماني ، واعتمد بذلك سياسة جديدة في صراعه مع روما ، اي في الصراع الدولي ، **وهي الابتعاد عن المواجهة بقدر الامكان ، وتمويه الاصدقاء والموالين** . ومن وحي هـذه السياسة الجديدة عقدت فارس هدنة اخرى مع رما بشروط صلح جديدة . الا ان جستين خليفة جستنيان عاد فنقضها سنة ٥٧٢م واعاد القتال الى ساحة الشرق الاوسط .

العلاقات اليمنية الحبشيـة

يقول انجلز : « ليست على علم وطيد وبينة من أمر التأريـخ التجاري لفترة القرون الستة الاولى بعد ميلاد المسيح حتى أجزم بحكم على الاحوال العالمية اذ ذاك ولا سيما من الناحية المادية ، والتي أدت الى ان يفضل نقل التجارة الى الخط الذي يمر من فارس حتى البحر الاسود ، وخط الخليج الفارسي « العربي » الى سوريا وحتى آسيا الصغرى . نعم ان يفضلوا ذينك الخطين على خط البحر الاحمر ، ولكن على أية حال فالامن الذي كانت تنعم بـه القوافل في مسيرتها وتنقلها عبر الامبراطورية الساسانية الفارسيـة المستتبة الاوضاع حينئذ كان هذا ذا اثر فعال على تحقيق ذلك خاصة وان في تلك الفترة بين عام ٢٠٠م وعام ٦٠٠م كان الاحباش يعيثون فساداً في اليمن ، اذ ان اجزاء منها كانت تخضع لهم مباشرة بينما كانت الاخرى عرضة لغزوها ، وغيرها للنهب »

تلح علينا القضايا التاريخية التي نحـن بصددها بالوقوف أمام الاحداث التاريخية السياسية المؤثرة في مجريات الامور انذاك وتتطلب معرفة الاحداث العودة بالتاريخ الى الوراء قليلا لنتعرف على التراكم الذي ادى الى النكبات الجسيمة لشعوب المنطقة ، وبالذات الشعب اليمني ، واوقعه في منعطفات تاريخية حادة الزوايا ، ونقاط تحول نقلت الواقع السياسي والاجتماعي من طور الى طور مختلف ومتباين مع الحالة القبلية في اليمن .

بدأت تلك التراكمات منذ تعرض اليمن في أواخر القرن الاول للميلاد وبدايات الثاني منه لتـدخلات افريقية ، بعد فشل الحملة الرومانية الاولى في القرن الاول قبل الميلاد ، والتي قادها « أوليوس غالوس » في عهد الامبراطور « اغسطس » . واستطاع القادمون

من افريقيا الشرقية ان يضعوا ايديهم على مواضع هامة وحساسة في السواحل الجنوبية والغربية ، فاستولوا في القرن الثاني للميلاد على الارضين المسمـــاة بـــ كمـــا وردت في جغرافيه بطليموس . وجـــاء في الكتابات الحبشية ان ملك « اكسوم » ارسل بقوات برية وبحرية الى السواحل المقابلة لساحل مملكته ، واستطاعت تلك القوات ان تتغلب على ملوك المنطقـــة الساحلية المعروفة بـــ « ارحب » و وكان من نتائج ذاك النصر وتلك الهزيمة ، دفع الجزية من القبائل اليمنية المهزمة بالرغم منها للملك اكسوم .

ان وحدة المصالح وتناقضها لشعوب المنطقة الساحلية للبحر الاحمر ، هو الـــذي جعل فتـــرات الحـــروب تتعادل مع أزمنـــة السلـــم ، فما ان تشب حـــرب حتى يتبعها صلـــح وسلم علـــى المستوى السلطوي ، وتـــداخل وتمـــازج بين شعوب المنطقتـــين المتقابلتين . وحفظت النقوش واقع تلك الاحوال ، فأشار النص الموسوم بـــ الى وجود جماعات من الاحباش في السواحل اليمنية . ويعثر ركمنز على مجموعـــة نقوش رقمهـــا من بينها نقش مرقم بـــ يتحدث نصه عن حرب شنها هذه المرة الملك السبئي « اليشرح يحصب » على « احزب حبشت » و « ذي سهرتن » و « شمر ذي ريدان » . ولم يتحدث النص المترجم عن تلك المعركة ، التي وقعت بين سبأ والاحباش من جهة ، وسبأ وذي ريدان اليمنية من جهة اخرى . اما اصطفيان البيزنطي فقد تحدث في كتاباته عن الحاق حضرموت بمملكة اكسوم ، وتبع تلك الحروب عقد صلح بين الملك السبئي « علهان نهفان » وملك اكسوم ، جنت اليمن والحبشـــة منه تحسنا في علاقاتهما السياسية ببعض ، تبعه انتعاش اقتصـــادي للمنطقتين الساحليتين . وفي محاولاتنا للوقوف على الاحداث نذكر حـــرب الملك السبئي « شعراوتر » ضد الاحباش والتي نشبت اثر محاولته اخراج الاحبـــاش المستوطنين من اليمن . وقعت تلك الاحداث بحسب تقديرات العلماء في القرن الثاني للميلاد ، اما القرن الثالث فقد حمل لنا بدوره مع قدومه حوادث سياسية وعسكرية بين الطرفين المتصارعين المتعايشين معا . فقد أقدم الملك الحبشي « عذبة »

على انزال قواته في الارض اليمنية مدعوما هذه المرة بقوة ونفوذ الرومان القادم من أوروبا الى البحر الاحمر ، يحملون معهم اطماعهم في المنطقة . والجدير بالذكر ان الاحتواء الروماني للحبشة قد اشعل المنطقة بسلسلة حروب خلقت الدمار والخراب لشعوبها ، وقـــد عانى منها الشعب اليمني الكثير ، فراح يعبيء كل طاقاته البشرية والحضارية لردع العدوان ومحاصرة الخراب .

دخلت الى المنطقة عوامل جديدة ساعدت على ايجاد شرخ عميق في العلاقات الحبشية اليمنية ، ولم تدخل المنطقة في حسبانها مدى تأثير مثل تلك العوامل على سير علاقاتها وشعوبها ببعض ، ولقد فرضت تلك العوامل حين تنصر الملك الحبشي « عيزانا » على يد المبشر « فرومنتيوسي » المرسل من قبل الملك البيزنطي « قسطنطين » ففرض الدين المسيحي على الاحباش ، واصبح دين الدولة الرسمي ، في وقت بقيت فيه المنطقة المحانية على دين الوثنية مع وجود جماعات يهودية . كما بدا ذلك ظاهريا . اما بمنطق الوقائع التاريخية والمفاهيم المنطقية فقد وجدت العوامل الاخـــرى المتمثلة في الاطماع التوسعية الاستعمارية بكل ما يندرج تحتها من قضايا ، في الدين مبررا للتدخل في شؤون المنطقة ، وتحقيق تلك الاطمـــاع .

حركت العوامل الجديدة الملك المنتصر متخذا منها هو وحليفته بيزنطا دافعا ومبررا للتدخل والاستيلاء على المدخل الشرقي للبحر الاحمر . ففرض نفسه ، بعد ان تناول صك غفران عمله من بيزنطا وكنيستها ، ملكا على حمير وريدان وسبأ وسلحن . وتلقب وهو الفائز برضاء ملك بيزنطا بـ « ملك اكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحن » وبارك الملك تسميته بـ « ملك الملوك » .

سببت تلك العوامل حدة في الصراع ، وقبضت اكسوم على زمام المبادرة في المنطقة . فكثفت تحركاتها العسكرية مقنعـــة او مقتنعة بضروره تنصير الشعب اليمني مدركة او غير مدركة ، ان محاولات التغيير تلك تأتي مستجيبة للعمق الاستراتيجي لبيزنطا في الشرق في محاولة لاخضاع شعوب بأسرهـــا لسيطرتها وابتزاز خيراتها . ونشطت اكسوم ومليكها في تنفيذ المهمة الموكلة اليها ، فانشأت الكنائس في طول الارض اليمنية وعرضها ، حتى وصلت على امتداد الشريط الساحلي الى راس الخليج ، وصار رئيس أساقفة

« كنيسة ظفار » مشرفا على الكنائس المسيحية بما فيها « كنيسة نجران » المشهورة تاريخيا .

بعد أن فرض هذا العامل تأثيراته على شعوب المنطقة في علاقاتها ببعض على المستوى الخارجي ، عكس نفسه على الاوضاع الداخلية ، ضمن اطار العلاقات الاجتماعية . فانقسم الشعب اليمني في عقائده وولاءاته الدينية التي حددت فيما بعد ولاءاته السياسية ، فأضحت الجماعات المرتبطة بالكنيسة مرتبطة بولائها ، ومواقفها السياسية بالاحباش وتولدت بين الجماعات اليمنية المختلفة عقائديا ، مماحكات دينية واجتماعية ، كانت لها ردود افعال سياسية واسعة النطاق سنأتي على ذكرها مع استطرادنا التاريخي للاحداث والوقائع في اليمن ، وبين اليمن والحبشة . وتأثرت تلك المماحكات من حيث شدتها وخفتها بحجم التدخلات الخارجية ، فضاقت واتسعت ثم انفجرت في محرقة ذي نواس اليهودي لاهل نجران النصارى . وتقول الروايات التاريخية انه ذهب ضحيتها قرابة عشرين الف مسيحي ، ولا نستبعد المبالغة في تحديد عدد ضحايا الحادث ، وعلى كل فقد تركت تلك المقتلة الاهلية بصماتها في النفسية اليمنية العربية ، وحفظتها لنا المدونات التاريخية ومنها القرآن بمشاعر متعاطفة مع الضحايا من ناحية انسانية ودينية. فالنصارى هم أهل كتاب وهم أقرب بالمفاهيم العامة الانسانية الى روح الاسلام، على الرغم من تأثر الاخير ببعض التشريعات اليهودية ، كما تأثر بها في رؤياه لبعض القضايا التاريخية . جاءت السورة القرآنية المخصصة للمقتلة ، مستنكرة ضمنيا للحادث « قتل اصحاب الاخدود ، والنار ذات الوقود ، اذ هم عليها قعود ، وهم ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد » . رغم محاولات التشديد التي اتبعت لاجتثاث الدين المسيحي من أرض اليمنية ، وقبل ان يعرف الجيران بالحادث فيهرعو للنجدة والتدخل . فقد تمكن شخص يطلق عليه الرواة « دوس ابن ثعلبان » وقيل « جبار » ، من الافلات من المحرقة واتجه صوب الحبشة ليتصل بملكها ويبلغه بما حل بأتباع الكنيسة البيزنطية .

استغل الحادث من قبل الحبشة وبيزنطا ، وبولغ في تقديرات ضحاياه ليصبح للتدخل الخارجي ما يبرره ، ويأتي المحتلون كما قد يبدو بدوافع انسانية ودينية ، لتختفي وراءهما حقيقة الاهداف

والرغبات والدوافع الاستعمارية لبيزنطا المنفذة عبر الحبشـــة .
وتتحرك الجارة الكبرى بايعاز من بيزنطا لتجهيز حملة تأديبية كان الحدث الديني سببها الرئيسي ، وهناك سبب اخر يميل بعـض المؤرخين الى اعتماده اساسا للتدخل الحبشي البيزنطي في اليمن ، او بالاصح المبرر الذي اعطى ضوءا اخضرا للحليفين العدوين لليمن والملكه « دميانوس » . ويأتي السبب في رواية تاريخيـــة مفاده ان الملك الحميري « دميون » « دميانوس » امر بقتل جماعة من التجار الروم الذين كانوا يتاجرون ويتحركون داخل المدن اليمنية التجارية ، بعد ان صادر أموالهم ، وترجع هذه الرواية الدوافع التي حملت ملك اليمن الاتيان بتلـــك الفعلة المنعكســـة شرطيا بردة فعل اصابتـه اي دميانوس الحميري اليهودي الى الرد على روما الشرقية بعنف نتيجة مواقفها وتصرفاتها العدائية ضد يهود مستعمراتها . وكأن دميانوس أراد ان يثبت بذلك صحة يهوديته من جهة ، وانتصابـــه مدافعا عنهم في وجه اي عدوان ، ولو كـــان من بيزنطا العظمى نفسها من جهة اخرى . وكان من نتائج المدافعة والمواجهة مصادرة اموال التجار الروم وتقتيلهم ، وقد تجنب بقية التجار الذهاب الى اليمن والمناطق القريبة ، خوفا على انفسهم مـــن نفس المصير . فأصيبت المنطقة بكساد تجاري وتضررت الحبشة منه ، وحاول ملك أكسوم حل الازمة . فأرسل الى الملك الحميري يعرض عليه عروضه فلم يوفق . فجهز حملته الكبيرة للاحتلال .

وتعتمد الآراء على الحادث الاول كدافع للحملة ، كما تعتمد اخرى على الدافع الثاني . وايا كانت المثيرات والدوافع المباشرة للحملة ، مع اعتماد الحادثين كدافع مباشر لتجهيزهـــا ، وتأديب اليمنيين بها . الا أن الحملة قد اخفت بمظهرها الخارجي التأديبي حقيقة النوايا والاهداف الحقيقية ، من وراء الحملة العدوانية حتى يومنا هذا . ولو قدر للاحباش أن يستمروا طويـــلا في احتلالهم للارض اليمنية ، لاتضحت اهداف بيزنطا بشكل مكشوف ، ولتغيـر مسار الاحداث التاريخية في جنوب الجزيرة ووسطهـــا . الا ان النفس القصير للمحتل في حركته العدوانية ، والاستعمارية المبطنة بمسوح دينية لم تأت بالثمار الحقيقية لها ، على الرغم من ضخامة الحملة ، حيث تذكر كتب التاريخ ، آخذين بعين الاعتبار المبالغات الروائية في التقديرات العددية لجيش الحملة ، ان النجاشي ملك

الحبشة قام بتجهيز سبعين الف جندي ، وليكن نصف هذا العدد الا ان ضخامة الحملة ما زالت كبيرة خاصة وهي تحدث تحت مظلة رومانية ، فقد حملتهم سفن بيزنطا ، وحملوا معهم على ظهورهم وظهورهاعتاد وعدة بيزنطية ، وجيش بتلك الكثافة ، وعلى تلك الصورة يحصر امكانيات الشك في مقاصده وأهدافه التوسعية ، والتي لم تبرز بصورة باينة للعيان نتيجة قصر عمر احتلالها للارض اليمنية ولظروفها التي احاطت بوجودها في الساحة ، منها مشاكلها وأزماتها الذاتية كاصطدامها وتمردها على السلطة المركزية في الحبشة ، وخلافات زعاماتها العسكرية ، ارياط ضد ابرهة ، وابرهة يصفى ارياط جسديا وعسكريا ، ثم ابرهة يخرج على النجاشي ومعلنا نفسه ملكا مستقلا ، ثم الصدام الدموي المستمر مع اليمنيين ، ومشاكل اليمنيين مع بعضهم المؤيد والتابع ، ثم المضاد والمقاوم . ونتائج تلك الخلافات على المحتل وزعاماته العسكرية المتواجدة في المنطقة اليمنية ، وفوق هذا وذاك ، وغيرها من المشاكل والصعوبات ، الحملة الفاشلة على الجزيرة العربية ، والتي سنأتي على ذكرها .

كل تلك المعوقات المذكورة آنفا ، قد ساعدت على اخفاء النوايا الحقيقية للحملة ، او بتعبير ادق لم تتح لاصحاب تلك الحملة الحقيقيين ، المختفين وراء الجدار الافريقي المتسترين بستار حبشي ، ان يجنوا الثمار الحقيقية للحملة . ان ضخامة الحملة مع ما سبقها من حملات رومانية مباشرة في القرن الاول قبل الميلاد ، واعادة تكريرها في الرابع منه تجعلنا نجزم واثقين انها لم تعد لتأديب الملك اليمني ذي نواس على حملته الدينية اللاانسانية ضد نصارى نجران اليمنيين فحسب ، وانما كانت هناك اهداف تسعى روما لتحقيقها بادوات بشرية من المنطقة ، ولا يمكن ان تتم الا باحتلال اليمن باسره ، وادخاله ضمن مناطق النفوذ البيزنطية واخضاعه لسيطرتها بصورة غير مباشرة . ولم تكن حملة ذي نواس الدينية الا مبررا للتدخل والاحتلال ، ولنا في احداث الحاضر صور ناطقة وحية عن الحملات الكبرى والضخمة في التاريخ ، والتي تبرزها الآراء الساذجة والسطحية بصورة ساذجة سطحية آخذة ما يقال عن الدوافع الظاهرية لتلك الحملات كمسلمات بديهية رغم ضآلة الحادث وضحالة الدافع لهذه الحملة او تلك . ولا نريد ان نستطرد

في شروحات تاريخية لكثير من الوقائع والاحداث في الحملات الكبيرة والضخمة فذلك يحتاج الى كتب ومؤلفات موسوعية .

أعطت حادثة الاخدود النجرانية الضوء الاخضر لبيزنطيا ان تتحرك بقوى من منطقة الصراع نفسه ، فتحركت الجيوش الحبشية لتحقيق طموحات حكامها ، واطماع ملكها الشخصية الذاتية ، ولتنفيذ ورغبات بيزنطيا وتحقيق اهدافها فما هي حقيقه دوافع واهـداف بيزنطيا ؟؟

اهـداف بيزنطيا ودوافعها :

لقد التزمنا المنهج المادي التاريخي بعد ان كسرنـا اسلوب التفكير الستاتيكي السكوني (الميتافيزيقي) ، والذي اتبع حتى الان في قضايا التاريخ ، ولم يستطع الاجابة علـى الاسئلة التي بدات ملحة ضرورية لمعرفة ابعاد الاحداث التاريخية المرئية والمقروئة في كتب التاريخ . لقد استطعنا بالمنهج المادي التاريخي بعد ان استعنا به في دراستنا للتاريخ ان نبين حقيقة اهداف بيزنطيا ورغباتها الكامنة وراء الغزو والاحتلال الحبشي لليمن ، وسندخل اليه عبر التطرق بالشرح للاهـداف الاقتصادية لروما باعتبارهـا اكثر الاهـداف تأثيرا في سير الاحداث التاريخية الدولية ، والسعي لتحقيق الاهداف الاقتصادية ، هو الذي حرك الجيوش والاساطيل من منطقة الـى اخرى ، ومن قارة الى الثانية ، على الرغم من التضحيات الجسيمة التي كانت تتحملها شعوب وامم ، ليس فقط المعتدى عليها ، وانما كذلـك المعتدين الا ان تحقيـق المصالـح الاقتصاديـة والوصول الـى الاهـداف المخطط لهـا سـواء للشعـب او الامة الطامحة او حتى للطبقة العليا فيها ، وفي أضيق دائرة لملكها ، قد جعلها تتحمل عذابات الحروب ، بل وتجد في التضحيات شعور بالراحة خاصة اذا استطاعت الوصول الى الغايات .

وحين لم تستطع روما بحملتيها السابقتين الوصول الى هدفها وهو السيطرة على الممرات التجارية الدولية كهدف استراتيجـي اقتصادي وقدمت فيهما جيوشا جرارة تاهت فوق الارض اليمنيـة الوعـرة ، وفتكـت بها الامراض والتهمـت امـواج البحـار ، بعض منهـا ، دفعت بالحبشـة ، بعـد أن نصرت ملكهـا ،

ووجدت عن طريقه موطيء قدم لها في المنطقة يتحمل نيابة عنها كل التضحيات البشرية وتحقق بواسطته احلامها القديمة ، وهي السيطرة على همزة الوصل الاستراتيجية التجارية بين الشرق والغرب ، حين كانت هي الهمزة ، وطوع الشعب الحبشي تطويعا تعسفيا وزج به في اقتتال مع جيرانه واهله ، لما بين الشعبين من صلات دم وقربى ، لتجني روما الثمار ، وتعيش في نشوة النصر بلا تضحيات .

عاش عالم الامس كعالم اليوم في دوامة الصراع السياسي بخلفياته ودوافعه وأهدافه ، ولقد قدمنا نبدة عن ذلك الصراع الدولي كمقدمة للتطرق لصراع الدولتين الاعظم فارس وبيزنطا في الجزيرة العربية وجنوبها . حيث عملت كل منهما على كسب القبائل العربية . فتقسمت بدورها أي القبائل بين الدولتين . اما شعب جنوب الجزيرة ، وكان قد عرف الحضارة ، وعاش فترات ازدهار وتمدن صنعها بنفسه اعتمادا على قدراته البشرية الذاتية وهبات ارضه الطبيعية بمواقعها وخيراتها ، فقد كان لا بد ان يتعرض لغزو واحتلال خارجي ، لقد كان واقع الحال في ظروف الكيانات الوطنية القائمة كدول مستقلة ان تمتد اليها يد احدى الدولتين ، اما بالصداقة العسفية او بالتبعية الجبرية بالغزو والاحتلال لتدخل ضمن مناطق النفوذ السياسي. وتحركت بيزنطا لتدفع هذه المرة بالحبشة لتحقيق أهدافها السياسية في الجزيرة العربية ، مستفيدة من دروس الماضي في صراعها الدولي ، متجنبة الصدام المباشر والمواجهة مع فارس، خاصة بعد توقيع معاهدات الصلح السابق ذكرها ولتملىء بالجنوب الثغرة من خط دفاعها الاول المتقدم ضد فارس، وأرادت ان تحقق أهدافها التوسعية بأداة من المنطقة ، وتم لها ذلك . ولا زال ذاك الاسلوب يمارس حتى يومنا هذا .

اخضعت الحبشة انذاك الجارة اليمن لحساب بيزنطا بعد ان تحركت جحافلها سنة ٥٢٥م الى اليمن ودخلته عنوة . فأتت على كل شيء فيه بالتثليث حسب اوامر الملك الحبشي « ايلا اشيحا » فاذا بقائد جند الاحباش « ارياط السفاح » يقسم الرجال والنساء والاموال اثلاث ، فيقتل ثلث الرجال ، ويسبي ثلث النساء والذراري ، ويسطو على ثلث الاموال والممتلكات ، ويدمر ويخرب ثلث الوطن اليمني في زمن كان يشكو

فيه اليمن من هموم ومشاكل داخلية جادة ومعقدة . وجاءت النتائج العسكرية لذاك الغزو كما اراد لها الاحباش ، وكما خططوا من حيث التدمير والابادة . فقد حملت لنا النقوش المحفورة على ظهر صخور « حصن غراب » والموسومة بـ
قصة الغزو الحبشي ، ودخوله ارض حمير ، وقتله لملكها ولاقيالها الحميريين والارحبيين ، من اجل تحقيق اهداف بيزنطا العظمى في صراعها الدولي مع فارس . ولا بد من ادخال اليمن ضمن دائرة النفوذ البيزنطي وقبل ان يميل اليمن الى فارس فيضرب الاهداف البيزنطية في الصميم .

لا شك ان للعامل الديني دوره في تحريك الاحداث والاندفاع بالجيوش عبر القارات في تلك الفترة الزمنية بصرف النظر عن الغايات والاهداف التي تكمن خلفه ، والتي قد يشعر بها المندفعون صوب الهدف الديني الكائن انذاك كهدف أستراتيجي ، خاصة بعد ظهور « الاديان السماوية » — كما تعورف على تسميتها — الا ان عامل الدين يبقى من العوامل الهامة في الاندفاعات العسكرية ، وقد حرك الدين بيزنطا فأدخلته عبر التبشير الى افريقيا ثم استمرت تتابع سير حركته ونشاطه لتجني نتائج الحركة . ودفعها الدين غيرة عليه — لتحريض الاحباش ومساعدتهم في الحملة التبشيرية التأديبية المظهر ، عاملة في تلك المرحلة بالذات على تثبيت وجود له فوق الارض اليمنية ، مخططة معها لتحقيق الطموحات والاهداف الاقتصادية والسياسية التي ذكرناها .

دفعت بيزنطا الاحباش فاندفعوا للاحتلال ، ثم راحوا بعد تثبيت أحتلالهم عسكريا ، يعملون على تثبيته عقائديا ، ليسهل تثبيت الحبشة وبيزنطا سياسيا ، فيجنوا من وراء تلك العملية الطويلة غاياتهم الاقتصادية الملحة ، والحياتية ، ونشروا من اجل ذلك الكنائس ، ولا نستبعد دعم بيزنطا لذلك وان لم يكن بصورة مباشرة فمن خلال تأهيل الكنائس ، الدينية ، والدعم المالي لمشاريع بناء الكنائس ، والتي ستساعد كلها على التنصر فيتحقق الهدف الديني في ادخال المسيحية الى أرض اليمن بعد ان حوصرت واجتثت في محرقة نجران . وبه تتغلغل هيمنة بيزنطا وسطوتها الروحية باعتبارها راعية المسيحية الكبرى .

كان العامل الديني في الاحتلال الحبشي لليمن وسيلة ، كما كان مبررا ودافعا ، فله ظاهريا تحركت الجيوش ، وبه كوسيلة

اريد تحقيق الاهداف الاخرى السياسية والعسكرية ، كما شكل هو بحد ذاته غاية سعت بيزنطا والحبشة لتحقيقها ، هذا على مستوى الغايات الموضوعية لبيزنطا . اما الغايات الشخصية والرغبات والطموحات الذاتية لحكام بيزنطا فاننا نرغب ان نلفت النظر اليها حتى تكتمل دوافع الغزو والاحتلال الحبشي البيزنطي لليمن .

الطموحات الذاتية لاباطرة بيزنطا والحبشة : ــ

في ذاك القرن عاشت روما مشاكل داخلية كثيرة ولا نريد هنا ان ندخل في التفاصيل ، الا اننا سنكتفي بالاشارة الى واقع الحال في روما الشرقية في عهد جستينان ، فقد تمرد عليه الجيش لاسباب داخلية منها : رفضه لاحكام الامبراطور الجائرة ضد المسجونين واستفحال ذاك الامر حتى لم يعد من الممكن الاعتماد سوى على الكتائب الاجنبية لفقدان روح الثقة بين الطرفين ، وتفاقمت نتائج التمرد حتى وصلت الى وضع خطة ترمي الى خلع جستنيان من الحكم وتعيين امبراطور آخر بدلا منه ، الا ان الموالين له في الجيش حملوا على العامة حملة واحدة وقتلوا كما تقول كتب التاريخ اكثر من ثلاثين ألف رجل . ونتيجة لصرفيات جستنيان الباهظة في المباني العامة فقد اصيبت ميزانية الامبراطورية بافلاس فقد كان من كبار البناة في العالم ، وقد استنزف جهده واستنزف موارد الامبراطورية .. وعلى المستوى الثقافي فقد شهد عصره جذبا في العطاء الفكري والثقافي ، ومات الابداع والتجديد وانتعش التقليد والمحاكاة ودفنت الفلسفة ، وعلى ذمة كتب التاريخ ، فقد وجه جستنيان ضربة قاضية الى التعليم بعد أن عطل باسم المسيحية مدارس أثينا .

وتدهورت الحياة الاجتماعية وكان تاثير ذلك الانهيار على المراة كبيرا فقد حرمت من التعليم الذي كانت تتلقاه سابقا كما فرض عليها الزواج المبكر وبعض الاعراف والتقاليد المتعنتة . وفي أيامه صالت وجالت الزندقة والزنادقة ، وتمردوا على الدين وأحكامه نتيجة الضعف التي شمل السلطة . كما انتشرت الافكار الاسطورية التي وجدت الساحة منبسطة أمامها بعد انهيار العقلانية ممثلة

بالفلسفة اليونانية وتحطمها الكلي . لهذه الاسباب مجتمعة اراد جستنيان ان يعوض تلك الانهيارات بانتصار خارجي ولو عن طريق حليفته الحبشة بعد ان عجز هو عن تحقيقه مباشرة وهو يقابل فارس . وجاءت طموحاته الذاتية لتجد متنفسا لها في الخارج بعد ان انهارت طموحاته وهيبته في الداخل . كل ذلك ليصب في نهاية المطاف لاخراج روما الشرقية من ضائقتها المالية التي تسبب هو في خلقها ، وقد حاول ايجاد مصادر مالية تعاونه على حل الازمة الاقتصادية ومن ثم الاجتماعية والسياسية للواقع والنظام .

هذا على مستوى اهداف اباطرة الدولة العظمى والتي ارادوا ان يجنوا ثمارها من وراء الغزو والاحتلال الحبشي فما هي حقيقة اهداف المحتل الحبشي ؟؟

ان جوار الشعوب والدول لبعضها يولد بينها مزج من العلاقات الطيبة والسيئة القائمة على المصلحة المشتركة في انسجامها وتضادها ، وعادة ما يؤدي الانسجام الى التداخل الطوعي فيما بينها لتحقيق المصالح القومية الكبرى لشعوبها ، الا ان الصورة تنعكس تماما في حالة تناقض المصالح وتضادها لسبب من الاسباب عام او خاص على المستوى القومي ، كان تتنازع الشعوب على ارض مهمة استراتيجيا او اقتصاديا ، او بهما معا . وقد يكون لسبب خاص يعشعش في راس الملك او الرئيس ، وفي هذه الحالة قد تبلغ التناقضات حد العنف والدموية في الصراع ، وغالبا ما يكون كذلك ، وهو ما حدث في الغزو والاحتلال الحبشي لليمن . فقد ارادت اكسوم بعد ان جردت السيف على الجارة اليمن ان تضع حدا للكساد التجاري الذي أصيبت به المداخل الشرقية والغربية للبحر الاحمر . متصورة ان وراء ذاك عمدا اليمن وملكها متخذة لما وقع للتجار حجة ووسيلة وكأن الكساد التجاري قد وقع بسبب ذلك الحادث مجردا من علائقه السياسية والاجتماعية في اليمن وهي التي شكلت في مجموعها الانهيار الكامل لاقتصادياته ، ثم تاثير ذاك الانهيار على الموانيء التجارية المجاورة واصابتها بالكساد . وكان ذلك الحادث من الوسائل التي نجح بها الحكام المعتدين لتبرير عدوانهم امام جماهيرهم غير المتحمسة له في واقع الامر للعلاقات التاريخية والعرقية التي تربطها باليمن وشعبه . وكل ذلك لاخفاء النوايا الحقيقية للحكام وعلى رأسهم الملك « ايلاشيحا » وليتستر

على الهدف والغاية الحقيقية المبيتة في نفسه والتي لم تخرج عن حدود الدوائر الشخصية له فقد ولد تأليه الشعب الحبشي لـــه ــ بصرف النظر عن العوامل التي ولدت شعور القدسية عـــند الجماهير الشعبية له ــ في نفسه شعور العظمة . وجاء احتلاله اليمن تحقيقا لشرعية الكلمة في أرض أبويه «سليمان وبلقيس» ووراثة ملكهما . ثم لتعميم معتقداته الدينية وتنصير اليمن وبذلـــك تتســـع رقعة نفوذه السياسي والديني، وتتحقق الطموحات الذاتية في الشهرة والعظمة والمجد في أكبر دائرة ممكنة وعلى أوسع نطاق . وقد لقب بعد الانتصار بـــ « ملك أكسوم وحمير وريدان وسبأ وسلحين » . وهو في ذلك كله لا ينسى تحقيق اهداف روما العظمى وأباطرتها الكبار ، وبذلك تم التوحد بين أهدافه الذاتية وغاياته وطموحاتـــه الشخصية ، وبين أهداف رومـــا وطموحات أباطرتها . مخرجـــا كل ذلك ببرواز المصلحة العامـــة للشعب الحبشي . وباختصـــار شديـــد فمجموع تلك العوامل والاهـــداف المتشابكة المتداخلـــة المترابطة هي المحرك الديناميكي للغزو والاحتلال الحبشي لليمن .. فهل وجدت الطريق الى التطبيق العملي على أرض الواقع في اليمن ومن هو المستفيد الحقيقي من الحملة ؟؟

الحملـــة على اليمن

دخل الاحباش اليمن وعملوا ما عملوه من تدمير وتقتيل للشعب اليمني ، فماذا كان مصير « ذو نواس » او « دميانوس » وهو الذي تحركت الحملة بحجة تأديبه على فعلتيه السابقتين؟ وتختلف الروايات في تقدير المصير الذي لقيه والكيفية التي تمت فيها مواجهته للمصير . فهل قرر مصيره بنفسه وكيف كان ذلك ؟

يقول الرأي الاول وهو الذي يلتقي حوله كثير من المؤرخين والرواة العرب وهو ان الملك الحميري قـــد لقى مصيره غرقـــا ، ويتعاطف اصحاب هذا الراي وهم في جملتهم من العرب مع الملك اليمني لذلك جعلوا نهايته بيده . فهو الذي سار الى البحر راكبا فرسه بعد ان أحس بالهزيمة واضعا بيده حدا لحياته قبل ان تصل اليه يد الاحباش فتسيره ذليلا مهانا مقيدا بالاصفاد الثقيلة مطأطأ الراس مهيض الجناح بعد ان كان في حياته متحديا للحبشة ولروما

وحاول أصحاب هذا الرأي اظهار « ذي نواس » كرمز لبطولة وانفة يمنية ترفض الاذلال وتفضل الموت عليه . فشرف الامة يمثله قائدها او زعيمها ، لقد أراد ذو نواس ان يبقى ، وهو المهزوم عسكريا ، في ذاكرة الجماعة وفي شعورها القومي الجمعي بطلا عملاقا يحمل آلام أمته بنفسه . كما أراد ان يطهر بانتحاره الارادي اردان هزيمته ويستنهض امته مجددا ، ومثل ذو نواس كل ذلك لان دماء زعيمها الحارة تبقى نقط قنديلها الوطني تضيء الطريق امامها لتتلمس المخرج للثورة والانتصار ، ومثل ذي نواس كل ذلك فأضحى في نظر شعبه بطلا خالدا استلهمت منه فيما بعد مواقفها الصلبة .

تأتي روايات الاغريق والاحباش على عكس الروايات اليمنية والعربية لتضع نهاية ذي نواس على أيديهم ، وتتأثر بها بعض الآراء العربية والاجنبية كفون كريمر والذي اعتمد في حكمه على مصرع ذي نواس بيد الاحباش على بيت شعر يزعم رواة هذا الراي نسبته الى الشاعر المخضرم « علقمة ذي جدن » يقول البيت :

او ما سمعت بقتل حمير يوسفا   اكل الثعالب لحمه لم يقبر .

وهناك راي ينتزع من هذا البيت صوزة اخرى مغايرة تماما فيزعم وقوع ذي نواس في الاسر وسقوطه مجندلا تحت سنابك خيول الاحباش ثم مقتله بتلك الصورة المأساوية البشعة واكل الثعالب له ، ولا ندري كيف استنتجت صورة كاملة من بيت شعر هو بحد ذاته محل شك كبير في قائله الحقيقي وحقيقة نسبته الى علقمة ، والهدف من روايته الى ما هناك من اسئلة مثيرة للشك . ولو سلمنا مع اصحاب هذا الراي بوقوع ذي نواس اسيرا فهل سيبقى التسليم تسليما دون ان تثار امامه مجموعة من الاسئلة والاستفسارات هي بمثابة قنابل موقوتة ، فلو وقع ذي نواس اسيرا فلماذا لم تسجل النقوش الحبشية مثل تلك الواقعة المهمة في تاريخ توسعاتهم ؟

ان سقوط ذي نواس في الاسر وهو الخصم العنيد والمتحدي المتكبر سيعرضه حتما لعقوبات حاقدة ، بعرضه في طرقات اليمن او الحبشة وامتثاله امام الملك الحبشي خاضعا ذليلا ثم اصدار الحكم بالموت بطريقة بشعة وبعد التحقير

والتعريض ليصبح عظة وعبرة لمن توسوس له نفسه من اليمنيين التمرد على حكم الاحباش ، خاصة وانهم جاءوا تحت ستار حملة تاديبية لذي نواس . كل ذلك كان من المفترض ان يظهر في الكتابات الحبشية واليمنية التي تشير الى مقتله كما يذكر نقش حصن غراب الموسوم ب وهو يذكر ان الاحباش فتحوا ارض حمير وقتلوا ملكها واقياله الحميريين والارحبيين ، ويسجل النص السنة التي وقعت فيها الحوادث ب ٦٤٠ حميري اي ٥٢٥ ميلادي . وعليه فان الاقرب الى منطق الاحداث في تلك الفترة هو الموت فهل كان بصورة موت ارادي اي الانتحار غرقا او سقوطا في المعركة ؟؟

ان اعتماد احدى الصورتين بعد ان استبعدنا وقوعه في الاسر يتوقف على موقف المؤرخ وثقافته وافكاره واهدافه ، والقضية هذه لا تقبل النقاش المنطقي على الرغم من امكانية تسخير مجموعة من الاحداث والمعلومات التاريخية لاثبات صحة هذا الراي او ذاك ، ولذا فاننا نميل الى ترجيح الراي الاول هادفين من وراء ذلك اظهار الصورة المشرقة في التاريخ اليمني ولو ترسمت في صورة الموت الانتحاري .

مات ذو نواس وفرض الاحباش استعمارهم على اليمن ، وفرضوا معه عملاءهم من الاقيال والاذواء جاءوا بالسميفع اشوع كما يذكر النص المرقوم ب على رأس قائمة من سادات القبائل ذي جدن ، كلاع ، ذي يزن .. الخ

ونصب السميفع اسميا كملك رسمي تابع للاحباش على سبأ وحكم القادة العسكريين للجيش الحبشي من ورائه وقد تصدر للامور والاحداث السياسية في اليمن فاصطدم مع الاقيال ، وتعرض بعد فترة وجيزة من حكمه الاسمي لتمرد اطاح به . فتلقف الاوضاع قائد الاحباش ابرهة الاشرم ، وحولها لصالحه فاضطر ملك الحبشة للاعتراف به ملكا على اليمن واقره عليه . ثبت ابرهة السلطة في وازاح منافسيه العسكريين فاستتبت له الامور وقوي نفوذه وسلطانه فرفض وصاية ملك اكسوم ، واعلن نفسه ملكا على سبأ وذي ريدان وحضرموت واعرابها في النجاد وفي تهامة كما جاء في النص المرقوم ب

لقد ظهرت لنا سابقا الاهداف والنوايا التي حـركت الحملة والبواعث المباشرة للحركة . وبعد ان ثبت الحكم الحبشي نفسه في اليمن وكشف ابرهة عن حقيقة نواياه المتستر عليهـا فترة التهيئة والاحتـلال فهل بيت مسبقـا في نفسـه شيئا ؟؟ ام استطـاع ان ينتهز الظروف المستجدة والتي كانت مواتية لطموحاته ليخرجها الى الواقع السياسي المعاش انذاك ، فسارع بحركة باغت فيهـا الجميع ، واعلن الاستقلال الذاتي عن الحكم المركزي في الحبشة خاصة بعد وفاة صاحب الحملة ايلا اشيحا والذي لم يحقق سوى جزء من اهدافه وهو العدوان والاحتلال وحال موته دون الوصول الى الاهداف الاخرى الآخذة التشعب والتعدد الى اخرى مغايرة .

رفض أبرهة التبعية للملك الجديد رمخرزبيمان ، وامتنع عن دفع الجزية اليه ، واعلن نفسه ملكا على اليمن غير تابع لملك اكسوم مستغلا بذلك مجموع الظروف المحيطة بالعرش الحبشي ، ومن ناحية اخرى ظروف اليمن واوضاعه المهترئة الساقطة نهائيا في يديه .

وفي زحمة الاحداث وفي خضم الاهداف الجديدة التي نشأت في الساحة اليمنية ماتت الاهداف الحقيقية للحملة ولم تشهد النور فقد حشرت في حشرجـة الملك « ايلا اشيحا » ، وبعد رومـا ، وطموحات ابرهة الاشرم .

حكم ابرهة اليمن بعد ان قطف الثمار اكثر من اربعة عقود من الزمن شهدت فيها المنطقة حركات تمرد وثورات من اقيال اليمن خاصة اولئك الذين امنوا باليهودية كما يشهد على ذلك نص ابرهة نفسه . وكان من اعنف الحركات التمردية ثورة القيل « يزيـد بن كبشة » نائب ابرهة على قبيلتي « كدت » و « دا » وشكل بعد المسافة الفاصلة بين الدولة المركزية في صنعاء ومناطق القبيلتين اغراءا حقيقيا للمتمردين وجوا مناسبا للتمرد ، فاعلن العصيان ثـم انضم الى اقيال سبأ وسحرن واشتعل فتيل الثورة وانتشر فشمل حريب وحضرموت وذي جدن ، واحس ابرهة بخطورة الحركـة الموجهة ضد وجوده في ارض اليمن فغضب لذلك كثيرا وارسل اليهم حملة تأديبية تحت قيادة « جراح ذو زبنور » وقد باءت بالفشل ، نحشد بعدها قوات كبيرة وبقي ينتظر مرعوبا من النتيجة الاولـى ، خائفا على النتيجة الثانيـة للحملة الكبيرة المرسلة سنـة ٥٤٢ بقيادة « وطاح » و « عوده » وبشر بنتائج دعمت طموحاته بعد ان

استسلم قادة الحركة وعلى رأسهم « يزيد بن كبشة » .

استقرت الاوضاع في اليمن قليلا بعد فشل الحركة وخطت طموحات ابرهة خطوة متقدمة الى الامام فاهتم بالزراعة وقام بترميم سد مأرب كما يحكي نصه الشهير المدون في احتفالات انتهاء الترميم ، وقد دون في النص وصول وفود كثيرة من مختلف انحاء العالم الى اليمن . وكان بين الوفود وفد فارس وقد ارادت ان تدلوا بدلوها عند أبرهة وقد أغراها بذلك تمرد ابرهة على سلطان الحبشة واستقلاله باليمن والذي يعني كذلك ابتعادا عن بيزنطا ونفوذها . ووجدوا الفرصة مناسبة فأرسلت وفدا اليه كما اوعزت لحلفائها بارسال مهنئين مشاركين لابرهة ، فوصل وفد ملك الحيرة المنذر ووفد الحارث بن جبلة ، وكان ذلك بداية تقرب بين فارس واليمن جاءت في عهد أبرهة وفي ظروف سياسية دولية مضطربة .

قوى الصراع الدولي حكم ابرهة في اليمن فقد اصبح في يده مفتاح البحر الاحمر والمحيط الهندي فاضحى سيد الموقف على المستوى الدولي ففي يده منع استفراد قوة من القوتين الاعظم السيطرة على منافذ التجارة الدولية لذلك سعت كل منهما لكسبه الى صفها ولتقليص نفوذ الاخرى في المنطقة . خلقت العلاقة الجديدة بين بيزنطا واليمن « الاشرمية » الظروف الجديدة المغايرة لظروف الحملة فقد اصبح ابرهة وجودا قائما بذاته غير تابع للحبشة يشعر بقوته الداخلية والخارجية التي خلقتها الظروف الدولية الملائمة .

تحول الصراع الدولي بعد اندفاع الاحباش الى اليمن الى جنوب الجزيرة وجاءت الظروف الـ جديدة بعد اعلان ابرهة نفسه ملكا مستقلا لتضييع الفرصة الذهبية من روما في وقوع المنطقة نهائيا في يدها ، وعلى اثر ما طرأ من برود في العلاقات الاشرمية الرومانية بعد تمرد ابرهة على ملك الحبشة الجديد « رمخرزبيمان » احست روما ان الظروف الجديدة لم تعد في مصلحتها ، وان عليها اعادة النظر في سياستها وعلاقاتها مع كل من الحبشة وأبرهة الاشرم في اليمن قبل ان تغير فارس سياسيا على اليمن فالتنطع على هامش الاحداث سيفقد روما زمام المبادرة ويسحب الحصيرة من تحت قدميها ، وليس أمامها سوى كسر الجمود في العلاقات ، وانتهاج

سياسة جديدة برؤيا شمولية تدخل في حساباتها كل القوى في المنطقة ولو صغرت ما دام في ذلك قطع الطريق امام فارس كي لا تتسلل من خلال الفتور السياسي بين الطرفين الحليفين سياسيا وعقائديا ، خاصة وان الصراع السياسي بين القوتين الاعظم اكتسب خصائص جديدة بعد ابرام اتفاقيات الصلح بين كسرى ملك فارس وجستنيان امبراطور روما الشرقية وأصبح الصراع الدولي يطبــخ على نار خفيفة دون ان يحرق مشعليه .

نفوذ وطموحات بيزنطة من اليمن والجزيرة :

رأى الروم في سياستهم الجديدة ضرورة التعامل المباشر مــع ابرهة بعد ان اعلن نفسه ملكا علــى اليمن وتحكم لوحــده في منطقة وفي سبيل الحفاظ على الهدف الاستراتيجي لروما في المنطقة وادخال اليمن ضمن دائرة النفوذ الاستعمارية للامبراطورية لم تكن رومــا ترغب في أن تخسر اليمن فعلى الرغم من تمرد أبرهة على الاصدقاء العتيقين للامبراطوريــة في الحبشــة الا ان ذلك لا يعني الصــدام والمجافاة فالمصلحة تستدعي تجنب ذلك وتخطي الجمود وتجاوز الفتور الاني . ولا شك ان رد الفعل المقابل لدى أبرهة شعــور بالرضى والارتياح بعد أن اصبح موضع اهتمام الدولتين الاعظم لما تمثله اليمن من أهمية لطموحات فارس وبيزنطا .

لقد بدأ التعامل بدوره مع ابرهة مباشرة واستفاد من الظروف الجديدة فأعلن اول ما أعلن نصرانية الدولة واعتمد الدين المسيحي دينــا رسميا لها بعد ان نشــر الكنائس وعمم المسيحية ووحــد الاموال الطائلة لذلك . وتقول الاخبار التاريخــية انه بنى في مدينة صنعاء اضخم كنيسة في الجزيرة العربية هي كنيسة «القليس» فجلب احجارها من مدينة مأرب ومن معبد أوام للاله المق وزخرفها بأصناف النقوش والتحف حتى يشد انتباه الاعراب ويوجه وجهتهم اليهــ ويحولها عن الكعبة ، فموطن التقديس الجديد أبهى واعظم ويتمكن من تثبيت النصرانية فيسهل تطويع النفسية العربية البدوية لسلطانا ونفوذ الدولة الحليفة ، وقد جاء اثر ذلك النشاط الديني المكثف الاعلان الرسمي لاعتماد المسيحية دينا رسميا فارضا بذلك نفس قوة مؤثرة ومحركة يمكن الاعتماد عليها لتنفيــذ المرامي والمقاصــ الابعــــد .

وجاءت ردود الفعل في الثالث عند القبائل اليمنية المعادية للوجود الحبشي الديني والسياسي والباقية على ديانتها اليهودية رافضا غاضبا فانفجر بعد ان كتم أنفاسه طويلا في تمرد قبلي واسع تحرك ضده ابرهة بذكاء وخبث سياسي كبير واستخدم اداة اقتتال بشرية يمنية فدفع بقبيلة « كندة » وقبيلة « علي » لتأديب « بني عامر » حتى شل قدرتهم على الحركة . وبعد أن استتبت الامور في اليمن ، وقبلت القبائل اليمنية المعارضة عن مضض حكم ابرهة واندفع مع طموحاته وآماله ومطامعه الجديدة صوب الجزيرة منظما حملته على مكة في أواخر عام ٥٧٠م في ظل الارتياح الروماني والدعم المعنوي لذلك . فتصويب الهدف وتحقيق نجاحات فيه ستجني روما حقها منه ، كما يكسب أبرهة الطموح .

تحرك جيشه تتقدمه جحافل القبائل اليمنية الموالية والمنتصرة . وفشل ابرهة في حملته نتيجة عدم ادراكه لعامل الطبيعة الجغرافي واحتمالات انعكاساته سلبيا على الحملة والجيش ، فلم يضع في حساباته طبيعة الارض الصحراوية المقدم اليها بجحافله الجرارة ، وهدت الصحراء جزءا من معنويات جنوده ، واستنزفت طاقاتهم وحيويتهم وحمل تغير البيئة الفجائي ، ونقصان الاغذية ، الاوبئة والامراض ، فانتشر بينهم ، كما تقول كتب التاريخ ، وباء الجدري ، فتساقط منهم الكثير ، واحس ابرهة انه يسلك طريقا وعرة ستؤدي الى ضياع قوته نهائيا بعد أن كان يطمع بها تقوية نفوذه السياسي في الجزيرة ، ومن ثم اعتماده القوة الاساسية من قبل بيزنطا في منطقة الجزيرة وشرق افريقيا ، وانفرط العقد من أوله وأصبح الجهد مكرسا لتلافي ما يمكن تلافيه فقرر العودة الى اليمن بصفوف مبعثرة يثقلها عبء الوباء المنتشر بين الجنود .

ان النتيجة العكسية لما كان متوقع للحملة احدثت دويا هائلا في الجزيرة واعطت المجال للذهنية الاسطورية والغيبية لان تصول وتجول وتنثر تفسيراتها وتخريجاتها الاسطورية والميتافيزيقية في الجزيرة وعلى امتداد التاريخ ويبقى ذلك في اعماق الذهنية العربية . وقد اكسبت الهزيمة القبائل منعة وصلابة وأصرت على ولائها لقريش وللبيت وعلو شأنه ، ومن ثم عدم جدوى الخروج عنه فأرادت النظر عن ما سواه (كنيسة القليس) خاصة وقد هزم دعاتها وتبعثروا ورمتهم طير الابابيل .

لقد جنبتها الهزيمة بالطيور شر الاقتتال ، او بصورة اكثر واقعية القتل والنهب ، فكيف لا تروج وكيف لا تقدس الطيور والاحجار النارية (من سجيل) وقد كانت الجيش المقاتل بدلا عنهم والقوة التي تحركت وانتزعت النصر من مخالب عدو قوي عنيد .. فلالاف قريش الافهم رحلة الشتاء والصيف .. فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . وكان ذلك بفضل الكعبة وما وفرته من رزق وطمانينة نفسية بعد هزيمة الخوف بكل اشكاله وفي مقدمته ما تزرعه الاعتداءات الخارجية ، وكان آخرها الحملة الاشرمية الفاشلة .

لقد أصابت الهزيمة بنتائجها المدمرة المخطط الحبشي ـ الروماني في السيطرة على الجزيرة والاستفراد بها ، كما اصابت بالشلل مطامع وأحلام ابرهة وحفرت في الارض اليمنية حفرة كانت بعد أن اتسعت قبرا للوجود الحبشي وقد عجلت هزيمة مكة عمر الوجود الحبشي في اليمن على الرغم من محاولات ابرهة رأب الصدع الذي اصاب الجيش والوجود العسكري والسياسي لهم في جنوب الجزيرة .

ضعف الوجود الحبشي في اليمن بعد الهزيمة كثيرا وجاء موت ابرهة ليفرق شمل اسرته الحاكمة فاختلف مسروق مع أكسوم وفي ظل الوهن العام للاحباش راح الاقيال والاذواء ينتفضون هنا وهناك في حركات مبعثرة وغير منظمة شكلت بدورها نوع من التراكم الكمي للرفض المطلق للوجود الحبشي ، ومن ثم رميه خارج الحدود اليمنية . وفي ظل هذه الاجواء مجتمعة عاش سيف وعلى ضوء فهمه لها تحرك حركته التحررية الوطنية .

الباب الثاني

قصة سيف مع الإحتلال الحبشي

قبل ان نعطي راينا وفهمنا لحركة سيف سنقف قليلا مع الاخبار التاريخية كما ترويها اقلام الصف الاول من المؤرخين العرب والمسلمين واخترنا منهم اوثقها لقربها من الحدث زمنيا بالقياس الى الروايات والاخبار الاخرى .

يحكي الطبري في تاريخه على لسان ابن اسحاق قصة سيف بن ذي يزن مع الاحتلال الحبشي لليمن فيقول « ولما هلك يكسوم بن ابرهة ملك اليمن في الحبشة اخوه مسروق ابن ابرهة ، فلما طال البلاء على اهل اليمن وكان ملك الحبشة باليمن فيما بين ان دخلها ارياط الى ان قتلت الفرس مسروقا واخرجوا الحبشة من اليمن بعد اثنين وسبعين سنة ، توارث ذلك منهم اربعة ملوك : ارياط ثم ابرهة ، ثم يكسوم بن ابرهة . ثم مسروق بن ابرهة ـ خرج سيف بن ذي يزن الحميري وكان يكنى بابي مره ، حتى قدم على قيصر ملك الروم ، فشكا ما هم فيه وطلب اليه ان يخرجهم عنه ، ويليهم هو ، ويبعث اليهم من شاء من الروم فيكون له ملك اليمن ، فلم يشكه ولم يجد عنده شيئا مما يريد ، فخرج حتى قدم الحيرة على

النعمان بن المنذر ـــ وهو عامل كسرى على الحيرة وما يليها من أرض العرب من العراق ـــ فشكا اليه ما هم فيه من البلاء والذل ، فقال له النعمان ان لي على كسرى وفادة في كل عام ، فأقم عندي حتى يكون ذلك ، فاخرج بك معي . قال : فأقام عنده حتى خرج النعمان الى كسرى ، فخرج معه الى كسرى ، فلما قدم النعمان على كسرى وفرغ من حاجته ، ذكر له سيف بن ذي يزن وما قدم له ، ويسأل ان يأذن له عليه ، ففعل . وكان كسرى انما يجلس في ايوان مجلسه الذي فيه تاجه ، وكان تاجه مثل القنقل العظيم . مضروبا فيه الياقوت والزبرجد واللؤلؤ والذهب والفضة معلقا بسلسلة من ذهب في راس طاق مجلسه ذلك ، كانت عنقه لا تحمل تاجه ، انما يستر بالثياب حتى يجلس في مجلسه ذلك فاذا استوى في مجلسه كشف الثياب عنه فلا يراه رجل لم يره من قبل ذلك الا برك هيبة له . فلما دخل عليه سيف بن ذي يزن برك ، ثم قال : أيها الملك غلبتنا على بلادنا الاغربة : فقال كسرى أي الاغربة ؟ الحبشة أم السند ؟ قال بل الحبشة ، فجئتك تنصرني عليهم ، وتخرجهم عني ، وتكون ملك بلادي لك ، فانت احب الينا منهم ، قال : بعدت أرضك من ارضنا ، وهي أرض قليلة الخير ، انما بها الشاة والبعير ، وذلك عما لا حاجة لنا به ، فلم اكن لاورط جيشا من فارس بأرض العرب . لا حاجة لي بذلك ثم أمر باجيز بعشرة آلاف درهم واف وكساه كسوة حسنة » .

وتمضي الرواية لتقص علينا رد الفعل عند سيف بعد هذا الموقف من كسرى « فلما قبض ذلك سيف بن ذي يزن ، خرج فجعل ينثر الورق للناس ينهبها الصبيان والعبيد والاماء ، فلم يلبث ان دخل على كسرى ، فقيل له : العربي الذي اعطيته ما اعطيته ينثر دراهمه للناس ينهبها العبيد والصبيان والاماء . فقال كسرى : ان لهذا الرجل شأنا ، ائتوني به ، فلما دخل عليه قال : عمدت الى حباء الملك الذي حباك به تنثره للناس : قال : وما اصنع بالذي اعطاني الملك ما جبال أرضي التي جئت منها الا ذهب وفضة ـــ يرغبه فيها لما رأى من زهادته فيها ـــ انما جئت الملك ليمنعني من الظلم ، ويدفع عني الذل . فقال له كسرى أقم عندي حتى انظر في أمرك فأقام عنده » .

وتمضي القصة لتحكي التحول الذي طرأ على موقف كسرى

وفارس « وجمع كسرى مرازبته واهل الراي ممن كان يستشيره في امره ، فقال ما ترون في أمر هذا الرجل ، وما جاء له ؟ فقال قائل منهم : ايها الملك ، ان في سجونك رجالا قد حبستهم للقتل ، فلو انك بعثتهم معه ، فان هلكوا كان الذي اردت بهم وان ظهروا على بلاده كان ملكا ازودته الى ملكك . فقال : ان هذا هو الراي احصوا لي كم في سجوني من الرجال ،فحسبوا له فوجدوا في سجونه ثمانمائة رجل ، فقال : انظروا الى افضل رجل منهم حسبا وبيتا وجملوه عليهم ، فوجدوا افضلهم حسبا وبيتا وهرز — وكان ذا سن فبعثه مع سيف ، وامره على اصحابه ثم حملهم في ثماني سفائن في كل سفينة مائة رجل . وما يصلحهم في البحر » .

« فخرجوا حتى اذا لجوا في البحر، غرقت من السفن سفينتان بما فيهما فخلص الى ساحل اليمن من ارض عدة ست سفائن وفيهم ستمائة رجل فيهم وهرز وسيف بن ذي يزن ، فلما اطمأنا بأرض اليمن قال وهرز لسيف ما عندك ؟ قال ما شئت من رجل عربي ، وفرس عربي ، ثم اجعل رجلي مع رجلك حتى نموت جميعا ونظهر جميعا قال وهرز : انصفت واحسنت فجمع اليه سيف من استطاع من قومه وسمع بهم مسروق بن ابرهة فجمع اليه جنده من الحبشة، ثم سار اليهم حتى اذا تقارب العسكران ونزل الناس بعضهم الى بعض بعث وهرز ابنا له كان معه — يقال له نوزاد على جريدة خيل . فقال له ناوشهم القتال حتى ننظر كيف قتالهم . فخرج اليهم فناوشهم شيئا من قتال ، ثم تورط في مكان لم يستطع الخروج منه فقتلوه فزاد ذلك وهرز حنقا عليهم . وجدا على قتالهم » .

وتنتهي قصة الذهاب الى فارس والقدوم على اليمن لتبدأ حكاية قتال الاحباش والمنازعة بين وهرز وملك الحبش .

فلما تواقف الناس على مصافهم قال وهرز : اروني ملكهم فقالوا : ترى رجلا على الفيل عاقدا تاجه على رأسه ، بين عينيه ياقوتة حمراء ، قال : نعم قالوا ذاك ملكهم قال اتركوه . فوقفوا طويلا ، ثم قال : علام هو ؟ قالوا : قد تحول على الفرس فقال : اتركوه فوقفوا طويلا ، ثم فقال علام هو ؟ قالوا : قد تحول على البغلة قال : ابنه الحمال ، ذل وذل ملكه هل تسمعون اني سأرميه فان رأيتم اصحابه وقوفا لم يتحركوا فاثبتوا حتى اوذنكم فاني قد اخطأت الرجل ، وان رأيتم القوم قد استداروا ولاثوا به فقد اصبت

الرجل ، فاحملوا عليهم » .

«ثم اوتر قوسه ــ وكانت فيما زعموا لا يؤثرها غيره من شدتها ثم امر بحاجبيه فعصبا له ثم وضع في قوسه نشابة فمغط فيها حتى اذا ملاها ارسلها فصك بها الياقوت التي بين عينيه فتغلغلت في راسه حتى خرجت من قفاه ــ وتنكس عن دابته ، واستدارت الحبشة ولاثت به وحملت عليهم الفرس وانهزمت الحبشة فقتلوا وهرب شريدهم في كل وجه فاقبل وهرز يريد صنعاء يدخلها حتى اذا اتي بابها قال : لا تدخل رايتي منكسة ابدا اهدموا الباب فهدم باب صنعاء ، ثم دخلها ناصبا رايته يسار بها بين يديه » .

« فلما ملك اليمن ، ونفى الحبشة كتب الى كسرى : اني قد ضبطت لك اليمن واخرجت من كان بها من الحبشة ، وبعث اليك بالاموال فكتب اليه كسرى يأمره ان يملك سيف بن ذى يزن على سيف بن ذى يزن جزيه وخرجا يؤديه اليه عام معلوم ، يبعث اليه في كل عام . وكتب الى وهرز ان ينصرف اليه فانصرف اليه وهرز وملك سيف بن ذى يزن على اليمن وكان ابوه ذى يزن من ملوك اليمن » .

« ويختتم الطبري كلامه عن الحرب اليمنية الفارسية ــ ضد الاحباش بقوله : «فهذا ما حدثنا به ابن حميد ، عن سلمى عن ابن ابي اسحاق من امر حمير والحبشة وملكهم وتوجيه كسرى من وجه لحرب الحبشة باليمن » .

اسئلة واستفسارات تاريخية : ــ

تحمل الاخبار التاريخية التي رواها المؤرخون والرواة العرب والمسلمون خمسة قضايا اساسية بحاجة الى الوقوف امامها لتحليلها ومن ثم اعادة تركيبها لنتمكن من الاقتراب من الحقيقة التاريخية والتي خضعت لتأويلات وتخريجات ذاتية كادت تبعد الواقعة عن الحقيقة والحدث كما كان عليه . وقبل التخريجات ، وقد انتزعناها انتزاعا من مجموعة الاحاديث المروية والمكتوبة من كتب التاريخ ونلخصها في النقاط التالية :

١ ــ حقيقة شخصية سيف التاريخية .
٢ ــ رحلة سيف والجهة التي سار اليها
٣ ــ حقيقة المساعدة الفارسية والنوايا المخفية وراءها .

٤ ــ اغتيال سيف والجهة المتحملة هذه المسؤولية واهدافها من وراء ذلك

٥ ــ تقييم حركة سيف ووضعها في اطارها الصحيح .

هذه النقاط الخمس هي التي ما زالت تشغل الباحثين والمنقبين عن الحقيقة التاريخية حتى يومنا هذا ، وعليه ولاهمية هذه النقاط للقضية اليزنية ، ومن ثم لاهميتها التاريخية بالنسبة للتاريخ اليمني والعربي بشكل عام فقد قررنا ان نساهم في عملية الاستقصاء والتنقيب لعلنا بذلك نقترب من الحقيقة ، ولنبداها بالقضية الاولى :

حقيقة شخصية سيف التاريخية :

آل ذي يزن عشيرة يمنية عريقة ورد اسمها في النقوش اليمنية القديمة فقد ذكرت في النقش الموسوم ب « مع حملة . كما ذكرها ابرهة في نقشه التاريخي والمعروف عند العلماء ب » وهو النقش الذي يتحدث فيه الاحباش عن ثورة « يزيد بن كبشة » ومجموعة القبائل والعشائر التي ايدت الثورة آل ذي خليل وآل ذي يزن وآل ذي سحر وغيرها من اسماء العشائر الكبيرة . وورد عند المؤرخ اليمني الكبير والنسابة ابن الحسن الهمداني تعريف بالتسلسل الاسروي وبمكانتهم الاجتماعية فقال : ولد اسلم بن الحارث بن مالك بن زيد بن الغوث بن سعد بن عوف بن عدى عامرا ذا يزن .

« وذو يزن احد اقيال حمير العظماء : بعض حمير انه كان على ابنه سعد تبع واليه تنسب الاسنة اليزنية . ويواصل الهمداني جمع المعلومات وتقصي الحقائق حول الاسرة اليزنية وابنها الثائر سيف فيقول « يقال اراد مخرج سيف بن ذي يزن ثائرا . فأولد عامر ذو يزن : سيف ابن عامر . وعلى لسان شخصية يمنية تعرف ب « ابي نصر » يقول الهمداني : « عن ابي نصر ان ابا نصر يقول سيف صهر اسعد تبع في عصر كان هو في تعريف الابرهي شراحيل بن عامر واخوته مسعودا وحميرا وسعدا وبيان وجحدبا . وتكملة الاسرة والد سيف تزوج ، والحديث هنا عن ام سيف ، ابنة اسعد ابي كرب بن ملكيكرب » . هذه اذن اسرة سيف جمعها الهمداني عن

عدة مصادر شعبية ثم يورد رأيا وتعريفا مغـايرا للتعريف بسيف لعبدالله بن رزام الحاوثي الذي يقول : « انما هو النعمان بن معدى كرب بن قيس بن عبيد بن سيف بن عامر ذي يزن ويحاججه ابو نصر رافضا هذا الرأي فيقول ليس معدي كرب الاكبر ابن سيف الاكبر » ويعتقد ابو نصر بعد ان يورد سلسلة من الانساب على ان الشخصية اليمنية التي نزعت الى كسرى انوشروان ، والتي استقبلت وفـد قريش برئاسة عبد المطلب هو سيف بن النعمان .

وتأتي تعريفات اخرى لتقول بان شخصية سيف بن ذي يزن هي الشخصية المعروفة بسيف بن ذي يزن بن ذي اصبح بن مالك بن زيد بن سهل بـن عمروا ابن قيس بن معـاوية جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن ابن الهميسع بن العرنجج ، وهو حمير بن سبأ ، وكان سيف يكن بأبي مرة .

هذه هي الاجتهادات اليمنية حول شخصية سيف . أما تعريف المؤرخين والرواة العرب فقد وردت على لسان الطبري والحموي على انه «معد يكرب بن ابي مرة» ويعرف أبوه «بابي مرة الفياض» وكان من اشراف حمير ومن الاذواء وايدهم فيما بعد ابن خلدون وعن امه يورد الطبري تعريفا مفاده انها ريحانة ابنة علقمة ، وهي مـن آل ذي جدن ، وتواصل الكتب التاريخية الحديث عنها فترى ان أبرهة انتزعها من زوجها أبي مرة وتزوجها وانجبت له الابن الاخر لهـا « مسروق » وهو الذي تولى الحكم بعد اخيه « يكسوم » ويكون مسروق بهذه الصلة اخا معد يكرب من امه ريحانة .

ولن نتطرف هنا ونكذب تلك الحكايات فليس لدينا مصدر غيرها ، كما وانها ليست بعيدة العهد بمؤرخي الاسلام ، وعلاوة على ذلك فان المنطق يقبل حدوث مثل تلك الحوادث فليس مـن المستبعد ان يكون ابرهة قد انتزع ريحانة ابنة علقمة مـن زوجها وهـي ابنة الاسرة الكبيرة والعريقة « آل ذو جدن » فمن الطبيعي ان يحقـد معديكرب وهو ابن الاسرة العريقة من ناحية أبيه وامه على اخيه الاصغر من أمه مسروق ابن المغتصب الكبير لارضه وامه بل وفوق ذلك عرشه . وتمضي القصة لتحكي ان معديكرب قد بقي مع امه في بيت ابرهة وايد ابن خلدون الرأي القائل بان سيف هو معديكرب وهو ابن ريحانة اما أباه فقد فر الى العراق والتجأ عند ملك الحيرة

عمر بن هند . اصطدم معديكرب بأخيه من امه على حد راي الرواة حين نصب « مسروق » نفسه ملكا على اليمن بعد وفاة اخيه « يكسوم » فخرج من اليمن بعد أن ادرك عدم قدرته واليمنيين على التحدي والمواجهة .

اننا نميل لترجيح تعريفات المؤرخ اليمني الكبير الهمداني على غيره من التعريفات التي لن نرفضها فليس من حقنا رفضها وليس لنا مصدر غيرها ، الا أن ترجيحنا لتعريفات الهمداني تأتي من كونه المصدر الوحيد للتاريخ والمجتمع اليمني القديم ، اي فترة ما بعد النقوش في العهد الاسلامي الاول ، وهو كنسابة مجتهد ادرى بحقائق انساب الاسر اليمنية الكبيرة وله في هذا المجال باع وذراع ، وأي كانت الخلافات في تعريف شخصية سيف الا ان ذلك لا يعني على الاطلاق الشك في وجود شخصية يمنية عرفت عبر التاريخ باسم سيف عملت على طرد الاحباش وانهاء وجودهم من ارض اليمن كما تحاول بعض الآراء المشككة تصور ذلك نتيجة الخلط المعرفي الحاصل لديها من عدم القدرة على التمييز بين شخصيتي سيف الواقعية التاريخية والاسطورية الشعبية .

ان كل تلك الاراء على الرغم من اختلافها وتباينها الا انها تجمع ان شخصية ما من آل ذي يزن ولنسمها شرحبيل كما هي عند الهمداني أو معد بن يكرب كما عرفها الطبري الا انها شخصية يعود نسبها الى آل ذي يزن وقد كانت فخائد منهم من اشد اعداء ابرهة واكثرها مقاومة للوجود الحبشي كما تثبت ذلك النقوش اليمنية ونقش ابرهة بالذات المعترف فيه بتمردهم عليه وقد اتينا على ذكره سابقا ولاننا نميل الى تعريف الهمداني وارائه وتخريجاته العميقة الصلة بالواقع اليمني العارفة لكل تفاصيل الحياة الاجتماعية فيه فسنأخذ برأيه في الاسم وسنثبت الكنية والتي اغلبت على الاسم الحقيقي وطمرته، ويبرر الهمداني التسمية بالمفاهيم الشعبية المتعارف عليها فقال : فلان سيف اذا كان نجدا ، وفلان درب اذا كان محاميا على اصحابه « وهو حصن اذا كان وقافا لا يفر ، وفلان بحر : اذا كان غزير العطاء ... الخ .

ومهما تعددت الاراء وتباينت واختلفنا مع بعضها واتفقنا مع الاخر واعتمدناه فان ما يهمنا ونحن ننظر الى التاريخ على انه حركة الجماعة والجماهير ان نعتمد سين من الناس وليكن هنا باسمه

التاريخي الشهير سيف بن ذي يزن ليكون هو رمز الحركة الوطنية الاولى من نوعها في الجزيرة العربية ضد الوجود الحبشي التي لا يختلف عليها اثنان ويعني التشكيك فيها تشكيك في التاريخ اليمني كله ، ومن ثم العربي الاسلامي لما للتاريخ اليمني ولتلك الحركة بالذات من أثر فيه . ولولاها لخضعت الجزيرة للاحباش ولما كان الاسلام والحضارة الاسلامية العظيمة وباختصار شديد لتغير مجرى التاريخ العربي ولسار في اتجاه اخر مغاير . اننا نميل الى تثبيت الصفة « سيف » الحالة محل الاسم حتى لا توجد اية بلبلة او تضاد في المعارف التاريخية لدى القارىء العربي واليمني على وجه الخصوص ما دام عملنا ذلك من الناحية التاريخية غير مدحض ولا متعارض مع الاحداث كما انه لا يلغي ولا يضرب الشعور الوطني والقومي في العمق .

الجهة التي سار اليها سيف :

تضطرب الروايات التاريخية من جديد حول الشخصية التي سارت الى بيزنطا وفارس وتختلف كذلك في الاتجاه الذي سارت اليه ، وهي من جنوب الجزيرة ، وهل اتجهت الى الشام والغساسنة ام الى القيصر وبيزنطا . وهل حدثت رحلة من هذا القبيل ام انها قصص من نسج خيال ومبالغة ؟؟

مجموعة من الاسئلة والاستفسارات ما زالت معلقة منذ خمسة عشر قرنا تبحث لها عن جواب .

يشير المؤرخ اليمني الكبير ابو الحسن الهمداني الى أن اكثر من شخصية يمنية سارت تطلب النجدة . توجهت الاولى الى المناذرة ثم الى كسرى وفارس وهي شخصية قيل يمني يعرف بسيف بن النعمان بن عفير . كما توجهت الشخصية المعروفة ب عمر بن النعمان ، الى قبائل قحطان بالشام (الغساسنة) وقيصر الروم ، وتحتوي هذه النقطة على قضيتين تاريخيتين هامتين اولهما زمنيا الشخصيتان المرسلتان ثم الجهة المقصودة خاصة المتوجهة صوب الشمال الغربي للجزيرة العربية : الى الغساسنة في الشام وسوف نأتي على نقاشهما في نقاشنا للاراء المطروحة

يرى الطبري والحموي وابن خلدون وغيرهم أن شخصية واحدة

هي التي تحركت الى القيصر ولكسرى وهو سيف بن ذي يزن الحميري وكان يكن بأبي مرة ويمضي الطبري في روايته فيقول : « ولم يجد عنده شيئا مما يريد ، فخرج حتى قدم الحيرة على النعمان بن المنذر ... الى اخر القصة » وفي هذه المعلومات اكثر من قضية تاريخية وهي تختلف وتتباين عن رواية الهمداني في الشخصيات وفي الجهة التي سارت اليها . فاين هي الحقيقة من ذلك وكيف نفهمها نحن ؟؟

اننا نميل بما نحاول ان نستنتجه منطقيا من أحداث التاريخ الى راي يتفق ويختلف مع الرايين المطروحين والمختلفين مع بعضهما . ووقوفا امام احداث التاريخ ورفضنا لتصورات الذهنية العربية الاسطورية والتي تركب حركة رمزها سيف بكاملها على شخصية انسانية واحدة تملكها قدرة خارقة تتجاوز حدود الطاقة البشرية . فاننا سنحاول ان نعيد تركيب الوقائع التاريخية من جديد :

تقول الاخبار التاريخية المدونة في النقوش التي اتينا على ذكرها سابقا ان هناك العديد من الثورات نشبت في ظل الاحتلال الحبشي اشتركت فيها قبائل يمنية كبيرة كذى جدن ، وكلاع ودا وذي يزن وغيرها من القبائل وقد قمع الاحباش تمرداتها وثوراتها ، وتقول الاخبار ان كثير من الاذواء والاقيال قد بقوا على دين اليهودية ورفضوا الدخول في النصرانية . وتحمل الانباء وتشير الى ضعف النفوذ الحبشي في اليمن بعد انكسار حملة مكة . وتشير الاخبار الى ضعف وتفكك نظام حكم ابناء ابرهة بعد موته على الرغم من البطش الشديد الذي اعتمدوه اسلوبا لتثبيت اوضاعهم في اليمن .

من كل ذلك نخرج بنتيجة مفادهـا ان جماعات من الاقيال والاذواء قد استعادت انفاسها في ظل ضعف الاحباش واتصلت ببعضها ورتبت للقيام بحملة ضد الاحباش وقد تزعم هذه الجماعة الامير الحميري سيف بن ذي يزن وكانت مهمته الاتصال بالقبائل العربية في الجزيرة والشام للوقوف بجانب القبائل اليمنية في ثورتها .

سار سيف على رأس جماعة من قومه الى الجزيرة العربية طلبا للعون من القرشيين وهو يتصور العون فالخطر الذي يهدد اليمن والجزيرة العربية واحد ، وقد اتضحت نواياه التوسعية بعد الحملة الفاشلة على مكة والتي لولاها لامتد النفوذ الحبشي في طول الجزيرة وعرضها . وبعد ان عجزت قريش لظروفها الذاتية ان تقدم شيئا سار بوفده الى شمال الجزيرة. مخترقا صحاريها الشاسعة

المتدة حتى الشام مستنجدا بأبناء قحطان من غير ان يحسب حساباته لقساوة الظروف الموضوعية المحيطة بهم ، بل لقد حسب حساباته بمنطق الذهنية السائدة انذاك والمعتمدة على العرقية والسلالية والنسبية المتجاوزة بطبيعة تركيبها القبلي كل الروابط الاخرى عدا ما ينتسب بصلة الى السلالة والقبلية خاصة في ظل عدم وجود الروابط الاخرى مباشرة . واحسن الغساسنة رغم مشاعرهم المتعاطفة مع ابناء العمومة بعدم القدرة على التمرد والخروج عن روما المتعاطفة مع عدو اليمنيين لدعم اليمنيين في نضالهم ضد الاحباش كان من المستحيل ان يزجوا بأنفسهم في صراعات مع بيزنطا لا قبل لهم بها ، فنصح منهم ، وهم الاخبر بالصراع الفارسي الروماني لمعايشتهم الطويلة له ، بالتوجه الى فارس ومحاولة الحصول على دعم القبائل العربية الموالية لفارس كالمناذرة فقد يجد عندهم العون العربي والدولي .

سار سيف على رأس وفد ، وليس وحيدا ، كما يحاول الفكر العربي الغيبي تصوير ذلك ، من الشام الى الحيرة قاطعا الجزيرة عرضا . ويأتي تشديدنا رفضا للمنطق التعسفي للفكر العربي الاسطوري والذي يحاول ان يخرج لنا الوقائع والاحداث التاريخية بصورتها الاسطورية البطولية كما لو كانت هي الحقيقة التاريخية وهي الحدث الواقعي فمن المستبعد ان يقطع شخص الصحاري والقفار الشاسعة بمفرده .

لقد ذهب سيف برفقة جماعة كان على رأسها الا ان الفكر العربي واليمني بالذات اخرجها وهو يرويها بصورتها البطولية الاسطورية ولعب البعد الزمني دوره في الاخراج والتثبيت والاقرار به كمسلمة منطقية واقعية .

وتبقى هناك نقطة هامة وهي خروج النعمان بن عفير الى قيصر الروم ، ولا نميل الى هذا الراي فمن المستبعد الاستعانة بالروم والفرس في نفس اللحظة التاريخية ، والقبائل العربية تعرف ان هناك تنافسا وصراعا بين الدولتين العظميين وقد وزعت ولاءها بينهما فمنها من مال نحو فارس ومنها من عادى الاول ومال الى الروم ودان بديانتها النصرانية ، كما وان من المستبعد ان تلجأ جماعات لا تميل الى النصرانية بل وتعاديها الى الروم الا اذا كانت قد اعتمدت خطة سياسية شديدة التعقيد والتداخل نستبعد ذلك

تماما لبساطة ذهـنية الانسان العـربي في تلك المرحلـة المتقدمة واعتمادها على الجوانـب البطولية البعيـدة عن التخطيطـات والتكتيكات السياسية المربكة . وفوق هذا وذلك فقد اعتنق آل ذي يزن اليهودية واصبح في حكم المستحيل موالاة روما حليفة الاحباش ليهود او وثنيين على حساب نصارى هم حلفاء لها قبل كل شيء ولذا فليس هناك مجال لموضوعة كهذه ، ومن المحتمل أن تكـون هذه الفكرة ، ونقول الفكرة ، وليس الحدث للمعتمدة من قبل كثير من المؤرخين والرواة العرب قد استنتجت كحدث مـن احداث ووقائع تاريخية جاءت معها في فترة زمنية متقاربة ، ونقصد بها رحلة امرؤ القيس الامير الهندي والشاعر العربي الكبير الى قيصر الروم ، الا ان مؤرخينا العرب لسبب او لاخر لم يأخذوا بعين الاعتبار الملابسات التي احاطت بكل واقعة منهما على حدة . فخلطوا بين الاثنين وجعلوا سيفا في مقام امرؤ القيس يطلب معونة محتل اجنبي موال للاحباش ضد الاحباش ، في حين راح امرؤ القيس يطلب معونتهم ضد قبائل عربية ويفرش الطريق امامهم للحصول على موطيء قدم لهم في الجزيرة اي انه يدخل الى الجزيرة احتلالا ، اما سيف فهو يرفض احتلالا مواليا لهم وبمعطيات المنطق العلمي فستبقى حقيقة هائلة امامنا كما مثلت امام سيف ، وهي الارتباط الديني القوي المعروف للجميع بين الاحباش والرومان الذي ينسف مجرد التفكير به كل فكره سياسية خطرت لليمنيين قبـل ترجمتها الى واقـع سياسي معـاش .

المساعدة الفارسية

تختلف الروايات التاريخية حول المساعدة الفارسية ، فمنها من بالغ في تقديرها ، ومنها من قتر تقتيرا شديدا . ومقدمة تلـك الروايات الرواية التي اوردها الطبري حيث قال : فحسبوا لـه فوجدوا في سجونه ثمانمائة رجل . فقال : انظروا الى افضل رجل منهم حسبا وبيتا واجعلوه عليهم ، فوجدوا افضلهم حسبا وبيتـا وهرز . ثم هناك الرواية التي تقول ان كسرى ارسل بعشرة الاف رجل تحت قيادة وهرز لمساعدة سيف واليمنيين ، ونحن نستبعد إرسال الاعداد المذكورة في الروايتين والتخريجات التي تبعتهما من

اجل التفسير والاقناع ، وسنحاول مناقشة الرايين لنضع بعد ذلك ، راينافي معلومات الروايتين واخبارهما .

اعتمدت الرواية الاولى على تخريجاتها الذاتية ، والتي تتصور ان كسرى اراد فقط ان يتخلص من نزلاء السجون الفارسية من السياسيين والمعارضين لحكمه ، واعتبرت ان هذا العدد هو كل ما في سجون كسرى لتأثرها بنظام حكمه المعتدل بالقياس الى انظمة الحكم السابقة القاسية والشديدة الوطأة على فارس . كما وضعت في اعتبارها استبعاد كسرى لخوض معركة مكشوفة مع بيزنطا ورفضه للتدخلات المباشرة . كما ارادت ان تعبر عن حسن نوايا كسرى وفارس تجناه سيف واليمن ، اي ان المقصود هو الدعم المعنوي ، واثبات حسن نية فارس تجاه اليمن . واعتماد معلوماتهم المقدمة للاعلان ، معلومات صحيحة صادقة . وهذا راي فريق من الرواة الذين اعتمدوا في اخبارهم على هذه المعلومات ، اما الفريق الاخر الذي اعتمد على الاخبار فقد انطلق من موقف معاد لليمن واليمنيين ، ويرى ايذاءهم في تذكيرهم بالاستعمار الفارسي ، والذي تسلل اليهم وحكمهم باعداد لا تكاد تذكر من الجنود ليذكرهم بأن الاسلام كان هو المنقذ الحقيقي لهم من حكم « الابناء » . كرد على تبريرات زعماء المتردين بعد موت الرسول .

اما اولئك الذين اعتمدوا العدد الكبير من الجند ، والذي يصل الى عشرة الاف جندي او يزيد فقد انجرفوا وراء تيار المبالغات ، وتجاوبوا من الاشاعة والدعاية ، ارادوا ان يصوروا فارس مدافعة عن اليمنيين ، وان اليمنيين اعتمدوا في قتالهم مع الاحباش على الجيش الفارسي لتلصق تهمة موالاة سيف لفارس ، وليظهروا ويثبتوا ان فارس قد تدخلت مباشرة من اليمن ، وضربت اتفاقات الصلح مع بيزنطا عرض الحائط ، وارسلت ذاك العدد الكبير للاحتلال . وهناك جماعة اخرى من هذا الفريق تريد ان تبرر لليمنيين خضوعهم لابناء الفرس بقد مقتل سيف .وتداخلات تقييمات الفرقاء المؤيدين والمعارضين في بعضها لتثبت هذا العدد او ذاك .

ولتقديراتنا بأن في الراي الاول كثير من التقتير ، وفي الاخر كثير من المبالغة ، وان ما انتابنا من شك في صحتها التاريخية قد حملنا على التفتيش بالتحليل عما يمكن ان يكون معقولا في تلك الظروف .

لسنا مع الرأي القائل بأن نزلاء سجون فارس هم الثمانمائة رجل ، ولنفترض ذلك فمن المستبعد ان يقبل سيف بسهولة هـذا العدد البسيط والضئيل وهو الذي قطع القفار والصحاري للوصول الى كسرى واذا سلمنا بذلك فاننا نعتقد ان قبوله قد جاء نتيجة وعد اخر من المناذرة بالتعويض ، وتسديد الثغرة العددية في الفرسان والمقاتلين . ثم لا ننسى ان هناك معلومات تاريخيـة تقول : ان المعونة الفارسية قد ارسلت على دفعتين ، وشجعنا هذه المعلومات على ان نعتمد في تخريجاتنا وقائـع اقرب الى الحقيقة والواقعيـة التاريخية .

وعود على بدء للتذكير بما اوردنا من معلومات سابقة من أن الدولتين فارس وبيزنطا قد عقدا صلحا يرفض الاحتكام الى القتال اسلوبا لحل المنازعات بينهما . بعد الحروب الطويلة التي نشبت بينهما ، وضعضعت اركانهما ، وخلقت لهما المشاكل والمآسي الكثيرة في الداخل ، حتى كادت عروش اباطرتهما ان تهوي . وتجنبا للمشاكل الداخلية والخارجية اعتمد كسرى سياسة متبصرة ترى الاحتكام الى المفاوضات اسلوبا لكل المشاكل المتعلقة بين فـارس وبيزنطا ، والتفرغ للبناء في الداخل ، واعادة تنظيم الدولة وقوانينها ومرافقها ومؤسساتها . وانكفأ كسرى يبني الداخل بعد ان اوقف صراعات فارس مع بيزنطا .

اعتمدت بيزنطا اسلوبا اخر للتـدخل في شؤون الجـزيرة العربية ، وحولت ساحة المعركة الى جنوبها ، وأمدت الحبشة بما احتاجته من مؤن وعتاد . فماذا يعني ذلك لفارس ؟؟ يعني ضرورة مد يد العون والمساعدة للاصدقاء ، من دون تورط مباشر يحمل فارس المسؤولية كلها ، ويدخلها في قتال مباشر ومن جديد مع بيزنطا . من هنا جاء الرفض لطلب سيف اولا ، ثم حصلت المراجعة مع المزاربة والشيوخ ، والموافقة بعد ذلك على المساعدة بشرط عدم التورط ، ومن هنا استبعد الفرس ارسال عشرة آلاف جندي ، فان في ذلك تدخلا مباشرا قد يثير الحرب من جديد بين فارس وبيزنطا التي ستهب لنصرة الحبشة . هذا عدا تكاليف تموين العشرة آلاف جندي ، ولذا كان لا بد اولا من ابعاد شبح الحرب بين الفريقين ، كما كان من الضروري امداد اليمنيين بامدادات عسكرية فوق اعداد الرجـال المساجين وتحت ستارهم . اي التستر على المساعدات العسكرية

لتفويت الفرصة على روما ، تجنبا لاي تورط قد ينجم من تسرب الاخبار فيجر الى معارك دامية بين الدولتين في وقت كانت تحرص فيه فارس كسرى على تجنب الحروب الخارجية المباشرة مع بيزنطا.

لقد خلق حرص فارس على السرية مجموعة التخريجات المتناقضة ، والمفارقات في التقديرات العددية بين الثمانمائة سجين والعشرة آلاف جندي ، ولذا تأتي تقديراتنا للامدادات الفارسية متراوحة بين الثلاثة والستة آلاف رجل ، من المحتمل ان يكونوا نزلاء السجون الفارسية . كما ان هناك احتمال آخر ان الامدادات كانت خليط من المساجين والعسكريين ، كانت الدفعة الاولى من نزلاء السجون ، وهي التي اوردها الطبري في الرواية التاريخية المذكورة سابقا ، ثم لحقتها الدفعة الثانية التي تستر عليها سياسيا ، ونحتمل فيها اكثر من احتمال : فاما ان تكون قد ارسلت مع المساجين ، او انها ارسلت فيما بعد في سفن خاصة بها . وعلى كل فالمهم في القضية هو حجم المساعدة ، ولقد قدرنا ذاك العدد لفرضيات عدة منها :

١ ــ ان ثمانمائة سجين فارسي عدد لا يذكر في حسابات المساعدات لمواجهة جيش تخبرنا نفس الروايات التاريخية باعداده الهائلة . ولا شك ان الثمانمائة سجين جماعة قليلة تعجز عن تحقيق هدف فارس في فرض نفوذها او تحقيق نفوذ لها في اليمن . لذا فقد اصبح التشطيب على العدد الثمانمائة ضروريا ليحل محله رقم أقرب الى المعقول للاقتراب من الحقيقة التاريخية .

كانت لكسرى رغبات ومطامع في ادخال اليمن تحت الحماية الفارسية ، او حتى ربطه بعلاقات صداقة وولاء يعبر عنها بارسال الخراج والجزية المتفق عليها من الطرفين . كما ان استنفراد ابناء فارس بالحكم في اليمن بعد مقتل سيف انما يؤكد على ان اعداد القوة المرسلة يزيد عن ثلاثة آلاف جندي .

قدمت اليمن بعد انتصار الحركة الوطنية اليزنية وفود من الجزيرة العربية مهنئة مباركة ، وكان من ابرزها وفد قريش الذي وصل صنعاء من مكة ، وعلى راسه كبار رجال قريش عبد المطلب بن هاشم جد الرسول ، وامية بن عبد شمس ، واسد بن عبد العزى وعبدالله بن جدعان ، وامية بن ابي الصلت ، وينقل التاريخ صورة حفلات الاستقبال للوفود المهنئة من خارج اليمن ، ويستقبلهم سيف ويأذن لهم بالدخول عليه ، وحين دخلوا « وجدوه متضمخا بالعنبر

يلصق وبيض المسك من مفرق رأسه وعليــه برادان اخضران ، قد اتزر باحدهما وارتدى بالاخر ، وسيف بين يديه ، والملوك عن يمينه وشماله ابناء الملوك » .

يتقدم عبد المطلب بتهانيه بعد ان يطلب الكلام من المجلس ليشيد بسيف وحركته التحررية وقائدها قائلا : « ان الله تعالى ، ايها الملك ملكك محلا رفيعا وصعبا منيعا ، باذخا شامخا ، وانبتك منبتا طابت ارومته وعزب جرثومته ونبل اصله ، وبعد فرعه ، في الكرم معدن واطيب موطن ، فأنت ابيت اللعن . راس العرب وربيعها الذي به غضب ، وملكها الذي به تنقاد » .

يبدي سيف ميلا نحو وفد قريش ، ويقرب منه عبد المطلب فقد كان يعده واحدا من الاسرة اليمنية ويناديه « يا ابن اختنا » ، ومن ذاك الحفل يجامل سيف وفد قريش كثيرا .

هذه هي القصة التاريخية لحركة سيف حتى انتصاره على الاحباش فما هو مصيره بعد الانتصار وكيف كانت نهايته ؟؟ اسئلة نجيب عليها من المعلومات التاريخية المجمعة والمحللة حتى نستكمل بها رسم الصورة الكاملة .

اغتيال سيف :

بعد طرد الاحباش من اليمن كاحتــلال اجنبي ، وانتصار الحركة الوطنية اليزنية بمساعدة الفرس . استقر سيف علــى العرش اليمني بمباركة فارس وقائدها في اليمن « وهرز بن باذان » وبقي يحكم في اليمن فترة من الزمن لم تشر كتب التاريخ الى مدتها ، وهل طالت ام قصرت نتيجة المؤامرات التي بدات خيوطها تحاك في الظـــلام ؟؟

وتأتنا الاخبار التاريخية لتبلغنا عن مقتل سيف غدرا ، وتختلف في القاء تبعة الاغتيال ، على من تقع ، ومن يتحمل مسؤوليتها ؟؟ الاحباش كوجود استعماري مندحر ، ام الفرس كاستعمار جديد له مخططاته التي يعمل على تنفيذها فوق الارض اليمنية ، ام كقادة لهم مطامعهم ورغباتهم الذاتية ؟؟ ام لا هذا ولا ذاك ، وانما المنافسة اليمنية بين الاذواء والاقيال ؟؟ هل جاء الاغتيال بدوافع ورغبات ذاتية فردية ، ام ضمن مخطط كبير وشامل مرسومة خطوطه العامة في دوائر استعمارية ؟؟

كومة من الاسئلة تبحث عن جواب في كتب التاريخ ، وفي بطون الوقائع والاحداث وتأتي محاولاتنا للاجابة على الاسئلة المطروحة لعلنا نتمكن من القاء الضوء على قضية ما زالت حتى الان غامضة ومجهولة .

يتفق الرواة والمؤرخون على ان الايدي التي امتدت الى سيف هي ايد حبشية أي انها الاداة المنفذة لعملية الاغتيال ، وليس العقل المدبر للجريمة ، فقد استخدم سيف جماعة منهم امعانـــا في التحقير والاهانة بعد انتصاره عليهم . وتدل هذه الواقعة على أن اولئك المستخدمين لم يكونوا مجرد خدم ، أي من الفئات الحبشية الوضيعة أو مجرد بقايا الجنود الاحباش ، بل لا شك وانهم ممن استسلم وبقي من الاسرة الحبشية الحاكمة ، وقد اقدموا على فعلتهم في غفوة من الزمن رغبة في الانتقام منه نتيجة للتحقير والاذلال الذي لحق بهم على يده ، فقد كانوا علية القوم وحكامهم . وهل يعني ذلك انهم كانوا هم العقل المدبر كما كانوا الاداة المنفذة ؟؟ وعلى الرغم من عدم استبعاد ذلك ، الا ان النتائج والمعطيات للحادث تقول لنا أن العقل المدبر للجريمة كان هو المنافس والمتضرر من النفوذ المتعاظم لسيف.

ذكرنا سابقا ان « كسرى انو شروان » ملك فارس قد كلف قائده « وهرز » بأن يرسل اليه الجزية والخراج ، أي ان كسرى ربط اليمن عن طريق الخراج وبقائد الجند وهرز ، ولم تكن تهمه الشؤون والقضايا الداخلية لليمن ، لبعد المنطقة من جهة ، ولعدم جدوى بل ولاستحالة التدخل في كل صغيرة وكبيرة في اليمن ، ثم لاستبعاد تطاول سيف بن ذي يزن على فارس وملكها . لذا فان العلاقة بين الطرفين تتلخص ، في دفع الجزية ، وعدم التطاول عليها والارتماء في أحضان أعداءها التاريخيين ، أو اثارة المتاعب لحلفائها من القبائل العربية الواقعة على حدودها الجغرافية .

هناك الطرف الفارسي الاخـــر المكلف بالتعـــاون مع سيف وتتويجه بعد النصر ملكا على اليمن فما هي حقيقة علاقته بسيف ؟ هل يمكننا ان نلقي التهمة عليه ؟؟

وقوفا أمام الاخبار التاريخية التي تقول : ان وهرز هو الذي قتل الملك الحبشي مسروق في اليمن ، وعلى يده كان انكسار الجيش الحبشي ، فقد تمزق وتناثر وتشرذم ، وكتب النصر للجبهة اليمنية الفارسية المتحالفة ، ثم تقول الاخبار ان وهرز توج سيف بتاج كسرى

عمد سيف ملكا على اليمن بعـــد هزيمة الاحبـــاش ودخول العاصمة صنعاء ، لذلك رأى وهرز وابناء الفرس احقيتهم في التحكم والتسلط على اليمن وشعبها من ملكها . الا ان ما لقيه سيف من تمجيد وتعظيم مكنه من فرض نفوذه وهيمنته الروحية والسلطوية مما اغضب وهرز وجماعته وأشعرهم باهتزاز مكانتهم . كما أطمعته السلطة والنفوذ الذي بقي يمارسه اثناء حكم سيف وفي وجوده ، بوقف هيمنة سيف على مقاليد الامور ، بل والاستفراد بالسلطة ان أمكن ذلك ، فبدأ ومن معـــه من الموالين لـــه من الفرس يحيكون المؤامرات لتنفيذ جريمتهم دون ان تطال اليهم يد او تقع عليهم عين ، ووجدوا في الجماعات الحبشية المحتقرة والمذلة والحاقدة اداة طيعة للتنفيذ ، بل وراغبة فيه ، وكان ما كان من تنفيذ للجريمة ، وأتت نتائجها لتؤكد مقدماتها ، وعلى نفس المقدمة كانت النتيجة ، فبعـــد مقتل سيف استلم ابناء الفرس زمام الحكم في اليمن وبقوا متسلطين على الشعب اليمني حتى بعد دخول الاسلام الى اليمن حيث لمحمد الرسول العربي محمد بن عبد الله أحد ابناء فارس ويدعى فيروز الديلمي واليا على اليمن مما اغضب اليمنيين ، وأثار حميتهم فكان ما كان من تمردات وعصيان وثورات عرفت في التـــاريخ العربي الاسلامي بالردة .

وقد استبعدنا اشتراك الاذواء في مقتله لعدم وجود أدلة على ذلك ، كما ان المقدمات ونتائجها لا تثبت فكرة كهذه ، وخلاصة القول هي ان سيف قد قتل بأداة غير يمنية بين حاقدة وطامعـــة في اليمن وشعبها . دفعها الى ذلك بالدرجة الاولى احقادها وطموحاتهـــا ورغباتها الذاتية ، وأغرتها مجموع الظروف الموضوعية ومنها رغبتها في ابقاء اليمن في دائـــرة النفوذ الفارسي حيث مثلت هـــي رموزه وأداته .

آراء في حركة سيف :

بعد ذاك السرد والتحليل التاريخي لمجمل الظروف التي أحاطت بحركة سيف اين يمكننا ان نضعها ؟؟ هل هي حركة عنصرية لونية ، كما يريد البعض ان يتهمها أم هي حركة دينية عرقية ؟؟ أم انه سيكون في امكاننا ان نقيمها ضمن الحركات الوطنية التحررية ؟ للاجابة على

هذه الاسئلة علينا اولا ان نتجنب الخلط في المعلومات التاريخية ، ثم علينا ألا نتصيد الهفوات ونركبها على القضايا الحساسة والا نسخر المعلومات التاريخية ونخضعها لما أردنا مسبقا ان نقوله .

يستند الرأي الذي يعتقد ان حركة سيف هي حركة عنصرية لونية الى اشمئزاز اليمنيين من المحتلين السود لا لانهم محتلون ، وانما لبشرة لونهم السوداء ، ولان الارستقراطية اليمنية والعربية كما وصفت تؤمن لاسباب تاريخية واقتصادية بالعرقية ، وترى في اللون الاسود رمزا للعبودية وخمود الذهن . ويعتمد هذا الفريق في المبررات التاريخية لهذه الفكرة ، على موضوع رؤيا رآها ملك يمني يعرف بربيعة بن نصر اللخمي وردت في « سيرة ابن هشام » وكتاب « الكامل » « لابن الاثير » وتدور رؤياه حول دخيل يهبط ارض اليمن وهو حبشي اللون ، ويرى على حد تعبيره ، أن تلك الارستقراطية بالغت في تضخيم دور سيف في عملية الانقاذ البطولية ، لانها كانت موجة بالدرجة الاولى للون المحتل الاسود ، وهي التي حملت سيف على رأي أصحاب هذا الرأي ، لان يقف امام كسرى خاضعا ذليلا ، يبيع اليمن لمستعمر جديد أبيض اللون .

وينطلق الرأي القائل بأن حركة سيف هي حركة دينية عرقية من قضية الصراع المسيحي اليهودي في اليمن ، ويعطي هذا البعد الاحادي الجانب لحركة سيف متهما اياها بالتعصب الديني ، ولا نستطيع هنا أن نرفض ذلك كلية ، فقد كان الدين عامــلا مهما في تحريك الاحداث عبر مراحل طويلة من تاريخ الانسانية الا انه ليس العامل الوحيد ، ولم يكن له دورا رئيسيا ومباشرا في حركة سيف والا فما يعني الذهاب الى الغساسنة وهم نصارى . وماذا يعني الذهاب الى الفرس وهم يدينون بالوثنية ، كما لم تعرفنا أخبار التاريخ عن انتقائه لرجاله حسب مواصفات دينية محددة . امــا كونها كانت حركة عكسية لحركة ولقضية تحركت تحت شعار الدين كما هو في الظاهر فلا يعني ان تكون حركة سيف بالضرورة دينية .

ان رمي القفاز في وجه الحركة عملية غير صحيحة ، والاستناد الذي جاء عند أصحاب هذا الرأي من « حادثة الاخدود » في محاولة لجعل تلك الحادثة مقياسا صالحا لكل فترة ومكان عملية مرفوضة ، ومرفوض معها التشديد على هذا الموضوع لانه لا يمثل الحقيقة

التاريخية ، وكان الاجدى انصافا لحوادث التاريخ كما وقعت ان يوضع هذا الموضوع في موضعه الصحيح ، فأبرهة وجيش الاحباش هم الذين شرعوا يبيدون الشعب اليمني سيرا على قاعدة التثليث في العقوبة بناءا على أوامر النجاش .

لقد حاول ابرهة في حكمه اعتماد وسائل عدة لمحو اليهودية الى حد الذي فرض فيه الموت عقوبة لكل مسيحي يزوج ابنته من يهودي ، كما الزم اليهود بتزويج بناتهم من النصارى ، تحت تأثير أمل يداعبه في خلق شعب موحد النظرة متجانس المشرع . لقد حمل التزمت الديني أبرهة على ان يسلك هذا السلوك ، ويكرس جل اهتماماته لتلك القضية ، فبنى الكنائس وتفنن في البناء رغبة في ان تؤثر على نفسية الانسان العربي . لذلك لم يكن التزمت الديني من سيف ، ولم ينطلق في حركته من هذا المنحى . ولذا فان كل ما يقال عن الحركة بأنها دينية عنصريـــة يجانب الصواب ولا يـــلامس الحقيقـــة .

كيف نفهم حركة سيف بن ذي يزن على ضوء المعطيات المادية التاريخية ؟ ولنفترض افتراضين الاول انها حركة وطنية قومية ، والآخر انها حركة عميلة موالية لدولة من الدولتين الكبريين في تلك المرحلة . وللوصول الى الافتراض الاول سنتناول الافتراض الثاني كمسلمة حقيقية حدثت في التاريخ فعلا ، واستند في تحويلها الى حقيقة تاريخية على حوادث وقعت اثناء مسار الحركة اليزنية او بمعنى ادق بعد انتصار التحالف اليمني الفارسي على الاستعمار الحبشي .

تحكي لنا الروايات التاريخية ان القائد « وهرز » توج سيفا بتاج كان معه ، كما البسه بذقة من الفضة ورتبه بالملك على اليمن ثم كتب الى انوشروان يخبره بالفتح . ويمكن لو نظرنا الى حوادث التاريخ ، اضافة اليها تلك الحادثة التي تؤكد من وجه نظرهم عمالة سيف للفرس ، ان نصبغ على تلك الحركة صبغة العمالة لدخيل أجنبي ، بل وسوف نضيف الى جانب ذلك ، حتى تكتمل الحجج في أيديهم ، حادثة ترويها كتب التاريخ فتقول : ان كسرى قد اشترط على سيف شروطا منها : ان الفرس تتزوج باليمن ولا تتزوج اليمن منها ، ليس ذلك وحسب بل اشترط عليه دفع خراج اليه ، فماذا يعني ذلك ؟؟

لا شك وانه يعني عمالة الحركة لفارس ولحكـام فارس ، وتعطي المجال لاولئك ان يعدوا سيف مجرد حاكم صوري وعميـل لمستعمر لا يختلف عن المستعمر الحبشي الا بلون جلدته .

ونتيجة لتلك الاحداث فقد اصيب البعض بعقدة مستعصية البحث والنقاش فحملوا سيف أعباء تاريخية كبيرة وتصوروا فيـه معايشة للواقع والحاضر وقد اتهم بخلق عقدة التدخل الاجنبي . وهي ما تعرف بالعقدة اليزنية .

حقيقة حركة سيف :

سيرا مع حوادث التاريخ خطوة خطوة ، وتحليلا لها وصولا الى الحقيقة ، يمكننا أولا ان نذكر القاريء بعلاقة فارس بالوطن العربي ومكانتها فيه ، انطلاقا من علاقتها الاقتصادية والسياسية به ، ثم من مكانتها وثقلها الثقافي والحضاري في المنطقة ، والى جانب هذا وذاك قربها الجغرافي المتاخم والمحاذي لاراضيه وحدوده . ولو عدنا الى حوادث التاريخ ، والتي تشير الى ذهاب سيف للاستجابة بالغساسنة فاننا نستخلص منها ما يلي :

ان ذهابه الذي حصل فيما بعد الى فارس لم يكن مخططا له من قبل ، وقد جاء بناءا على مشورة ، لينفي وجود علاقة مسبقـة مع فارس ، وصل سيف الى النعمان بن المنذر بقي عنده فترة حتى حانت فرض ذهاب النعمان ومقابلة كسرى ، ثم التوسط لسيف بالمقابلة ندرك ان علاقة جديدة يحتمل ان تنشأ بين اليمنيين وفارس . ثم موقف كسرى الرافض ، ثم المراجع للموقف السابق كل ذلك لا يشتم منه رائحة الخيانة والركوع . أما الحاح سيف على كسرى فقد جاء نتيجة ادراك سيف ان هذا آخر أمل له في انقاذ الوطن اليمني المزق من جهة ، ومن جهة ثانية فيتحقيق آماله وطموحاته الشخصية والتي لا تتعارض مع الهدف الاول ، ولا يعني العمالـة او الموالاة لفارس كما يرى أصحاب هذه التهمة .

الا ان استغلال الفرس للظروف المهيئة ، وقطفا للثمـرة الناضجة للسقط جاء موقف كسرى بعد المشاورة مع مزاربتـه ضاربا عصفورين بحجر . الاول التعاون مع سيف والشعب اليمني ، والثاني مد حدود الامبراطورية الى الجزيرة العربية من غير خسائر كبيرة ، فالشعب اليمني بطبيعة الحال وبالنظر الى حجم المساعدة

الفارسية سوف يتحمل الاعباء الكبيرة في التضحية ، وقد تحملها للخلاص من مستعمر متخلف ، اخذين بعين الاعتبار الظروف الصعبة التي كان يعاني منها .

لقد جاء طلب سيف للمعونة الفارسية ليس رغبة في الاحتفاظ بالسلطة وخوفا عليها من الضياع حتى يعطينا مبررا لاتهامه بالعمالة كما ان الاتصال لم يأت بناءا على علاقات سابقة ، وانما جاء من وحي الظروف القاسية التي عاشها الشعب اليمني والتي اشتدت وطأتها نتيجة لتصرفات الحكام الاحباش ، وما اوجدوه من حالة من الضياع والتمزق لم يشهد اليمن في تاريخه مثلها .

لقد جاء اللجوء الى فارس بنوع من الموضوعية استجابة لنداء وطني وربما رغبة في تحقيق طموحات فردية ذاتية او انتقاما لكبرياء طبقية وقومية فما الضير في ذلك ؟؟ الم تصب في نهاية المطاف في نفس المصب ، وهي اخراج دخيل من ارض الوطن المهان الممزق ، وانقاذ شعب بأسره من حالة الفوضى والضياع . أما موضوع كيف جرت حركة سيف على اليمن احتلال واستعمار الفرس لها فهذه قضية اخرى لم يكن يحسب لها سيفا حسابه على الرغم من ان الحوادث تبلغنا بأن سيف راح يرغب كسرى في اليمن .

لقد جاءت عملية الترغيب لكسرى في محاولة لاقناعه بالمساعدة ، خاصة وان سيفا كان يدرك تماما بعد زيارته للغساسنة والنعمان بن المنذر ، وعلى ضوء الواقع اليمني انه يتعذر حل لمشكلة اليمن من دون مساعدة الفرس ، وان تلك الفرصة كانت آخر فرصة أمامه لانقاذ الوطن .

أما الفرس فقد حسبوا حساباتهم بدقة لتكون الحركة ، ان نجحت ، حركة توسع واستعمار بأقل التكاليف والخسائر ، ومن هنا جاءت شروط كسرى أولا : ان الفرس تتزوج باليمن ولا تتزوج اليمن منها . ثانيا : فرض الجزية والخراج على سيف . وفوق هذا وذاك فقد ارسل جنده بقيادة فارسية . من ذلك يتضح ان نية الفرس مبيتة لاحتلال اليمن ، والبقاء فيها وربطها بفارس وملكها كسرى .

وجاء الحدث الاخر بعد الانتصار تتويج وهرز لسيف وترتيبه له في الحكم وهذا يعني اخضاع اليمن وسيف لملك فارس ، وقد عبر ذلك الموقف تعبيرا حقيقيا عن اطماع فارس في اليمن ورغبتها في السيطرة عليه وادخاله ضمن مناطق نفوذها . وقبل سيف تلك

الوضعية فلم يكن يملك حق الرفض او التمرد أو حتى المعارضة في ظروف كانت في منتهى القسوة عليه وعلى الشعب اليمني .

وطنية الحركة وقوميتها :

انطلاقا من فهمنا لقضية تثوير التراث تناولنا في بداية بحثنا للجانب الواقعي في القضية اليزنية الظروف الذاتية والموضوعية المؤثرة في **الحركة الوطنية اليزنية** ، وحاولنا ان نبين بلغة المنطق الحقيقي السليم ، ان حركة سيف ليست حركة فردية محضة . كما حاول الفكر العربي الميتافيزيقي ان يصورها ، بل هي حركة جماعية شأنها في ذلك شان اية حركة في التاريخ يراد بها التغيير والتبديل ، ولو كان محدودا . الا ان منطق الاحداث في تلك المراحل الزمنية بصورة عامة كان يفرض سيطرة وهيمنة الروح الفردية على نشاط الجماعة وحركتها ، فتسيرها وتوجهها في الاجواء التي سادتها روح الديمقراطية في البنية الفوقية ، أما أجواء الديكتاتورية المطلقة فقد كانت تسحب مجهودات الجماعة كراهية واغتصابا ، فينسبها الدكتاتور الى ذاته الفردية ، وتحملها كتب التاريخ تاريخا وازمانا بذاك الاسم ، وتحتوي الهيمنة الفردية أي مجهود جماعي ، ومن هنا لمعت الاسماء الكبيرة في التاريخ ، وكأنها المحرك الوحيد لاحداث التاريخ العظيمة والكبيرة ، أو تحولت ، بفعل عامل الزمن وسيطرة الذهنية الاسطورية المتعلقة بالخوارق ، الى الافراد . فظهرت جميع الاحداث التاريخية في المنعطفات المصيرية للشعوب والامم ، وكأنها صنيع هذا البطل أو ذاك الملك ، ولا يعني ذلك على وجه الاطلاق التشطيب على دور الفرد في التاريخ ، بل هناك أفراد عظام وشخصيات قوية فعالة . الا اننا لا نفصلها عن ظروفها ، كما جرت الحال في حركة سيف ، وحسب تصوراتهم الميتافيزيقية للموضوع ، وكما أردنا في دراستنا ان تكون الصورة المغايرة بحسب فهمنا للقضايا التاريخية ، وحيث اننا وضعنا سيف في ظروفه الموضوعية فحولنا عمله الفردي البطولي في نظرهم الى حركة وطنية لم يأت ذلك التحول مزاجا ورغبة ذاتية ، بل اتى اثر استيضاحنا للعلائق الداخلية في الحركة ، وبعد أن اجلينا الظروف والملابسات التي اكتنفت الحركة فحولتها الى بطولة فردية خارقة ، وساعد ذلك التحول الذهنية

الميتافيزيقية ، وجاءت دراستنا محاولة لاعادة الامور الى وضعها الصحيح ، وكما كانت عليه في الواقع ، وضمن سياقها التاريخي ، ومن هنا بدت حركة سيف في دراستنا حركة وطنية خلقتها الجماعة والظروف الموضوعية التي احاطت بهم ، ثم تجسدت بسيف رمزها الانساني الثوري . ولقد خرجنا بنتيجتنا من نقاشنا لمجموع الاراء التي قيلت في سيف كموضوع بطولة فذة تصدت لحركة احتــلال استعمارية . فلماذا اعديناها حركة ، ولماذا اعطيناها صفة الوطنية ؟

لقد أعديناها حركة لانها كانت كذلك ، وعلى كل لنستخلص ذلك من مجموع المعلومات التي قيلت فيها . حتــى نسهل تصور الحقيقة او الواقعة التاريخية كما كانت عليه . تقول الاخبار التاريخية التي أوردها الهمداني ان هناك شخصيتين خرجت من اليمن قاصدة الاولى كسرى انوشروان وهي شخصية « سيف بن النعمان بن عفير » وتوجهت الثانية وهي شخصية عمرو بن النعمان الى قبائل قحطان بالشام وقيصر الروم . وتقول الاخبار ان سيف بعد ان عاد محملا بالسلاح والعتاد من فارس هبت القبائل اليمنية للوقوف معه وقفة رجل واحد . وقبل هذه وتلك ، تقول الاخبار التاريخية انه حدثت عدة ثورات ضد حكم ابرهة الحبشي اشترك فيها آل ذي يزن كما ذكرنا ذلك سابقا .

ان تلك القرائن تشير الى وجود حركة جماعية قبلية وشعبية تربع فوق قمتها سيف بن ذي يزن ومثلها فتجسدت به ، وظهرت من خلاله ، واصر الفكر الميتافيزيقي العربي على تصويرها بمجملها كما لو كانت بطولة فردية قام بها سيف لوحده ، ومن دون معين ، وراح ينسج حول ذلك القصص والروايات ليؤكد وجهة نظره .

ولقد اعطيناها **صفة الوطنية للغاية التي سعت اليها** ، وهي اخراج محتل دخيل من أرض الوطن ، وبأداة بالدرجة الاولى يمنية خططت للحركة ، ابتداءا من الوفد الخارج من اليمن الى الجزيرة العربية فشمالها ، ثم الى الحيرة ففارس ، وانتهاءا بالقبائل اليمنية التي استجابت للدعوة التحرريــة اليزنية آخذين بعــين الاعتبار المساعدات الفارسية للحركة ، والتي تأتي لا لتنفي وطنية الحركة ، وتدفعها جزافا بالعمالة ، بل لتؤكد وجود الذات اليمنية ، واصرارها على التحرر وتخليص أرضها بدعم مادي ومعنوي من أصدقاء وجيران

في المنطقة . أما العمالة التي يحلو للبعض ان يدفع بها الحركة تعنتا ومغالاة فان لها شروطا محددة كالاتصالات المسبقة والمستمرة لطلب المعونة ، والعلاقات المتبادلة غير المتكافئة قبليا لوقوع الحدث . ثم عدم التردد في اتخاذ الموقف المؤيد والداعم . كما حدث بالنسبة لكسرى في وقفته الاولى الرافضة طلب سيف في النجدة ،وفوق هذا وذاك فان العمالة تشترط سرعة الاتصال الى قرب المنطقتين لبعض، او بحسب عرف ذاك الزمان متاخمة حدود الدويلات الصغيرة او التجمعات القبلية للدولة الكبرى صاحبة الحول والطول في الامور ، لقد استطعنا في ملاحظاتنا التاريخية ان نستخلص شروطا للعمالة في العصور الوسيطة نلخصها بما يلي :

اولا : قرب الدويلة او القبيلة جغرافيا للدولة الكبرى ممثلة في القرون الاولى للميلاد بدولة الشرق فارس ، ودولة الغرب العظمى روما . ثم ثانيا : ضرورة متاخمتها لاراضي الدولة الكبرى لتتخذ منها مع مجموع الدويلات الصغرى المتاخمة حزام أمن لاطراف الامبراطورية هذا في ظروف الدفاع عن أراضي الامبراطورية ، أما ظروف الهجوم للامبراطورية المعادية او المنافسة فقد كان ذلك يستدعي التقرب بالوسيلة المتاحة انذاك للدويلة او القبيلة المحاذية حدودها لحدود الامبراطورية الضد لتتمكن بها ، او من خلالها بأن تنشب أظافرها في الوقت المناسب في جسم الدولة الكبرى المنافسة . ثالثا : كانت تقام العلاقات غير المتكافئة او علاقات العمالة طوعا وكراهية للدويلة او القبيلة التي تتمتع من ناحية جغرافية بموقع استراتيجي هام عسكريا أو تجاريا ، فقد يشكل موقعها الجغرافي منافذ بحرية أو برية للدولة العظمى يجعلها تفرض نوعية العلاقة التي تريدها هي وترغب في سنها ، والتعامل مع الطرف الاخر بموجب مصالحها ، في الوقت ذاته توفر الحماية اللازمة والمطلوبة بحسب الظروف المحيطة به . وعليه يصبح الارتباط بين الطرفين عضويا كالعلاقة بين السالب والموجب ، بين الخاص والعام .

تلك اذن الظروف التي خضعت على اثرها قبائل ودول وفرضت عليها العمالة لحساب اطراف دولية كبرى ، فأين بلاد اليمن في هذه القضية ؟؟ وأين حركة سيف وسط تلك العقدة من القضايا . ان الاضفاءات المتعسفة على الحركة اليزنية ، والآراء العشوائية والتي لا تمثل الا موقفا تلفيقيا حاقدا ضد تاريخ الشعوب

قضية مرفوضة بل ومدانة تاريخيا ، فالاحساس في الان بالعداء للاجنبي واسقاط الشعور العدائي على التاريخ ، والمستهدف هنا هو الحركة اليزنية ، دون النظر الى مجمل الظروف التي استدعت استدعائه يجعل من اولئك مجرد تلفيقيين لقضايا ولمواقف ، لا تمت الى الواقع بصلة ، وتتعرض القضية الاساسية على ايديهم للتشويه والتشويش المضر بالتراث حتى اللحظة المعاصرة ، فينعكس ذلك سلبا على ثقافتنا الوطنية ، ويؤدي الى تشويه لذاكرتنا الجماعية التي ترتفع الاحلام تجاهها الى حد اعادة صقلها لتتمكن بذاك التراث الذي استوعبته في ذاتها من احداث الثورة الثقافية المطلوبة والمنتظرة .

ان الاستعانة بفارس من قبل الحركة الوطنية اليزنية يأتي ليؤكد وطنيتها وليس العكس . **اولا** لان الاستعانة لم تأت تحت ضغط العمالة بموجباتها وشروطها التي شرحناها سابقا .

ثانيا : جاءت الاستعانة تحت ضغط ظروف اخرى مغايرة ، وهنا لا بد من التوقف امام القضية ورسم ملامحها الحقيقية سعيا منا لتقرير الواقع كما هو ، وكما جرت فيه الاحداث . وليس في ذلك ، كما قد يتصور البعض محاكمة للماضي من الحاضر ، وانما هي محاولة لرسم صورة الماضي كما كانت عليه برؤية علمية حددت الرؤيا الى وقائع وأحداث الماضي ، بالرغم من عمقه الزمني ، الذي نسج حول الاحداث والوقائع شبكة من الملابسات والمخالطات الارادية واللاارادية .

حين استكملت الجماعة اليزنية رسم هدفها برؤياها ومنظورها البسيط للواقع اليمني انذاك ، وضعت لنفسها شرطين ضروريين لحركتها الذاتية . شرط ذاتي تلخص في ضرورة الحركة وسط القبائل اليمنية وتهيئة اجواء الثورة والتمرد ضد الحكم الابرهي الممثل للنظام الاتوقراطي الاقطاعي في الحبشة ، ثم رات الجماعة ضرورة الاتصال بالقبائل العربية للتصدي معا للاطماع الحبشية في الجزيرة بمزيد من القوة والتماسك المطلوب بين الطرفين انطلاقا من وحدة المصير الذي يستدعي توحيد الاداة للمجابهة المصيرية .

وتحرك الوفد انذاك متجها كما تحدثنا الاخبار التاريخية الى القبائل العربية في الجزيرة لطرح وجهة نظره عليها عن طريق قريش ورجالاتها . وجاء ردها بعدم قدرتها على الوقوف بجانب اليمنيين

والتصدي معهم خصوصا بعد الاجتياح الابرهي لها ، والذي جاءت نتائجه على غير توقعات محركيه ، وخارج حساباتهم المعدة مسبقا ، وقبل حركة الاجتياح الفاشلة كانت قواها الذاتية تعاني من الضعف وعدم القدرة على التصدي ، او حتى القدرة على مد العون ، وعليه لم تكن على استعداد للتجاوب مع اطروحات الوفد اليمني وحواره معها .

تابع اليمنيون محاولاتهم بتهيئة الشروط الذاتية المناسبة لحركة التصدي لعنجهية الاحتلال الابرهـي ، فواصلوا مسيرتهم عبـر الجزيرة الى الشام حيث ابناء العمومة الحقيقيين ، وحيث يمكن ان ينجدهم التذكير بالقبلية والسلالية . ولم تستطع الشام كما عجزت نجد عن تقديم اي عون للحركة فاكتفت الثانية بتسديد الراي ، كما اكتفت الاولى بالاعتذار ، وتقديم الصلوات الحارة للآلهة المكية بأن تنصر أبناء العمومة في اليمن على عدوهم الحبشي. وبقيت المساعدات في نطاق الدعوات والصلوات الطويلة والقصيرة الحارة .

عجز الشرط الذاتي بشقه العربي عن استكمال تهيئة الشرط الذاتي المناسب للحركة ، فكان لا بد من تغطية موضوعية تسدد الثغرات في الشرط الذاتي ، وقد وجدوا انفسهم مواجهين بالحاح كيف يمكن سد الثغرة ؟؟ والتي يعني بقاءها التراجع امام الهجمـة الاستعمارية الحبشية الزومانية ، وقد استبان ذلك العجز في تحركهم السياسي . ووجدوا أنفسهم أمام اشكالية نضالية انبثقت اثـر الاجابة السلبية من القبائل تجاههم التي اثرت في حركتهم بشكـل مقوض ، وكادت تقعدهم عن مواصلة خط سيرهم التحرري . الا أن المشورة الغسانية قد نبهت الجماعة اليزنية الى ضرورة استكمال تسديد الثغرة بقوى دولية كبرى في مقدرتها تقديم المساعدة في حال التصدي والمجابهة اذا اقتضت الضرورة القصوى ذلك، وفي هذه الحالة تقف فارس مدافعة عن اصدقاء يربطهم واياها مواجهة عدو واحـد .

كشفت مشورة الغساسنة الرؤيا امـام الجماعة اليزنيـة **بضرورة ايجاد علاقة بين الذات الباحثة متمثلة بحركتهم** والموضوع ، ويكمن هنا في الصديق القريب جغرافيا وتاريخا ومصالحا .

ان الاختيار الحر الموضوعي الذي سلكه سيف وجماعته قد جاء كاستجابة واقعية وحقيقية لطموحهم التحرري المنضبط بضوابط

مقتضيات واقع الحال اليمنـــي المعاش انذاك تحت ظل احتـــلال الاحباش المباشر وروما من ورائهم ، كانت عملية استبصار الطريق المؤدي الى التحرر والانعتاق عملية صعبة ومعقدة في ظل واقـــع يعاني من التمزق القبلي ، ثم الديني فيما بعد ، الشيء الكثير ، ولذا فقد جاءت عبر القنوات العربية موقفا واستشارة وكان من المكـــن ان تتم رأسا ومباشرة . الا ان خيوط الامل في تعاون عربي لم تنقطع وتصورت الجماعة اليزنية ان استكمال قيام الشرط الذاتي سيؤدي الى القدرة على الحركة ضد الاحتلال الابرهي الحبشي فيتم التصدي له ودحره من مواقعه المتشبث بها في اليمن .

كان التفكير ذاك ضمن رؤيا طوباوية ساذجة راحت تراهن على التآلف والتقارب القبلي غير قادرة على استيعاب امكاناتها وقدراتها المواجهة لامكانات الجبهة المضادة ثم من ناحيـــة اخرى لم يكن في استطاعتها استيعاب الظروف المحيطـــة بالقبائل العربية . وحين تكشف لهم من خلال التجربة اثناء حركتهم السياسية ان رؤياهم كانت قائمة على وهم لا يلامس الواقع او يقترب من حقيقة الاوضاع العربية القبلية ، ووجد اليزنيون انفسهم امام حقائق جديدة تكشفت لهم اثر ذاك الموقف العربي السلبي تتطلب منهم اعادة تقييم الامور بحسب مقتضيات الظروف المستجدة ، وكان عليهم ان يحسبوا قبليا لمثل تلك الاحتمالات والنتائج الا ان امكاناتهم الذهنية المحدودة لم تسمح لهم بوضع الاحتمالات واستكشاف بدائلها ، ولم تتم العملية عملية السعي الى فارس والاستعانة بها الا في اللحظة الانية انذاك وجاء ذلك توفيراً للشرط الموضوعي المطلوبة بحكم الحاح الحاجة وتغطية لجوانب الفراغ والنقص في الشرط الذاتي والذي خلقه الموقف العربي السالب .

ان تحرك سيف على راس وفـــده الى فارس لا يأتي ضمن قناعات بالعمالة او خيانة لاماني الشعب اليمني بل طموحا لتحقيق تلك الاماني واستجابة لمقتضيات الواقع المستجد المشبـــع بروح المسؤولية ، وفي الحيرة عند المناذرة تأكد له صواب الراي الناصح بالاتجاه الى فارس ، وفيها كان ما كان من موقف كسرى واصرار سيف ومحاولاته الترغيبية لكسرى فقد كان يدرك ان فارس نهاية المطاف والحلقة الفاصلة بين تحقيق الاماني الوطنية اليمنية والانهيار الكامل لليمن بأسره ، وباصراره راجع كسرى مع مزاربته حسابات

فارس ، وكان قرارهم بارسال نزلاء السجون الفارسية ، ومنهم من كانت له علاقة بالسياسة ، ويأتي اختلاط الاخبار ببعضها حول الاعداد المرسلة معه للاعانة ، وهل تمت على دفعة ام على اكثر من دفعة اتخذت من السجناء مظلة غطت بهم تدخلها المباشر حين وجدت الظروف تقتضي ذلك بعد أن دفع بها الرومان الى نهايتها القصوى في تدخلاتهم في افريقيا ، وخرقهم المستمر والمتكرر لمعاهدة الصلح المعقودة بينهم وبين فارس .

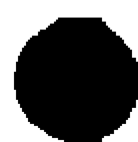
تأتي الاخبار مستمرة في وصف الحالة لتبلغنا بالاستعدادات اليمنية للمعركة لتستكمل الحوادث التاريخية سيرها الحقيقي والمنطقي ، وليدلل من الاستجابة السريعة التي لقيتها دعوة سيف من القبائل اليمنية على أن هناك تهيئة قبلية قد تمت . هناك احتمال كونها عسكرية وسياسية اي تبليغ القبائل وأخذ موافقتها ثم الاستعداد لذلك ماديا ، وهناك احتمال اخر يتلخص في التعبئة المعنويه والتعاطف مع رحلة سيف لطلب المعونه من القبائل العربيه وفارس . وهذا يعني وجود جماعه كانت تقف وراء سيف وتشد من ازره . ومن هذه الجماعه وبموافقتها كان وفد المعونه والذي ترأسه « سيف بن ذي يزن » .

لذلك كله نرفض التعسف في التخريجات ، ورمي الصفات المتعنته من غير وجه حق وبلا ادنى مبرر سوى اشكالاتنا السياسية الحضارية الحاضرة ، ومواقفنا العاجزة منها ، ونصر على جماعيه الحركه اليزنيه ووطنيتها على الرغم من النتائج العكسية التي خلفتها فيما بعد هيمنة ابناء الفرس على مقاليد الحكم في اليمن ، والتي اتت نتائجها السلبيه على سيف نفسه .

واعتبرناها حركه قوميه للتاثيرات التي تركتها سواء على صعيد الواقع العربي ، ام على مستوى الفكر الذي سيطر على الجزيرة العربيه وجنوبها فحركه سيف هي التي هزت الجزيره ، واشعلت الفتيل في النار ، وشكلت المهدات الحقيقيه لثورة الرسول العربي محمد بن عبد الله على مجتمع الجزيره القبلي المتخلف ، وعلى الوجود الاجنبي الفارسي البيزنطي في الارض العربيه .

واصرينا على اعتبارها حركة قوميه لنتائجها التي اثرت في مجرى الاحداث في الجزيره العربيه بعدها مباشره بظهور الاسلام ،

ثم في استمرارها الزمني وفي انتقالها المكاني حيث احتضنها الجميع لتصبح في تشكلها الاسطوري الروائي جزءا من الفلكلور العـربي الشعبي العام والمشاعي ، بعد ان اصبح جانبها التاريخي جزءا من التاريخ العربي مباشرة ، وعن طريق الاسلام الذي تمثلها ، واستطاع ان يستوعبها .



الباب الثالث

سيف الأسطورة

قبل ان ندخل في استطراد تاريخي للجانب الاسطوري في القصة اليزنية نرى ضرورة الوقوف للتعريف بالاسطورة والدلالات الفلسفية التي حملتها الكلمة ، لما لها من أهمية ليس فقط بالنسبة لبحثنا هذا ، وانما لعلاقتها المتجذرة بالفكر الانساني بصورة عامة والعربي على وجه الخصوص . وعلى الرغم من محاولات التقليل من أهمية الموضوع كما حصل لدى بعض الباحثين ، الا ان ما قامت به الاسطورة من دور مهم في تثبيت اركان مرحلة انسانية متقدمة زمنيا تجعل من الضروري الوقوف أمامها للتعريف .

يأتي التعريف بها باعتبارها **موضوع اجتماعي سيكولوجي لغوي** وفوق هذا وذاك **يلفها اطار فلسفي شديد الالتصاق بفكر الانسان ونفسيته** على الاقل في مرحلة معينة ساد فيها التفكير في ما ورائيات العالم الموضوعي رغبة في الخروج من الاطار الضيق الذي حشر فيه الانسان ، ونقصد بذلك محيطه البيئي والنفسي المؤطر في حدود القبيلة وموقعها الحياتي . والاسطورة كلمة تأتي من فعل سطر وهي بمعنى الف القصص والاحاديث التي لا أصل لها في الواقع ، وهي عادة ما تكون أحاديث مجسمة لصورة خارجة عن حدود الطبيعي والمعتاد عند البشر . وفي هذه الحكاية او القصة

تمتزج مبتدعات الخيال الصورية برغبات الانسان وأمانيه النفسية بعالم مخملي الملمس حالم .

ويعتقد فريق من العلماء والمتخصصين بأن الوسيلة العلميـة الوحيدة لدراسة الاساطير هي دراسة اللغة ، وقد صب أصحاب هذا الاتجاه جل اهتمامهم على الجانب اللغوي والتعريفات اللغوية للاسطورة من قناعات مفادها « ان اللغة الحية حقيقة حسية وليست القواعد اللغوية سوى قوامها التجريـدي ، ويخضع هذا القوام التجريدي لظواهر عدة في الحياة . لذا فقد ارتأوا أن الحقيقـة الحسية لا يمكن ان تعرف عالم يدرس اسسها المجردة ، وقد كان من المتحمسين لهذا الراي « ليفي شتراوس » الذي راح يؤكد على ان الاسطورة لغة ، فحيث ان الاسطورة تحكي فهي تعد جزءا من كلام الانسان .

ولقد قام انصار هذه المدرسة في محاولتهم لضبـط مفهوم الاسطورة بتطبيق المنهج البنائي عليها كمـا طبقوه على الحكايات الشعبية ، واسهب أصحاب هذا الاتجاه ليس في تعريفاتهم اللغوية وحسب ، بل وفي وضع اسس وقواعد منهجية تحلل الاسطورة ، كما تفعل مع غيرها من انماط الاداب الشعبية الاخرى .

وقام اصحاب هذه المدرسة وعلى راسهم ماكس مولر اصحاب علم الفيلولوجيا المقارنة بتحقيق عملية المقارنة « بعد اكتشاف اللغة السانسكريتية ، وما ادته من دور للحضارة الانسانية ، حين كشفت النقاب عن جوانب كبيرة منها كانت غامضة ومجهولة ، قبل الكشف اللغوي ، بردم الفجوة التي بدت بين اللغة والاسطورة بحكم طبيعة كل منهما المختلفة عن الاخرى ، **وعدوا الاسطورة مظهرا من مظاهر اللغة ولكنها من مظاهر السلبية** . فالاسطورة تمثل الجانب السيء من اللغة ، ذلك ان اللغة هي بطبيعتها منطقية وعقلية . واللغة هي الاصل التاريخي الذي منه انبعثت الاسطورة ، فتقدم اللغه هو الذي ادى الى حدوث ظاهرة الاساطير وقد يتساءل المرء وكيف كان ذلك ؟ وتجيب تلك المدرسة بأن التقدم الذي حصل في اللغة ، والذي على اثره اغنيت مصطلحاتها ، فحمل الشيء ذاته اكثر من اسم ، وأدى ذلك الى انبعاث اكثر من شخصية كانت واحـدة منها في الاسطورة . وقد مزجت في هذه النظرية العقلانية والرومانتيكية » ، الا ان الاخيرة غلبت على المنزع العقلانـي ، وبعد اعطى مولـر

الاسطورة تلك الاهمية حيث ربطها بالكلام الانساني وجعلها نتيجة طبيعية له ، عاد ليؤكد على انها ، ليست اكثر من وهم كبير وهي خدعة غير واعية ترتبت على طبيعة العقل الانساني .

ذلك هو ملخص رأي المدرسة اللغوية في نظرتها الى الاسطورة وعلاقة ذلك بتاريخ الحضارة الانسانية ، على انه سوء فهم ، واساءة تفسير الكلمات والمصطلحات وتصور الحضارة على انها من نتائج وهم وشعوذة .

أما المفهوم السيكولوجي للاسطورة والذي مثلته المدرسة الفرويدية فيرى ان الاسطورة : هي نتاج نفسي لمحاولات الانسان العقيمة للتعبير عما لا يمكن التعبير عنه ، ووضع ما لا يمكن التعبير عنه في الفاظ تشكل بمجموعها الاسطورة ، فهي اذن تعتمد على غريزة أساسية تتمحور حياة الانسان حولها .

وقد مثلت نظرية فرويد قفزة في النظر الى الاسطورة ، وأراد ان يثبت بها التشابه بين حياة الهمج النفسية والمصابين بالامراض النفسية بتماثل كل دوافع الفكر الاسطوري مع بعض الامراض النفسية .

أما الافكار الدينية فهي في رأي المدرسة التحليلية ، ليست سوى توهمات ، والاسطورة هي نتاج تلك الافكار فبالضروزة سوف تقولب بوعائها ، وستصبح متشكلة بنفس شكلها ، ولذا فهي ليست سوى توهمات نفسية ، والصور الاسطورية من وجهة نظر المدرسة ، هي رموز اوديبية ، فالتوتم معنى كلي لنوع حيواني أو نباتي ، وهو رمز العشيرة ، يرمز الى صورة الاب وتركزت مجهودات هذه المدرسة في ابراز تأثير الجنس في اللاشعور عند الفرد . وقد طورت مفاهيم هذه المدرسة ، المدرسة النفسية المنشقة عنها والتي تزعمها « يونج » وقد عمل زعيم المدرسة المنشقة باديء ذي بدء على تطوير مفهوم اللاشعور ، حيث أصبح يحتوي على عنصرين « فردي وجمعي » وانطلق من مفهوم الجديد لتفسير وتحليل الانتاج الشعبي ومن ضمنه الاسطورة ، والتي يعيدها الى اللاشعور الجمعي ، الذي هو نتاج صور من التأمل مولودة مع الانسان ، وفي ذلك يقول « أن مهيمنات اللاشعور الجمعي او النماذج المثالية القديمة ما هي الا القيم السائدة ــ الالهة ، أي صور القوانين والمباديء المهيمنة والتنظيمات الوسيطة ، التي تجدد في النفس البشرية

تجاربها دونما كلل » . ويرى ان الانعكاسات مسؤولة عن خلق اساطير مستحدثة . كما يعتقد ان الحلم وهو الذي يجمع في تكوينه بين عنصري اللاشعور ـ الفردي والجمعي ـ يتمكن العنصر الجمعي فيه من ان يتمثل النماذج الاصلية التي تنطلق في حقيقة الامر من عناصر مهوشة ، ثم تبدأ تلك العناصر المهوشة في تحديد ملامح لها تظهر في شكل خيالات وصور مختلفة ، يعمل العنصر الجمعي عند الافراد في الجماعة على تنظيمها لتأخذ بشكل نموذجها الاصلي وقام بتطبيق تفسيراته للاحلام على تحليل وتفسير الحكاية الاسطورية التي عادة ما يحقق أهدافها بطل اسطوري لديه من الدوافع ما يحمله على تحقيق الكل الكامل، وكل هذه التصورات في اللاشعور الجمعي. تلك هي وجهة نظر المدرسة النفسية في الاسطورة باعتبارها موضوعا سيكولوجيا الى جانب كونه لغويا ، أما الجانب الاجتماعي في الاسطورة ، فقد تعددت تفسيرات وتعريفات المدارس الاجتماعية له . الا ان أشهر ما عرف من تفاسير للاسطورة ، هي التي طرحها العالمان الروسيان « فلاديمير بروب » و « جاكوبسون » .

ولقد اختلفت وجهات نظر دارسي الاساطير في تقييمهم للاسطورة ، والمدلولات التي حملتها كل اسطورة في نفسها ، فمنهم من أعدها روايات خرافية وهمية ذات منزلة فكرية وروحية ضئيلة ، وهي في هذه الحال لا تخرج عن كونها نتاج بدائي لخيال مشوش وتفكير نزق ، ولذلك فهي لا تستحق منا أي جهد ، بل ان كل جهد يبذل فيها انما هو جهد ضائع . وقد جاء في الخط الموازي لهذا الرأي رأي آخر للعلماء الذين تناولوا هذا الموضوع باهتمام بالغ. وانطلقوا من فهم عميق لطبيعة اساطير العالم القديم على انها **تمثل واحدة من أعمق منجزات الذهنية الانسانية ، فقد كانت الاسطورة نتاج ابداعات لعقول شاعرية خيالية موهوبة ، تأملت الكون تأملات عميقة ، قبل ان تنتجع تلك التأملات في اسلوب وقصص يحنيها ويتداولها العامة من الناس** . وهي عاده ما تحكي قصص الارباب والابطال وكل ما يتعلق بهم ابتداء من المولد وانتهاءا بالممات وكل ما كان بينهما في حياة الالهة او البطل .

ويقدس الرومانتيكيون الاسطورة لانهم يدخلونها في الواقع ، ولا يرون اي خلاف بينها وبين الواقع كما لا يظهر أي انفصال بين الشعر والحقيقة ، هكذا في المطلق وبدون تحديد لنوعية الشعر أو

وضع مقاييس للحقيقة ، وكذا الحال بالنسبة للاسطورة والواقـــع فالاثنان متطابقان، وقد رفع أصحاب هذه المدرسة من قيمة الاسطورة كثيرا ومثل هذا الاتجاه « شلنج » .

وعليه فهل الاسطورة موضوع اجتماعي محض أم هي موضوع سيكولوجي خالص او هي مفهوم لغوي مجرد ؟؟ ان الآراء التي بروزت الاسطورة في اطار من هـــذه الاطر الثلاثـــة تحكم على المجهودات التي بذلتها بالفناء . ذلك ان الاسطورة أكبر من كونها لغه مجردة ، واضخم من كونها موضوع سيكولوجـــي خالص او اجتماعي محض ، ولا نريـــد هنا ان ندحل في موقف مقـــدي لتلك المدارس ، الا ان صعوبـــة التعريف لتغلغل الموضوع في الزمن ، تحملنا على التمسك بتلابيب الشرح الزمني لعلنا نتمكن ، حين نلقي الضوء على مراحل تطور الفكر الانساني ، ان نفسر معنى الاسطورة، فلا نسطح المعنى ولا نصعب ، بل نحاول ان نقدم مفهوم علمي يقارب بين وجهات النظر المختلفة ، ويلاش اختلافات وجهات النظر ، والتي حدثت بسبب اختلال اوجـــه اهتماماتهم العلمية وتعـــدد مشاربهم الثقافية وتباين مواقفهم النظرية .

الفهم الشعبي للاسطورة

أما المفهوم الشعبي للاسطورة كما يطرح في مجتمعنا العربي كل على حدة او مجتمعة فهو تعريف فيه كثير من التبسيط يرى انها تعني « الخرافة » وعادة ما تطلق على الاحاديث اللاواقعية ، وهي بطبيعتها هذه تدغدغ الخيال اكثر مما تحاكي العقل ، ولكل مجتمع أحاديثه الخرافية التي تخصه ، وهناك أحاديث عادة ما تكون مشتركة بين المجتمعات المتقاربة ، ومثل تلك الحكايات يتم التداخل فيما بينها نتيجة الاضافات المستمرة من الاجيال المتلاحقة .

ويمكننا ان نقسم الحكاية الخرافية في مجتمعنا الى تقسيمات أولية ، فنضع في المقدمة **الخرافات الطويلة** وهي الحكايات المسهبة المستمرة التي تبينهـــا الاجيال فوق بعضها ويتداخل فيـــه الدين والسحـــر .

ثم هناك **الخرافة القصيرة** وهي عبارة عن ألغاز غير حقيقية وليس فيها حد أدنى من المنطق او المعقولية .

وقد جرت العادة في الاسطورة الشعبية او الخرافة الشعبية على ان تحكى مشافهة ، فتنتقل راسيا وافقيا في الزمان والمكان ، ليكيفها كل شعب على حسب قياسه لطبعها بطابعه الخاص ، ولا تأتي تلك الاضافات الا في البنية الخارجية فقط . ويبقى مضمونها وجوهرها كما هو .

اما نجاحها او عدمه فيتوقف على الراوي وحذقه الذي يلعب في نجاحها دورا رئيسيا وهاما . فتنطلق الاسطورة الشعبيــة ضمن منطلقين لتحقيق هدفين ، هدف أخلاقي وآخر فكاهي .

متى خلقت الاسطورة :

حددت بعض الآراء الفترة الزمنية التي خلقت فيها الاسطورة بتحديدها للموضوع المكاني لها حيث يعتقد « ميثورور بنفي » صاحب الكتاب المشهور « البنشنتانترا » ان منبع الاسطورة هي بلاد الهند « نشأت انواع الحكايات الخرافية والاسطورية في بلاد الهند . وهي في اصلها حكايات بوذية كانت تحكى لاغراض تعليمية ثم انتشرت في اوروبا عن طريق العرب ، وذهب البعض الى أن اصل الاسطورة من بلاد بابل وقد جاءت تقديراتهم بناء على ما وصل في ايديهم من تراث اسطوري ، كانت ملحمة جلجامش في مقدمته ، وليس هذا وحسب بل ان الشخصيات التي رسمت لوحاته الاسطورية كانت قد عاشت في الفترة الواقعة بين سني ٢٨٠٠ — ٢٧٠٠ ق٠م٠ وكما عودتنا بعض السير الاسطورية فانها تحمل اسماء شخصيات من المحتمل ان تكون قد جاءت بعد خلق الاسطورة بفترات زمنية تطول وتقصر ، وهذا يعني أن اللبنات الاولى لملحمة جلجامش ، كانت قبل الالف الثالث قبل الميلاد . ومن هنا فقد حدد ، انصار الرأي القائل بأن أصل الاسطورة هي بابل ، الفترة الزمنية او هم بالاصح حاولوا التقريب فيها . وهناك رأي آخر يعيد كتابة الملحمة في اقدم مراحلها الى زمن (سرجون الاول الاكدي في حوالي ٢٤١٣ — ٢٣٦٨ ق٠م٠ واقرب فترة لكتابتها هي فتــرة حكم شولكي) والتي كــانت في ٢١٠٠ ق٠م٠

وقد اعتمد اصحاب هذا الراي على القراءات المختلفة ، التي حملتها الملحمة ، من بابلية وحيثية . فهل هم محقون في ذلك ؟ ومتى

تمت حقيقة خلق الاسطورة ألا لعل في ملاحقتها زمنيا وتتبـــع مدى انعكاسها على الفكر الانساني ، اجابة صحيحة يوضح مفهومهــا ويرد على الاسئلة الحائرة .

مرحلة السحــر :

يتميز الانســان بخاصيتين اساسيتين « الادوات والكلام » تميز بهما عن غيره من الكائنات الحيوانية ، وقد زودته تلك الخاصيتين بالقدرة على التفكير والتطور . وتوصل بحكم الضرورة الحياتية التي استطاع اكتشافها والتقاطها بخاصتيه العظيمتين الى معرفة القوانين الاولية للطبيعة وتمكن بواسطة الادوات التي بدأ يصنعها ان يخضع تلك القوانين لاهدافه الخاصة ، وبدأ يمارس سيادته على الطبيعة فيصطاد ما يرغب فيه من الصيد ، ويأكل ما تزرعه يده في الارض يساعده في ذلك كما توهم ما اصطنعه من ادوات تكنيكية وهمية راح يستر بها نواقص التكنيك الحقيقي في محاولة اولية بدائية المسلك للتحكم في حياته بطريقة ذاتية ، وقام بأعمال وممارسات وشعائر التقط صورتها الاولية من واقعه فرسم صورة اولية لحيوان مفترس معتقدا انه بذلك يسحره ويسيطر عليه ، واعتقد بجدوى ذلك العمل بعد تجربته الخاصة . ولا بد من وقفة بسيطة للتعريف بالمبداين الاساسيين الذين يقوم عليهما السحر كما وصفها « فريزر » فــي ملاحظاته : ويقول المبدأ الاول بأن « الشبيه ينتج الشبيه وهو يطبق على المرحلة الاولية من السحر : المبدأ الثاني فيقول باستمرار التأثير المتبادل بين الاشياء المتقلبة حتى بعد انفصالها عن بعض ويمكن تطبيقه على مرحلة ارقى من السحر ويستنتج منه ان كل ما يفعله الشخص الساحر بالنسبة لاي شيء مادي سوف يؤثر تأثيرا مماثلا على الشخص الذي كان هذا الشيء متصلا به . واقتنــع بأن السحر الذي اصطنعه بنفسه له قدرة على اجبار العالم الخارجي على تحقيق مطالبه ، وان ممارساته السحرية لا يمكن ان تفشل في تحقيق النتائج المرجوة وكان لا بد للاجادة من التخصص .

وفي تلك العصور القديمة ونعني به العصر الحجري ، حيث عاش الانسان على الصيد والقنص فقد ظهرت طائفة من الطقوس الدينية ، شحذها واخرجها الفكر الاسطوري ، كانت تهدف الى

تدعيم ارادة الانسان وحثه على منازلة الكواسر وتحمل اخطارها والتصدي كذلك لاخطار الطبيعة باللامبالاة بها ، ذلك ان وسائله البدائية لم تكن تستطيع ان توفر له الحماية الكافية ، فاتجه الى معتقداتــه السحرية او « تكنيكه الوهمي » والذي حــام حول الحيوانات باعتبارها مصدر لزرقه وقوته .

ووقفة امــام تلك الطقوس التي اداها الانسان لفريستــه المطلوبة ، وكان يقوم بها عند الصيد ، وكانت تبدأ بالتظاهر من قبله ومجموعته بالحزن معتقدا انه بذلك يخدع الحيوان ويموه عليه ، فينشب الحربة او السهم في جسد الحيوان المستهدف ثم تتقاسمه المجموعة حتى اصبح التظاهر بالحزن ، حزن حقيقي عندما ارتقى الحيوان الى مرتبة الالهة .

واتصلت بالعقائد السحرية صناعات لها نفس النفس البدائي كصناعة التمائم والحفر بالخدش او الثقب ، بهدف خلق نوع من التعاون لحماية وابطال فعل « قرينة » الحيوان ، وقد قام بتلوين تلك الاجزاء المخدوشة لابراز الشكل الحيواني ، ويواصل عمله فيــه فثقبه لابطال اعماله وافعاله الضارة ، وتسخير الارواح المرتبطــة به لخدمة فرضه ومصلحته . كانت الطقوس السحرية تتناول كل ما يتعلق باصطياد الحيوان وذبحه . وحــين انتقل الانسان الى الزراعة استبدل الالهة الحيوانية بالالهة نباتية ، وظهرت طقوس سحرية جديدة للحصول على المطــر . وكلما تعددت متطلبــات الانسان لتحسين مستوى حياته ، كلما تعددت وتنوعت الطقوس والمعتقدات السحرية .

ومع الزمن انحصر سحره في يد تلك الجماعة- التي اوهمت الآخرين انها تستطيع ان تصنع الخير والشر لغيرها بعد ان بدأ بداية غير شريرة وهي صنع الخير للانسان نفسه صاحب الفكرة ومبتدعها . وارتبط السحر والذي هو نتاج الفكر الاسطوري بالشعر وبالرقص الايمائي وكانت الكلمة المنغمة والحركة الموقعة خير طريقة للتعبير عن الفكرة . وجاءت الكلمة المنغمة مصحوبة بالحركة لعلها تشفع لهم عند الالهة المذبوحة او في الطور الاسمى تضرعا للرياح حتى لا تعصف بالمحاصيل او للمطر حتى يسقط فتنمو الغلال او للغلال حتى تتفتح وتزهر . اذن فقد رافقت الزراعة طقوس سحرية جديدة معدة لاخصاب الارض والثمر متصورا اي انسان تلك الرحلة المتقدم

من منطلقاته الفكرية الساذجة ان العطاء يتم بفضلها .

ويتخيل المزارعون كما يتخيل الصيادون بفكرهم الساذج ان تلك الحركات السحرية ستحقق لهم الواقع المرغوب فيه ، والذي يصبح بفضل تلك الحركات ، حقيقة راهنة ، يعيشها الفرد كما تعيشها الجماعة . ومع الزمن فصلت الحركات الايمائية عن العمل المنتج واصبحت مجرد حركات تعبيرية يقصد بها رفاهية الجماعة . الا أن ذلك لا يعني موات الفكرة نهائيا في المرحلة التي تلتها ، بل بقيت بعض الطقوس ، خاصة ما يتعلق فيها بالزراعة ، قائمة في ديانات الحضارات الراقية حيث خضعت ملكية الارض للارستقراطية الحاكمة ، وقد أداها وبشكل متطور الفلاح نيابة عن الذين استمروا بالارض .

ويعتمد الفكر الذي يقوم عليه مبدأين اثنين يعرفان عند علماء الاسطورة بـ « قانون التشابه » و « قانون الاتصال » وعلى قاعدة القانون الاول ، يعتقد الساحر ان في استطاعته تحقيق اهدافه بالتقليد او المحاكاة . اما مفهوم القانون الثاني فهو : ان كل ما يفعله الساحر في الشيء المادي الذي في يد ه ، سوف يؤثر تأثيرا مماثلا على الشخص المستهدف في ذاك العمل ، والذي له علاقة بالشيء المادي. ويعتقد الساحر بفكره الاسطوري ، ان المباديء التي يستخدمها في ممارسة اعماله السحرية ، هي ذاتها المباديء التي تنظم عمليات الطبيعة الجامد .

ويرى تايلور ان السحر والعلم علمان يقومان على أساس معين من تداعي الافكار الا ان هذا التداعي يتم في العلم بطريقة غير الطريقة التي يتم فيها في السحر الا ان يتحقق في الاخير بطريقة خاطئة . أما فريزر فيرى ان للسحر علاقة قوية بالعلم ، وقد كان السحر هو الطريق الطبيعي الذي سار عليه الفكر الانساني حتى وصل الى مرحلة العلم .

لقد كانت انطلاقات الانسان النفسية للسيطرة على الواقع المادي المعقد والصعب من منطلقات فكرية اولية ساذجة ، شكلت حينها حلا ولو جزئيا ومحدودا لمشاكله مع الكائنات الاخرى ، وتوهم انها تستطيع حل مشاكله مع الطبيعة ، بل وحلت من وجهة نظره مشاكل ذاك الواقع ، ومن مفاهيمه الوهمية لحل مشكلاته ولد الفكر

الاسطوري ، وهو الفلسفة الاولى والساذجة عن الحياة التي وضعها ذاك العقل البشري البدائي .

مرحلـــة التـــدين :

وتطورت ادوات الانتاج وتطور الانسان معها لينتقل الى مرحلة أرقى في تفكيره ، وليدخل في مرحلة اخرى وهي مرحلة التدين والتي يطلق عليها « المرحلة الدينية » . وقد شكلت هذه المرحلة نقلة تاريخية بالنسبة للانسان حيث تعلم فيها الكتابة ، وصاغ الصوت بحرف ابجدي وبنى الامبراطوريات وشيد الحضارات العملاقة وبدأ يسطر انتاجات فكره الاسطوري في اسطورة قيلت باسلوب الحكي مشافهة وكتابة . من هنا فالاسطورة فكرة فلسفية جاءت عبر معاناة نفسية فردية وجمعية ثم سيطرت على العقلية البشرية في مراحل سادت فيها الرؤيا الغيبية وهي تعالج علاقة الانسان بالطبيعة ، وقد تعددت مواضيعها بتعدد مراحلها الزمنية وتباين مواضعها المكانية ، وقد وجدت ترجمتها في القصة والرواية والملحمة والفكاهة .. الخ . وحتما فقد اندثر من الاساطير المكتوبة ما اندثر وفازت ملحمة جلجامش بالبقاء فكان لها الخلود . وحين انتقلت الانسانية الى المرحلة الاسمى مرحلة الدين بقيت وشائج من المرحلة السابقة في المرحلة اللاحقة كبعض المظاهر السحرية : الخرافية التي اعترفت بوجودها الاديان واهمها وجود كائنات أخرى كالجن والشياطين في عالم له علاقة بالعالم الانساني .

وجاءت المرحلة اللاحقة بقيمها من معتقدات دينيـــة وطقوس وعبادات تكيفت بتكيف الظروف المكانية والزمانية ، وانتقل الانسان من السحر الى العبادة والايمان واصبحت الاسطورة تغلف الفكر العقائدي عند الانسان ، بعد ان انتقل بفكره وأحاسيسه من مجرد المشاعر المبهمة المعتمة التي وجدت ترجمتها في السحر ، الى انفعالات اكثر تخصصا ، واستمرت ردود الفعل الانسانية تجاه الصعوبات والمشاكل التي كان يعاني منها في واقعه المادي تترجم بطريقة رمزية في الشعر والفن والاسطورة التي انتجعها الفكر الاسطوري ، وقد جاءت ليس فقط بعيدة عن الواقع التجريبي ، بل ومتناقضة معه تناقضا فجا وشنيعا ، ولا ينفي هذا مهمتها الموضوعية فالرمزيـــة

الاسطورية تموضع المشاعر فتصبح هي التعبيــر الحقيقي عن الواقــع .

اتبع الانسان في طقوسه الدينية تأثير رغبات فردية عميقــة وحوافز اجتماعية عنيفة واصبح الدين عاما وشاملا ، بعد أن كان السحر شديد الخصوصية . وحصلت تلك النقلة بفضل الفكــر الاسطوري ، وحملت الاسطورة الترجمات الرمزية للفكرة ، وتمكنت قمة الهرم الاجتماعي ، رؤساء العشائر حكام الدولة ، من السيطرة على الموضوع وبدت القصة او مجموعة القصص ، والروايات تحكي افعال الالهة المعبودة من قبل اولئك الحكام والخاضعة لتصرفاتهم والمستجيبة لمتطلباتهم السلطويــة ، او تروي بطولات ومغامرات الاسلاف . كان هذا في المراحل العليا للحضارات المتطورة كالبابلية والهندية والمصرية . وباعتبار الاسطورة فكرة فلسفية جاءت نتيجة انفعالات نفسية فردية وجماعية ، شملت الانسان الكل ، وسيطرت على الحضارات الانسانية عامة . ونادرا ما تجــد حضارة بدون اساطير ، بل وسوف يكون القطع بالمحال قائما على اساس موضوعي ونتيجة لاستقراء في تاريخ الحضارات الانسانية القديمة . ولا نريد هنا ان ندخل في تثبيت وجهة النظر هذه باستعراض اساطير الامم السالفة . ففي ذلك اطالة للمقال ، الا اننا سنكتفي بالقاء نظرة عامة على الاساطير المنتشرة والمهمة في الحضارات القديمة .

الاساطير المصريــة :

ويعتقد أن زمن الاساطير المصرية يعود الى الالف الثالث قبل الميلاد ، وقد ارتبطت التصورات في الاسطورية المصرية بالديانــة المصرية ، وحاول الانسان بها ان يدرك بعض الاحداث التي تصورها منتمية الى « العالم الالهي » هذا العالم الذي صنعه الانسان نتيجة لعدم قدرته على اعطاء تفسيرات مباشرة بالعقل والادراك الحسي كمعرفــة السماء والشمس والكواكب السماويــة الاخرى والموت والحياة ... الخ . فتصورها اسطوريا واشار اليها برموز ، او ترجمها في كلمات كالترانيم والصلوات والقصص والشعائر والاداء التمثيلي في الصلوات . فهي اذن تأملية اكثر منها تخيلية شاعرية . ومن خصائص الاساطير المصرية الميل الى التغيير من جهة ، ومن

جهة اخرى الثبات والاستمرار . اما ميلها الى التغيير فقد جاء من كونها غير متعصبة ويبدو عند الانسان المصري الميل الى ايجاد اكبر عدد ممكن من التصورات الاسطورية للكائن الواحد .

والاساطير المصرية على حد تعريف « ردولف انتس » هي مجموع التصورات الاسطورية بأسرها ، وقد تؤدي عبارة اسطورة الى قسم محدد من اساطير مركبة .

ومن اشهر الاساطير المصرية اسطورة البقرة السماوية التي حملت الاله « رع » على ظهرها عملا بنصيحة الاله « نونو » وقد استوت السماء فاستبشر الاله رع وقرر زراعة الحشائش الخضراء فيها . وتحمل هذه الاسطورة حب الفلاح المصري للزراعة ورغبته في زراعة العالم الآخر .

جاءت الاساطير المصرية في مرحلة سياسية مزدهرة عاشت فيها البلاد في وحدة سياسية فأدت الاسطورة دورها في توحيد الفكر الديني لــدى الانسان المصري . لقد كانت اداة فعالــة في البناء الايديولوجي النظري للانســان .

وجاءت الديانة المصرية بنفسها الاسطوري كنتــاج طبيعي للظروف الموضوعية السياسية بالدرجة الاولى ، والتي تم فيها توحيد الارضية وخلق مملكة مصر العليا والسفلى ، كما جاءت بهدف تدعيم ذاك الواقع فتصورت الملك اله ، كما اعطت الكاهن حــق لبس شخصية الاله . وقد حصل هذا التمازج « الالهي ــ الانساني » بين شخصية بعض ملوك مصر والاله حوريس ، بروح اثوقراطية عملت بكل مجهوداتها السياسية على تطويع واخضاع نفسيــة الانسان المصري . ولا نريد شرح الاساطير المصرية ، فليس هدفنا ، سوى التمهيد والتوطئة لموضوع بحثنا القادم . واستمرت في مرحلــة الحضارة محاولة الانسان بفكره المحدود تفسير بعــض ظواهر الطبيعة والتي لها تأثير مباشر عليه في كل المناطق الحضارية .

الاسطورة السومريــة :

اعطت سومر كما اعطت مصر للانسانية مجهودات فكريــة كبيرة متعاونة مع كافة الحضارات بصورة تلقائية ، ومن غير تخطيط

او تنسيق ، لحل لغز بعض الظواهر الطبيعية ، ولمعرفة بعض علائق الانسان مع الطبيعة . فجاءت اساطيرهم تدور حول الخلق وتنظيم الكون ومولد الالهة وحبهم وكرههم واعمالهم الخلاقة وبركاتهم ولعناتهم ... الخ . وباختصار دارت جميعها حول عطاءات الالهة للانسان ، واشهر تلك الاساطير هي الاساطير التي دارت حول ابداعات الاله الكبير « انليل » فهو ملك السماوات والارض وفاتق الارض عن السماوات ومنبت الارض ، ولم تكن سلطاته على الرغم من مكانته الكبيرة عند السومريين مطلقة وغير محدودة . وتحكي اسطورة من الاساطير السومرية زواج انليل بالالهة « نيلليل » . ثم ينجب ابنا ذكرا سمي الاله « سن » . ويقوم اله الماء والحكمة « انكي » بمراقبة الكون ، ويتحمل مسؤولية خصوبة الزرع والضرع . وتتصارع الالهة في الاساطير على السلطات والصلاحيات، فتدور معارك كلامية بين الالهة الطموحة المعتدية انانوين وجمهرة في الالهات .. وهناك اساطير تتحدث عن ارض الفردوس ويلمون بأحاديث وردية تعطي نفس مواصفات جنات النعيم السماوية ، ماء عذب وحديقة غناء وفاكهة وأبا .. الخ ، وهناك تشابه كبير بين القصيدة الاسطورة في ري الفردوس (ويلمون) من قبل اله الشمس ، وبين صور سفر التكوين في التورات ، تجد صورة خلق حواء من ضلع آدم مطابقتها في القصيدة « ديلمون » .

من اهم القضايا التي تطرقت اليها الاسطورة السومرية هي موضوع العلاقات الجنسية بين الالهات ، فعدا القصة التي حملت موضوع علاقات الالهات ببعضها ، تطالعنا اخرى من نمط آخر تروي موضوع العلاقات الجنسية بين الالهة فها هو « شكاليتودا » يغتصب الالهة « أنانا » وانتقاما منه على فعلته ترسل « أنانا » الدمار والخراب على بلاد سومر ، ومن ابرز الموضوعات الاسطورية في اساطير سومر « قصة الطوفان » بناءا على قرار الهي بارسال الطوفان وتدمير الجنس البشري .

وتواصل الاساطير الاكادية مشوار الاسطورة السومرية متأثرة بروحها تجاه الانسان ، واهم اساطير حضارتها الاسطورتان البارزتان في الفكر السومري وهما قصة خلق الطوفان المرويتان على نسق ملحمة « جلجامش » وهبوط عشتار الى العالم السفلي . وقد تضمنت قصيدة « الخلق » .

وتتمحور حول تمجيد الاله البابلي مردك ومدينة بابل ، وهناك اساطير تخلق الانسان الالهة « مامي » بخلقتين فنصفه رباني ونصفه انسان . أما النصف الرباني فيخلط الصلصال بالدم واللحم لاله تقتله الالهة . ويسمح الاكاديون لانفسهم بأن يعدلوا في مفهوم الاسطورة بما يتلاءم ومقتضيات الزمن ، فاذا بالاسطورة تحكي تعاليم طبيـــة في مقاطع من رواية « الخلق » . وهناك اسطورة تروي سيطرة الاله «نرجال» على العالم السفلي بعد أن أحكم قبضته على السماء ، وقد تم له ذلك بعد حوادث اسطورية ظريفة تصبغ الحياة الانسانية على الالهات وفيها صور تعاون لفيف من المردة والالهات ضد فريق آخر من الالهات ينتهي بانتصار الفريق المتحالف النازل من السماء .

وهناك أساطير أكادية يلعب فيها البشر دورا كبيرا ومهما وهم اما في صورة حكماء او حكام .

وهناك نوع آخر من الاساطير الاكادية تتعلق بمحاكاة البشر من قبل الالهة على حسب معاصيهم واثامهم ، وان كان الخلاص والامل نهايتها المرتقبة ، وأبرز مثال على ذلك قصيدة الاله « ارا » المطولة ، وتبرز مع غيرها من الاساطير ذات الطبيعة التفاؤلية ، انبساط النفسية الاكادية . وهناك اساطير الحضارة الحيثية ، الا أن المعروف منها فقد اسطورتان : الاسطورة الاولى المسماة باسم « القمر الذي هو من السماء » والثانية المعروفة بـــ « الاله الذي اختفى » ، وهي تحكي قصة الاله « تليبينو » ابن اله العواصف . والقصص الاسطورية الحيثية وثيقة الصلة بالشعائر الدينية ، فمنها ما له علاقة وصلة بشعائر السحر ، ومنها ما هو متصل بالعبادة أشهرها اسطورة رب العواصف وعلاقته بالتنين .

تركز الاساطير الكنعانية على الاله الكونرسا وزوجته عشرتو او لشيرة وتدخل الارباب الكنعانية في مغامرات انسانية كمحاولات التجسس التي يقوم بها الالهة عشتار على الاله ايل والالهة عشترة وهما في مخدعهما ، وتحكي ملحمة دورة كوماربي ، كيف اخذ هذا الاله الحكمة ، وكيف ضاجع الصخرة التي نام تحتها وسالت فيها رجولته ، وكان نتيجة ذلك ولادة طفل . وتستمر الملحمة لتحكي كل مشاعر الاب الاله تجاه الاله ولده الرضيع بعد الولادة والذي يسميه

« اوليكومي » .

وعلى كل فقد كان رب العواصف هو الشخص المركزي لكل الاساطير الحيثية والسومرية ، وتمحورت حوله الروايات والملاحم تحكي افعال انسانية تقوم بها الالهات ، ويمتزج هذا الفعل الانساني بحوادث من الطبيعة وتختار اسماء واشكـــال معينة لتلك الالهات فتختلط بالتصورات الاسطورية أركان الوجود الثلاثة الانسان — الطبيعة — الالهة .

الاسطورة العربية وعلاقتها بالفلسفة اليونانية :

كان بودنا ان نكمل الحديث عن الاساطير الانسانية القديمة . الا ان ذلك سيطيل علينا الموضوع كثيرا ، ولذا فقد اكتفينا في البحث عن الاساطير التي سادت منطقة الجزيرة العربية وما جاورها — أو الشرق الاوسط — وحتى نتمكــن من الاستمرار في استطراداتنـــا التاريخية لتاريخ الاسطورة في تطورها الزمني داخل حدود هـــذه المنطقة التي تقدم أساطيرها لنا خلفية للاساطير التي كتبت ودونت عن موضوع البحث « عن سيف بن ذي يزن » .

لقد تناولنا في سردنا السابق مرحلة نشأة الاسطورة بعد ان مهدنا لها بالشرح عن المقدمات التاريخية التي انبثقت منها الاسطورة في مرحلة الابدائية الاولى ، وفي حديثنا اللاحق سوف نتناولها في نماذج من العصور الوسطي في المنطقة العربية ، وحيث احتلت اسطورتنا المعنية بالبحث جزءا كبيرا في عالم الاساطير والتلفيقات الايديولوجية المنظمـــة .

نشطت في القرن الخامس والرابع قبل الميلاد حركة الجدل في أثينا ، ومن ضمن موضوعاتهـــا التي تناولتهـــا ، التصورات الاسطورية ، حيث حمل « ثوكوديديس » عليها وعلى تأثيراتها في الرؤيا التاريخية عند الانسان ، وتركزت بعض النشاطات الفكرية على الخلاص من كل ما هو خرافي ، فاتجهوا لدراسة الطبيعة ثم السياسة لفهم وتفسير حياة الانسان الفردية والاجتماعية ، وتلقى الفكر الاسطوري ضربة موجعة على أيدي اولئك الطبيعيين امثال « طاليس » و « أنكسيمانس » وخطى « هيراقليطس » و « الايليون » خطوات قوية وكبيرة لوضع « فسيولوجية » جديدة لتفسير الطبيعة

والنظر الى الالهة ، وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت الاسطورة محتفظة بمكانة جيدة .

واستوعب افلاطون آراء الفلاسفة الذين سبقوه في النفس الانسانية وبدأ يصيغ أفكاره في كتابه « الجمهورية » ليغير النظرة السابقة في مشكلة الانسان وجعل السياسة هي مفتاح السيكولوجيا لقدرتها على تغيير روح الفرد وتشكيله بطبيعة المجتمع، وعليه يصعب فصل حياة الفرد عن حياة المجتمع لما بينهما من صلة متبادلة ، فلو فسد المجتمع وكان شريرا لعجز الفرد عن النهوض وبلوغ الغاية الطيبة ، ولذا لا بد من اصلاح الدولة، والعثور على النظام السياسي الصحيح هو مفتاح حل المشكلة واعادت تأملاته السياسية من دولة السماء الى دولة الارض فقام بنقد الفكر الاسطوري مصرا على ان الناس هم الذين خلقوا آلهتهم على شاكلتهم ، وان صورة الالهة كما تبدو للناس ليست سوى انعكاس لحياتهم والعكس صحيحا ، ويمكننا معرفة كنه الطبيعة ، والنفس الانسانية بمعرفتنا لطبيعة الدولة ، ونحن ننشيء مثلنا السياسية على غرار نظراتنا الى الالهة فكل منها يتضمن الاخر ويعد شرطا له . وحارب افلاطون الاسطورة اليونانية قائلا « اننا لو اغتفرنا وجود الاسطورة في نظمنا السياسية لكان معنى هذا ضياع كل آمالنا في اعادة حياتنا السياسية والاجتماعية واصلاح أحوالها . وبقي حل بديل واحد . فعلينا أن نختار بين التصور الاخلاقي للدولة والتصور الاسطوري لها » . واعتقد أن على الدولة بحكامها وحكمائها صناعة الاسطورة ذات الغاية التي تخدم الدولة والنظام اي أن لا بد من تسييس الاسطورة واخراجها للناس بحسب الحاجة مبتدئين بالنشيء . « فهل يجوز لنا السماح ببساطة لاطفالنا بالاستماع الى أية حكايات قام واحد من الناس بتأليفها ، وبذلك نغرس في عقولهم افكارا غالبا ما تتعارض اشد التعارض مع الافكار التي نعتقد ان من واجبهم الحصول عليها ... **يبدو اذن أن اول مهمة لنا هي الاشراف على صنع الحكايات والخرافات** . ورفض كل ما هو غير مقبول » .

ولقد وضعت الفلسفة اليونانية ، ، ومن ضمنها نظريات افلاطون واجتهاداته ، حدا للفكر الاسطوري السائد والمسيطر على الفكر الانساني بصورة عامة واليوناني على وجه

الاخص ، ليستبدله او بتعبير ادق ليطالب افلاطون باستبداله بفكرة اسطورية مقنونة يضعها الحكماء والفلاسفة على قدر الحاجة ، وتشرف عليها الدولة حتى يتم اخراجها بصورة يجنى منها الفائدة المرجوة . ودعى الى كتابة الاسطورة المبسيسة . ولنا تحفظاتنا على وجهه نظره ، فالاساطير القديمة كما أمكننا التقاط ذلك ليست جميعها غير مسيسة أو لا تخدم هدف من أهداف الدولة . فكما ان هناك حكايات من تأليف واحد من الناس بلا هدف ، كما يعتقد افلاطون ، فهناك أساطير اخرى يتعاون في نسج خيوطها جماعة في السلطة او تحت اشرافها لخدمة غاية او هدف يدعم ويثبت اركان تلك السلطة كما حصل في الإسطورة المصرية على سبيل المثال حين حسب آعد الملك اله ، وقد سبق وان تطرقنا الى هذا الموضوع حول علاقة الاسطورة بالدولة . الا ان افلاطون معذور في رؤياه فربما وصل اليه من الاساطير ما قدره هو كذلك ، او انه كان يرغب في وضع حد لكل ما قيل وما سطر في الروايات والاساطير الخرافية والتي لم تعد تستطيع مجاراة الفكر القائم انذاك اي في مرحلة اشراق الفلسفة اليونانية حين أصبح الميل الى العلوم الطبيعية كالرياضيات والهندسة والفلك .. الخ . يزداد ويتطور .

وحطمت نظرية أفلاطون السياسية سلطان « الامس الابدي ». اثرت افكاره في السياسة في الفكر الاوروبي والعربي الوسطوي ، وتطور موضوع الاسطورة بتطور الانسان ، واختلفت اساطير العصور الوسطوية عن أساطير عصر العبودية وما قبله . وقد يكون هذا الاختلاف هو الذي أحدث التعدد في هذا المجال فأصبحت الاسطورة فن قائم بذاته ، وهي التي تحدثنا عنها كثيرا ابطالها من الالهة ، وفصلت عنها الاسطورة التي لعب دور البطل فيها انسان ، وكانت بطولته مطلقة لا يستطيع الوقوف أمامها مردة ولا جان ، وهي ما سميت فيما بعد بالملحمة ، بعد أن تصور موضوع الاسطورة في العصر الوسيط ، وتطورت صور ابطالها فحل الانسان محل الالهة ليؤدي الاعمال المعجزات . ومن الاسطورة والملحمة خلقت القصة الاسطورية الاوسطية فجاء بعضها مزج الالهة والمردة والانسان الذين راحوا في القصة يعملون جنبا الى جنب تكاتفا او تضادا على ما تقتضيه الحال والضرورة كاسطورة سيف بن ذي يزن . وجاء البعض الآخر ليعنى بالانسان وبحالته النفسية ، وأبعدت الجان

والمردة ، وبقي الانسان والله ومخلوقاته الخيرة يصارعان الشر في الانسان لاجل انتصار الخير .

انقسمت الاساطير الى قسمين الاساطير التعليلية « وهي التي تحاول ان تفسر الظواهر الكونية حولها وقبلها فتنسبها الى قوى غير ظاهرة في سرد روائي يربط بين الفكرة والحركة ويجسد الظواهر لتصبح كائنات متحركة تؤثر وتتأثر بغيرها » . ومنها على سبيل المثال اسطورة خلق الكون . ومنها حكايات السحر والكهانة وهي من مخلفات العهود الاولى في الاسطورة .

وهناك الاسطورة الرمزية « وفي هذا النوع من الاساطير تمتزج قدرات الانسان المحدودة بطاقات طائلة تؤكد قدرته على مواجهة المجهول والتغلب عليه . وفيه يتم ارتفاع الابطال ، بحكم قدراتهم او بحكم ادواتهم الى مصاف اصحاب القدرات الخارقة فيأتون بالمعجزات ويحققون لانفسهم ، او للرمز الذي يرمزون اليه ، الانتصار على القدر او على القوى المعوقة للانسان » .

وتعرف الانسان في العالم العربي في العصور الوسطوية على نوع آخر من الاساطير بعضها كان أميل الى الخرافة ، وهذا ما لسنا بصدده والبعض الاخر دخلته عناصر خارقة للطبيعي والمعتاد الا انه كان ذا موضوع هادف وبهدف سياسي او اجتماعي محدد . وتبنت الدولة ، كما اراد افلاطون ، الموضوع الاسطوري ذي الهدف السياسي المحدد ، اما بقصد تثقيف الشعب وتعليمه تاريخه القومي ، او بقصد آخر يرى ضرورة تطويع نفسية المواطن بالتضخيم او التقليل والتصغير حتى تسهل عملية قيادته ، او بهدف سياسي مغاير وهو الهاؤه عن مشاكله وقضاياه حتى يتسنى لهم ان يسرحوا ويمرحوا فوق كراسي الحكم دون معارضة او مناجزة ، او لهدف ايقاظ الشعور القبلي او القومي المتعصب حتى يمكن به الهجوم لتحقيق قضية معتدية . من أجل هذه الاهداف وغيرها خلقت الاسطورة المسيسة في العصور الوسطى التي رويت بالملحمة كملحمة الزير سالم او بالرواية الطويلة كقصة فتوح اليمن الكبرى الشهير براس الغول او رواية سيف بن ذي يزن .. وهذا النوع من الملاحم او القصص الاسطورية مختلف تماما عن الاساطير الدينية التي وردت في التوراة والانجيل والقرآن كقصة الخلق والتكوين

واساطير الانبياء ، ولن نتطرق لهذا الموضوع لبعده عن موضوع بحثنا من جهة ومن جهة اخرى لاحتفاظه باستقلالية نسبية تجعل منه موضوعا قائما بذاته . ومن هذا التباين في نوعية الاساطير يمكننا ان نستخلص نتيجة تحملنا على ان نقسم الاساطير الى ثلاثة انواع : **اساطير دينية واخرى سياسية وثالثة اجتماعية** وان كانت الاولى والثالثة يسعيان لتحقيق هدف النوع الثاني من الاساطير كما ان النوع الاول من الاساطير في شطره الاول اي الخرافي قد اوغل في القدم وظهر مرويا في المرحلة الاولى او ما تسمى بالمرحلة البدائية ثم تطور واخرج مكتوبا ومسطرا في المرحلة الارقى .

وعلى هذا الاساس فان الاسطورة مؤثر عظيم عميق الاثر في الحضارة الانسانية وهي وثيقة الصلة بكل الافعال الانسانية في ازمنة ما قبل العلم كما انها لا تنفصل عن اي ضرب من ضروب الحياة الجمالية ، بل ولقد تمكنت بتأثيرها القوي من الفكر الانساني في صورته القديمة ، وحتى العلم لم ينج منها فقد مر بصورته الاولية بمراحل اسطورية قبل ان يصل الى مرحلته الحقيقية المادية .

ان الاسطورة باجماع اراء العلماء هي اولا واساسا جمع من الافكار والمتمثلات والمعتقدات والاحكام النظرية ينصب في قالب لغوي رفيع الاسلوب شعرا ونثرا . ويستوعب في هذا القالب جميع الافكار والمعتقدات للفرد والجماعة ، وتستمر عملية الاثراء الفكري واللغوي مستمرة بتدافع الايام ، وبتحولاتها المكانية . وهو ما حصل في الاسطورة التي نحن بصددها في بحثنا هذا ، وسوف نتابع ذلك من كل مراحل تطورها فالاثراء والاضافات في الجوانب الفكرية (العقائدية) واللغوية انما تم خلال عملية التطور الزماني والتبدل المكاني الذي لازم الاسطورة في مسيرتها .

الباب الرابع

الأسطورة اليزنيّة

لعلنا لا نبالغ ان قلنا ان الاسطورة اليزنية قد استحوذت على اهتمام كثير من الكتاب والمحللين الذين تناولوا بالبحث والتحليل بحسب التزاماتهم الايديولوجية الجانب الاسطوري في القضية اليزنية بعد ان تناول شقها التاريخي كثير من المؤرخين والباحثين ، والذين سبق وان استعرضنا مجهوداتهم في الجانب التاريخي من تحليلنا شخصية سيف . وقد يطول بنا الشرح والتحليل ونحن نتناول كل ما قيل عن تلك الاسطورة ، ومن هذا الموقف حرصنا على ان نتناول ما قيل في الجوانب الحساسة للاسطورة والتي نسلط عليها مبضع بحثنا حتى نتمكن من ان نرى ما لم يستطع الفكر المجرد رؤيته او تحديده . فقد عجز أصحاب هذا الفكر واتباعه في كل الدراسات التي وضعوها لدراسة الاسطورة عن التقاط زمن روايتها مع امتداد ذلك الزمن ، كما تخبطوا في تحديد هدف هـذه الاسطورة بصورة خاصة وكل القصص الاسطورية التي شيد هيكلها على نفس نمط هيكل اسطورة سيف ، كما وقفوا موقفا عاجزا تجاه قائلها ، والوصول الى معرفة هذه الجوانب يسهل علينا تلمس طريقة المعرفة

الحقة بعد نزع الغشاء الاسطوري عن الوقائع التاريخية لالحاقها بالزمن الذي سبقها وتلاها ، ومد جسور مرئية حتى فترة معايشتنا لها في الآن .

تجمع الآراء السابقة على ان زمن كتابة الاسطورة اليزنية ، يعود الى القرن الرابع عشر مستنتجة رايها من الاسطورة وحوادثها وشخصياتها ، واهم الشخصيات شخصية الملك الحبشي « سيف ارعد » وهو الذي حكم الحبشة في القرن الرابع عشر وبالتحديد بين عام ١٣٤٤ — ١٣٧٢م . وكان من ضمن من طرح مثل هذا الراي الدكتور فؤاد حسنين علي والذي يقول « وكتابة هذه السيرة التي يرجح انها وضعت عقب وفاة سيف ارعد . اعني حوالي نهاية الرابع عشر او أوائل الخامس عشر » . ويستمر في تأكيداته على زمن كتابتها وتأليفها ومكان ذاك التاليف فيقول : « في تلك الفترة الفت السيرة ، ومصر هي وطنها . وذلك ما يلمسه القارىء فيها » . ويشارك الدكتور فؤاد رأيه هذا فاروق خورشيد وقد قدم رأيه في مقدمته لقصة سيف بن ذي يزن . والتي اعاد كتابتها بما يتلاءم وروح هذا العصر وفي معرض حديثه عن تاريخ القصة في الوطن العربي يقول « بينما كانت سيرة « سيف بن ذي يزن » حوالي القرن الرابع عشر الميلادي ، وفي هذه الحدود الزمنية تقريبا يرجح ان سيرة « الظاهر بيبرس « قد تكاملت ويورد مستدلا على كتابتها في القرن الرابع عشر رأي « ابن كثير » والذي عاش في ذلك القرن وتوفي ١٣٧٣م في السير الشعبية التي كانت متداولة على زمنه ليقطع بعد ذلك في الراي « شهد اذن القرن الرابع عشر الميلادي الذي عاش فيه « ابن كثير » تغلغل هذه السير الشعبية وانتشارها عند الناس ، بل شهد أيضا نوعا من المعارك بينها وبين العلماء ويثبت وجودها وخطرها » ، ويعتمد فاروق خورشيد على رأي الدكتور فؤاد حسين في ان السيرة كتبت في ذاك القرن والذي استنتجه الدكتور في وجود شخصيات رئيسية فيها على رأي السلطة في الحبشة حالئذ .

وقد أفادتنا شخصية « سيف ارعد » في تحديد زمن كتابة هذه السيرة ، وليس هذا فحسب بل أفادت كذلك في تحديد هدف كتابتها ، حيث يواصل الدكتور حديثه « وهي تفيدنا كذلك في تحديد سبب كتابتها وسوف نأتي فيما بعد لتناول هذه النقطة حين نستطرد في

شرح وتحليل الهدف الذي كان الدافع الى تأليف هذه السيرة » .
ويعلل فاروق خورشيد رايه هـذا بسوق الحوادث السياسيـة والعسكرية التي وقعت بين مصر والحبشة في تلك الفترة مستشهدا بالسرد التاريخي الذي قدمه الدكتور عبد المجيد عابدين عن طبيعة تلك العلاقات وعن الاوضاع السياسية السائدة انذاك . ليخلص الى نتيجته ليؤكد عليها بحرارة « وفي هذه الفترة التاريخية اذن والتي يرجح أن سيرة « سيف بن ذي يزن » قد كتبت فيها ، كانت الحبشة تمثل عند المصريين مركزا من مراكز العدوان على العالم الاسلامي بعامة ، وعلى بلادهم بخاصة وكان من الطبيعي ان ينعكس هذا على الوعي الشعبي وان يظهر في تعبير الشعب عن نفسه » .

وقد تلاحقت الآراء بعد ذلك على نفس النسق ذلك انهـا استمدت من هذا الراي مادتها فتشكلت افكارهـا وقناعاتها على مشاكلته ، وذهب الجميع ليؤكد نفس الراي خاصة وان تلك الفترة كانت فترة انحطاط وجمود للفكر العربي كنتيجة طبيعية لتلبد الاوضاع السياسية اثناء حكم المماليك في مصر وما جروه من ويلات على الواقع العربي بصورة اشمل والفكر باكثر خصوصية، وقد اتسم هذا العصر بوسمة تخلفه العلمي وعودة الحـياة للسحر والخرافـة والشعوذة . وكان الميل الى الراي القائل بانه في وسط هذا الجو البعيد عن العلم حصل الوفـاق بين الفكـر الاسطوري والجمود الفكري لينتجا معا القصص الاسطورية .

الاحداث التاريخية في الرواية الاسطورية :

هناك رايان مطروحان حول الفترة التي الفت فيها الاسطورة ولا نريد ان ندحض هذا الراي او ذاك ، الا اننا نملك موقفا من الاثنين يحمل مزيدا من الايضاح وينقل القاريء الى العيش في جو الرواية وزمن سردها ومكانه ، وتلك محاولة لاعادة تركيب الظروف والاوضاع جميعها في تلك الفترة وهو العمل الذي قدمناه في سردنا وتحليلنا التاريخي للحظة التاريخية ، وقد ادركنا فيها قصة مصرع سيف بن ذي يزن والجهة المتحملة مسؤولية مقتله ولمـاذا اقدمت على فعلتها ، تحت اية اسباب ولاي هدف ؟؟ وقبل أن نقوم بتحليل الاسطورة اليزنية سنقوم بتحليل الروايـة في جانبها الاسطوري

لنقدمها بفكرتها التاريخية المادية . والقصة تروي نضال الاسلام ضد الوثنية زمن الجاهلية كما هو متعارف عليه ، ويمثل العنصر الاساسي فيها الاسلام ويمثل العنصر الحامي فيها الوثنية . يمهد للسيرة بالحديث عن ملك يمني هو ذو يزن ووزيره العاقل المسمى « يثرب » وهو اسم لم نتعرف عليه في كتب التاريخ بعد . أما ذو يزن فربما يقصد به ذي نواس ، لكن ظروف الرواية اقتضت ان يكون الملك هو والد سيف ، وعلى كل فمن المعروف تاريخيا ان الملك سيف هو سليل اسرةيمنية عريقة رفيعة المكان بحسبسرد المؤرخين النسابين العرب والمسلمين وعلى راسهم الهمداني . كان الوزير « يثرب » من القلائل المطلعين على كثير من الكتب القديمة كالتوراة والانجيل . وقد انبأته الكتب بظهور شخصية في الجزيرة تدعــو للتوحيد بخالق السماوات والارض مع التبليغ باسمه كذلك .

وتستعرض السيرة علاقات جنوب الجزيرة بشمالها ، وقد اتضفت بطابع عدواني ، فقد سار « ذي يزن » لمحاربة ملك يدعى في السيرة « بعلبك » يحاول ذو يزن في زحفه هدم الكعبة ونقلها الى أليمن ، ويجابهه الفشل بسبب الامراض التي فتكت به ، وعلى اثرها وبنصيحة ومساعي وزيره يثرب يعتنق الاسلام ويقلع عن فكرته ويبالغ في اشهار اسلامه وايمانه بتقديم كسوة للكعبة ، وفي هذا الجو المفعم بالمشاعر تجاه الاسلام ، يشهر الوزير اسلامه ويبني مدينة جديدة تحمل اسمه « مدينة يثرب » وهي المدينة التي حــول اسمها بعد هجرة الرسول الى « المدينة » وقد بناها بحسب ما انبأته الكتب . ويتقدم ذي يزن في عمق الجزيرة ويتجاوزها الى مدينــة بعلبك ليسلط سلطانه ثم يتجه الى القرن الافريقي ، الحبشة . ويزحف على السودان وبذلك يشمل النفوذ اليمني الرقعة الواسعة من الارض العربية والافريقية . وتروي السيرة قصة نوح وولديه سام وحام باعتبارها من الحوادث الدينية التاريخية المهمة ثم دعوته على حام وما تبع ذلك من أساطير .

وتركز السيرة على العلاقات بين الاسرة السامية الحاميــة سلبا وايجابا وعلى وجه الخصوص الجانب السلبي فيها ، حيث كانت وما زالت تنشب بينهما حروب طاحنة وتحت مبررات متنوعة فحينا تشتعل بحجة الغيرة على الدين وحينا آخر لسبب عنصري وثالث قومي .. الخ .

وتلتقـط السيرة صورة تبرز عمق العلاقـة بين اليمنيين والاحباش فاليمني الاصل يمكن ان يكون حبشي المولد كما يحدث العكس . ولد سيف في افريقية ويحمل لقب وحش الفلا وقاد الجيوش اليمنية لطرد الاحباش في اليمن عام ٥٧٠م وبمساعدة الجارة الكبرى فارس ، ويشتبك البلدان المتجاوران الصديقان العدوان في معركة ضروس يقودها عن الجانب اليمني سيف بن ذي يزن ، وهـو من رجالات القرن السادس الميلادي ، وفي الجانب الحبشي الملك سيف أرعد وقد حكم الحبشة بين عامي ١٣٤٤ ـ ١٣٧٢م . يدفعهما في حربهما الحرص الشديد على النيل لضمان استمرار تدفق مياهـه من الحبشة الى مصر .

تلك هي الحوادث التاريخية التي استطعنا استخلاصها عن السيرة بصرف النظر عن اللبس الزمني والمكاني والفكري الذي فيها بعد أن جردناها من جوانبها الاسطورية ، والزمنا انفسنا مجانبة الخيال محاولين قدر الامكان معرفة الحوادث لتحليلها واعادة تركيب جزئياتها لنتعرف على حقيقة الاوضاع السياسية والعلاقـات بين البلدان الواقعة على طرفي البحر الاحمر الشرقي والغربي في تلـك الفترة وكذا وفي امتدادها وابعادها المستقبلية . وسوف نتطرق الى هذا الموضوع حين نأتي على ذكر الاوضاع السياسية التي كانت سائدة مع انتعاش السيرة لنتعرف منها على الاهداف والغايات التي وضعت من أجلها السيرة .

موجز عن الرواية الشعبية :

نظرة سريعة وموجزة في الجوانب الاسطورية الخيالية للسيرة لتسهيل عملية الالمام بالسيرة « الاسطورة » وبعد ان قدمنا صورة موجزة عن أهم الحوادث التاريخية التي ركزت عليها السيرة للتعرف على عملية التركيب التي تمت في السيرة بين الحوادث التاريخيـة والمشاهد الاسطورية .

تقع السيرة في اربعة مجلدات ، ويقع كل من المجلـد الاول والثاني في ثلثمائة واربعة وثمانين صفحـة ، اما الثالث والرابـع فيحتوي كل منهما على ثلثمائة وعشرين صفحة ، تلعب فيها ادوار البطولة اثنان وثلاثون شخصية . والشخصيات المهمة فيها ، هي

الشخصيات التاريخية الحقيقية الملك اليمني سيف بن ذي يزن والملك الحبشي سيف ارعد ثم يأتي بعدهما في الاهمية شخصيات انسانية من غير المستبعد ان تكون شخصيات واقعية الا ان أدوارهم السياسية غير مؤكدة تاريخيا ثم بقية الشخصيات الانسية واخرى سليلة الجان والمردة . ويدور الفصل الاول حول الملك ذي يزن ووزيره يثرب . فتوحات الملك الحميري وصولاته في المجال السياسي والعسكري . الملك يزحف بجيوشه على الجزيرة تراوده رغبة نزع الكعبة من مكانها وتحويلها الى اليمن ، وهو العمل الذي كان يرغب فيه القائد الحبشي لجيوش الغزو « ابرهة الاشرم » ولم يوفق فيه . ويفشل الملك ذي يزن في الرؤية كما فشل ابرهة الاشرم في الواقع ويصاب بأمراض لا يشفى منها حتى يقلع عن فكرته ، وتأتي نصائح وزيره كعامل مساعد للعدول عن الفكرة نهائيا واعلان اسلامه ، وهنا فقط تتفتح له أبواب الخير والفتح الميمون فيسير بجيوشه الى بلاد الشرق فيتقابل مع ملكها « بعلبك » الذي يرحب بقدومه ويستعرض كل منهما امام الآخر عظمة ملكه ويتفقا على مبارزة فرسانية ينتصر فيها الملك اليمني على ملك بعلبك ويستحوذ على مملكته .

وبعد ان فرض سلطان اليمن على الجزيرة وبلاد الشرق يزحف ذو نواس على الساحل الغربي للبحر الاحمر . حوادث هذا الفصل لا تسيرها غير الارادة الربانية ، ولا وجود للجن والمردة فيه لانها تدور في الجزيرة وهي مهبط الديانات المقدسة . يقدم الجن والشياطين على الرؤية في فصلها الثاني من افريقية وبالتحديد من بلاد الحبشة يجتمع ملك ملوك الاحباش والسودان المعروف بالملك « سيف ارعد » بوزيره « بحرقفقان الريف » وكان يدين بالاسلام سرا ومعهما الحكيمين « سقرديوس » و « سقرديون » ليتباحثوا في امر الانزال اليمني في ارضهم الافريقية يفكر الملك غاضب في الغزو والابادة للجيش والشعب اليمني « انظروا الى هؤلاء العرب عدماء العقل والادب الذين نزولوا في ارضنا ولم يستأذنونا في ملكنا ، وان عولت ان اغزوهم واخرب ديارهم واقتل كبارهم وصغارهم ، وانهب اموالهم وعيالهم . يثنه الجميع عن فكرته وبحنكة سياسية يدبرون حلا لقتل الملك اليمني ذي يزن دون اراقة دماء بين البلدين الشقيقين . تتلخص الفكرة في الدخول من مدخل

حساس وهو اللعب بعاطفة الملك اليمني ومشاعره الانسانية بارسال جارية جميلة كهدية له تحمل معها السم ، وفي اللحظة المناسبة تنقض عليه . تتجاوب الجارية « قمرية » مع مهمتها لغاية في نفسها ، ويتم كل شيء بالصورة المطلوبة .

قلنا سابقا أن الوزير « بحرقنقان الريف » كان مسلما في سره في الوقت الذي كان أهل الحبشة يعبدون الكواكب وعلى رأسها كبيرهم زحل ، وبحكم الرابطة الدينية التي تجمعه بأهل اليمن وعلى رأسهم الملك ذي يزن فقد ابت عليه عاطفة الاخوة الدينية الا ان يبلغ اخوته بخبر المؤامرة ، فأرسل مع عبد يثق فيه خطابا الى الوزير يثرب يخبره بالمؤامرة ، ولم تصل الجارية قمرية الا واخبار المؤامرة وخيوطها معروفة ، واستطاعت قمرية ان تتخلص من المازق بذكاء وخبث ، كما استطاعت بجمالها وذكائها ان تحول الاوضاع الحرجة التي كانت ضدها بعد انكشاف المؤامرة الى واقع مغاير في صالحها . وهام الملك ذي يزن بحبها وتزوجها وانتقلت الى قصره الملكي .

كان الملك سيف ارعد يتابع اخبار جاريته التي تحمل في جعبتها المؤامرة الضخمة على اليمن ومليكها ، وحين عرف ان مجرى المؤامرة قد تغير غضب لذلك غضبا شديدا ، وكما يبدو من تصرفاته في الرواية فقد كان سريع الغضب عجول شديد الانفعال الا ان الحكيمين سقرديوس وسقرديون كانا يهدآن من روعه ويطلبان منه ضبط النفس ، فقد كانا يدركان ابعاد خططها الجديدة في التخلص ببطء وحذر من الملك ذي يزن ، خاصة وانه كان حذرا منها للغاية .

تواصل قمرية تنفيذ مهمتها وتدس للملك ذي يزن كل يوم جرعة من سم كان معها حتى تأتي عليه ، ويوصي ذي يزن وصية وهو في النزع الاخير فيدعوهم الى الايمان بالله وتصديق رسالة ابراهيم الخليل ، ويوصي بالملك للجارية قمرية من بعده حتى تلد ، فان كان ذكرا كان الحاكم ، وان ولدت انثى آل الحكم الى من يتزوجها .

سيف في طفولته وصباه :

قفزت قمرية الى كرسي الحكم تأمر وتنهي حتى وضعت مولودها الذكر وقد سلكت لقتله جميع السبل ونصحتها جاريتها

الا تقدم على الفعلة بيدها فينتقم منها اهل اليمن ، ووعدتها ان تدبر لها موضوع التخلص منه واسعفها فكرها بوسيلة معروفة ، رددها الفكر الاسطوري الشرقي كثيرا قصة موسى وهو رضيع ، ويحمل سيف كما احمل موسى ، مع اختلاف المشـــاعر والهدف ، الى واد فسيح مقفر ويوضع الطفل تحت شجرة ، وهو مزود بكيس الدنانير والذهب ، وتنسحب الجاريتان تحت جنح الظلام ويبقى الوليـــد وحيدا . عودنا هذا النوع من الاساطير ان يلعب الحيوان فيه دورا عاطفيا غريزيا . فتدركه هذه المرة غزالة تغيثه برضعة لبن حتى يدركه صياد يحمله معه الى قصر ملك المدينة المعروف في الرواية بالملك « أفراح » وهو من اتباع الملك « سيف ارعد » ويروي له حكاية حصوله على الطفل .

نطالع في الرواية رد الفعل الطيب عند الملك افراح تجاه الطفل فيقرر تبنيه ، وبينما هو في فرحته يدخـــل عليه الحكيم سقرديـــون كرسول من الملك سيف أرعد فيرى الرضيع ويعرفه في الحال من امارة الشامة التي على خده الايمن ، ويسرد عليه الملك افراح قصة العثور على الطفل فلا يصدقها الحكيم ويطلب التخلص من الطفل حالا في جو الاستغراب والدهشة الـــذي وضع فيه الملك افراح ، يشرح له خطورة الطفل حين يكبر على عبدة الكواكب ذلك انه مـــن دعاة التوحيد والعلامة التي على خده اشارته ومعجزته ، وتشبه هذه الفكرة فكرة ولادة الرسول ، كما يرويها المسلمون حين ولد مكحلا مختونا .

ويكرر الفكر الاسطوري هذه الفكرة لكل الشخصيات الحقيقية والوهمية التي يصنع منها بعد ذلك شخصيات عظيمة تأتي الخوارق والمعجزات . يشرح الحكيم للملك ما ستحمله الايام على يد سيف ، والذي سيحكم الانس والجن بسيف « آصف بن برخيـــا » ، وهو وزير النبي « سليمان بن داود » ، ويبدو ان ادخال العنصر اليهودي كطرف في القصة كان ضروريا خاصة اذا عرفنا ان للقصاصين اليهود اليمنيين ، وعلى رأسهم وهبه بن منبه دورا كبيرا في صياغة تلك الروايات والقصص . يبقى السيف معلقا فوق جثمان آصف فترة زمنية طويلة حتى يكبر سيف ويحصل عليه بعد صعوبات ومشاق جمة سنتعرف عليها في حينها .

يبدو الملك افراح هنا كمنقذ لحياة الطفل يصر على موقفه ، تدخل علاقاته مع السلطة الحاكمة في الحبشة مرحلة جديدة . خاصة بعد ولادة زوجته بطفلة تحمل على خذها هي الاخـرى شامة . تجتمع الشامتان ، وفي اجتماع الشامتين مغـزى يعرفه الحـكيم ، ففي اجتماعهما نهاية لعبادة الكواكب كما فيه نهاية حكم ملك الحبش . وتحت اصرار الحكيم يفرق الملك افراح بين الطفلين ويسمي المولود الذكر بـ « وحش الفلا » . يختطف المولود من الجارية وهي لا ترى احدا بل تسمع صوتا ثم يختفي على اثره المولود تتبناه الجان وقـد ظهروا في الرواية لحل عقدة الموقف وتبقى الجنية وهي ملكة جبال القمر ومنابع النيل سيف عندها ثلاثة اعوام ترضعه مع ابنتها عاقصة ثم تعيده الى الملك افراح . وكان لا بد من توفير الحماية له فبقي في كنف الملك افراح حتى يكبر .

بدأ سيف يتعلم الفروسية حتى بلغ اربع عشرة عاما . وهنا يتكرر الموقف الحرج للملك افراح والذي عـاشه قبل تلك الاربعة عشر سنة يرى الحكيم سقرديوس الصبي ويعرفه ويعنف الملـك على فعلته ويطلب منه التخلص السريع من الصبي او الوشاية به عند الملك « سيف ارعد » . ومداراة للحكيم تخلص الملك افراح من الصبي بان سلمه لفارسه الشجاع المسمى في الرواية ب « عطمطم» هرب « وحش الفلا » من مدربه عطمطم بعد ان عزم على التخلص منه حين شعر بقوة الشاب الصغير وادرك من مروسيته انه الملك اليمني المنتظر . وصل وحش الفلا الى غار في داخله رجل اعجمي جلس اليه يشكو حاله : وهو لم يعرف بعد ان الرجل ينتظره منذ زمن حتى اخبره بذلك ثم بدأ يعلمه بخبر الكنز الذي ينتظره تحرسه الجان من الغار والسوط المطلسم معه .

ويلعب فريق من الجان دور المحامي والحارس الخفي للصبي حتى يتم ترتيب الرواة لاراحة المستمع في بعض المواقف . دور الرجل الاعجمي ابطال السحر والحكمة المضرة بوحش الفلا كما يقول هو . الا انه فيما تبع ذلك من احداث يبدو فيها ان ذاك الرجل كان يخادع وحش الفلا لينتزع منه السوط . ينتهي الموقف بـين الاثنين بقتل الرجل الاعجمي ويبدو انه اول ضحية للملك سيف .

يواصل وحش الفلا سيره فيصل الى مدينة يراها مغلقة وكل من فيها يبكي كأنهم في مأتم وحين يتسقط الاخبار يتضح له ان شابة

جميلة يعرف فيما بعد انها شامة سوف تزف عنوة الى عفريت من الجان ليتزوجها ، . ويحزن الناس خاصة ان المعشوقة الشابة هي شامة . ويعزم وحش الفلا على تخليصها بقوة الملك المعبود رب الوجود .

وحش الفلا يستخدم السوط المطلسم فيقطع يد المارد ، ويخرج بدل الدم دخان ذلك ان الجن من نار ويبدو ذلك من تاثيرات القرآن « من مارد من نار » يتألم المارد من ضربة وحش الفلا فينشر اجنحته ويطير .

مكائد الحكيم سقرديون

ادركت شامة ان وحش الفلا هو الذي نجاها وابيها من المارد فتعلقت به واحبها وطلب من ابيها يدها للزواج الا ان الحكيم سقرديون سمع بالخبر فحذر الملك من مغبة ذاك الزواج ، يتحايل على وحش الفلا يطلب مهرها رأس عبد زنجي اسمه سعدون الساكن في قلعة الثريا ، يقبل وحش الفلا الطلب التحدي يخرج في غابة يسير وحيدا في الوادي وبعد ثلاثة ايام يقابل شامة التي تحاول ان تؤنسه في وحدته ، اللقاء هنا لراحة سيف والسامع معه ، ثم ليواصل المسيرة مع اول تحد في حياته قبله بمحض ارادته وتعود شامة الى المدينة .

يصل وحش الفلا الى قلعة كبيرة مغلقة يدخل القلعة بعد ان اختبأ وسط الرجال واسراهم يقع داخل القلعة في مأزق فيرى الموت بعينيه حين تهوي به الارض من تحت قدميه الى جب عميق .مرة ثانية يقابل شامة حبيبته التي كانت قد تبعته واختبأت مع القافلة تدله على معارج وطرقات القلعة التي كانت تعرفها وهو يتبعها الى ان وصل الى باب كبير لغرفة واسعة يجلس فيها ثمانون رجلا وامامهم فارس مهول كان يأمرهم باحكام وثاق الاسرى . يشعر هذا الفارس المسمى سعدون بخطر يتربص بهم داخل القلعة خاصة بعد مقتل اثنين من رجاله يتقابل الرجلان ويتبارزان بمهارة فائقة يكاد الفارس سعدون ان يتمكن من وحش الفلا تسارع شامة بقذف خنجرها الى ساعده فيسقط سيفه ويتوقف وحش الفلا عن الطعان فليس من شيم الرجال الغدر .

يتبارز الفارسان من جديد خارج القلعة تحت الحاح وحش

الفلا الذي لم يكن يطلب غير راس ذاك الفارس كمهر لزواجه من شامة وقد تمكن منه في مبارزتين ، وحين احس الفارس بباس مبارزه استسلم له ورحل ثلاثتهم الى الملك افراح وكان هذا اول انتصار له في التحدي الذي فرض عليه بالمكـر والخديعة . ولـم يات ذاك الانتصار الا نتيجة ايمانه بالله ورسله فما ذاك السيف الذي بيده الا سيف آصف بن رخيا وزير النبي سليمان بن داود .

يقبل الجميع على المدينة يتحصن الملك « افـراح والحكيم » سقرديون وراء اسوار المدينة توقعا للمشاكل الجديدة القادمة بقدوم وحش الفلا وسعدون تفتح لهم الابواب بعد التأكد من الركب يدخلوا على الملك افراح ويعاتبهم سعدون . يتخلص الحكيم بسرعة بطرح مبرراته في طلبهم راس سعدون بانه اختبار لشجاعة وحش الفـلا وحين تهدأ الخواطر يتقدم سيف بطلبه مجددا يدخلـه الحـكيم في مغامرة اخرى وهي البحث عن كتاب النيل ـــ وهذا يعني الدخول في مغامرة لمعرفة منابع النيل والاطمئنان على بقاء تدفقه الى ارض مصر وتاكيد سيطرتها عليه ، خاصة بعد التهديدات التي كان المصريون يتلقونها من حكام الحبشـة . في هذه المغامرة تبدو عزيمة وحش الفلا منهكة وقواه خائرة يقبل الشرط الجديد على مضض فيقطع الصحاري والاكام حتى اشرف على جبل ، وفي جانبه صومعة يسكنها رجـل يسبح بذكر الرحيم وقد سلم عليه ورد الشخص التحية بافضل منها « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته واهلا وسهلا بملك بلاد اليمن وغيرها من الامصار والد من الحاكم على هذه الاقطار وسائق النيل من بلاد الحبش الى اراضي الامصار مانع الظلـم والفتن حاكـم صنعاء وعدن وصحاري الحبش ، وما يتبعها من القرى والمدن الملك سيف بن ذي يزن يعترض سيف بان اسمه وحش الفلا الرجل العجوز كان يعرف القصة كلها فاسمعها للملك سيف « اعلم ان هذا الاسم جاءك من الملك افراح واما اسمك الاصلي فهو سيف من عند الملك الفتاح اذن فقد كان اسمه سيف من عند الله مثله في ذلك مثل الانبياء فموسى بشر بعيسى لان الله ابلغه بذلك اسمه المسيح بن مريم وعيسى بشر بمحمد لانه عرفه من السماء المكتوب عليها اسم احمد . والملاحظ ان الرواية تعطي لسيف نفس مواصفات الانبياء يستغرب وحش الفلا ذلك فلم يسمع باسمه غير هذه المرة . يوضح له الناسك حقيقة اسمه « ياولدي اسمك الحقيقي سيف بن ذي يزن

على اهل الكفر والمحن لانك تقيم العدل في الاحكام وتؤيد الاسلام وعلى يديك تنفذ دعوة نبي الله نوح عليه السلام فانت يا ولدي من الذي تعبد ؟ يرد عليه سيف بقدر فهمه « يا سيدي انا على قدر فهمي ان المعبود هو الله ولكن لم اجد من يفهمني شيئاً حتى كنت اتبعه . انا رايت هؤلاء السودان يعبدون « زحــــل » . تظهر في الغـار نفس الصوره التي حدثت مع النبي العربي محمد بن عبدالله حين كان يتعبد في غار حراء فجاء اليه « جبريل » هنا هو الناسك الذي يعلم سيف الاسلام ولاهمية هذا الموضوع نرى ضرورة الوقوف امام تلدراما التي أصبحت تتكرر في أكثر من قصة .

الشيخ ــ « يا ولدي لا يعبد بحق الا الله عز وجل الذي خلق الارض والسماء وأجرى بقدرته البحار وفجر الانهــار وهو الله الواحد القهار » . ويشدد على ضرورة عبادة الله .

الشيخ ــ « فاعتمد يا ملك سيف على عبادة الله ولا تركن الى سواه » .

سيف ــ « يا سيدي وايش أقول من القول المبين حتى أكون من الفائزين » . نفس الموقف في غار حراء مع الرسول وهو يقول : « ما أنا بقارىء » .

الشيخ ــ يا سيف يا ولدي قل اشهد ان لا اله الا الله وان ابراهيم خليل الله وان محمدا رسول الله وهو آخر الانبياء وختامهم الذي يبعث في آخر الزمان من نسل معد بن عدنان .

سيف ــ « اريد ان تكون واسطة لي وتعلمنى ما علمك الله .

الشيخ ــ أمدد يدك في يدي . المنظر يد الناسك يحتضن يد سيف القوية .

سيف : « اقول على يديك اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان ابراهيم خليل الله وهو أبو الانبياء واشهد ان محمدا رسول الله خاتم الانبياء والمرسلين وهو نبي آخر الزمان الذي يبعثه الله من نسل عدنان . ثم يبقي سيف عند الناسك ليلة يشرح له فيها الطريق المؤدية للحصول على كتاب النيل .

مغامرة سيف للحصول على كتاب النيل

سار سيف كما تروي السيرة ثلاثة أيام حتى وصل الى بحر واسع انتقل من شاطئه الشرقي الى الغربي على ظهر دابة كبيرة ثم التقى بفارس بارزه بلامبالاة أدهشت الفارس والتي اكتشف بها حقيقة مبارزه ، ثم يناط اللثام عن الفارس كما انيط عن سيف فاذا به شابة جميلة من الكهنة اسمها طامة ابنة حكيمة من الكهنة اسمها الحكيمة « عاقلة » . جلست طامة تقص عليه قصتها التي قرأتها لها امها الحكيمة عاقلة في الرمل وخلاصتها انها سوف تتزوج ملك من بلاد اليمن اسمه سيف بن ذي يزن والذي سوف يصل الى بلاد الحبشة لطلب كتاب النيل وتخبره انها ستقوم بحراسته من أرصاد المدينة حتى لا يقع في يد ملكها الجبار « قمرون » . وتعطي هذه الارصاد اشارات للحكماء اذا دخل على مدينتهم « قيمر » دخيل ، وللدخول الى المدينة ابتكروا صنعة تحمل الملك سيف من فوق سور المدينة وتمكنوا بذلك من الدخول الى الداخل الا ان الحكماء وعددهم في تلك المدينة ثمانمائة وستون حكيما ومعهم الملك « قمرون » أدركوا أن الغريب قد دخل مدينتهم فتجهزوا في حملة تفتيش واسعة ومن بيت الحكيمة عاقلة كان الملك سيف وطامة والحكيمة يتابعون الحملة. وقد خبأت الحكيمة سيف بطريقة سحرية حتى تموه على الحكماء قراءتهم الرمل . وتذهب الحكيمة لمقابلة الملك الذي يشكو اليهما دخول الغريب للمدينة . تصارع الحكيمة عاقلة الحكماء بواسطة السحر . الصور السحرية هنا والتي ما زالت تستخدم عند بعض القبائل الافريقية الى يومنا هذا ، هي من بقايا المرحلة السحرية التي سبقت الاسطورة ، والتي جئنا عليها في استطرادنا التاريخي لتطور الفكر الانساني والنقلات التاريخية التي حدثت له . الصورة هنا طائر مربوط الاجنحة على ظهر غزال ومثبته بعصا مربوطة بحبل من وسطها ، وطرف الحبل الثاني في بكرة رفعت الغزال ورفعت معه سيف الى ان أصبح في بطن الغزال وقد اربكت رؤيا الحكماء التي كانت ترى ان الغريم ابتلعت ثلثه سمكة وانقض على ثلث منه طير ولم يبق منه غير الثلث . بقيت الحكيمة عاقلة والحكماء يتجاذبون

بالسحر اخفاء الملك سيف والعثور عليه وهو في وسط المدينة وقد سبب ذلك فتنة بين الملك والحكماء ، وفي نهاية الامر تتمكن الحكيمة عاقلة من ان تخدع الملك قمرون ويصل الجميع الى مكان كتاب النيل للاطمئنان على وجوده وكان معهم سيف متنكرا بزي الخدم ، وما ان شاهد اهل المدينة الكتاب حتى خروا ساجدين ، وهنا انتهز سيف الفرصة ليضع يده على الكتاب الذي ارتمى بدوره تحت اقدام سيف . يدرك الملك الخديعة . يلتف حوله الجميع وبعد معركة حامية الوطيس يقع سيف في أيديهم ويرسل الى الجب منبدلا . الصورة هنا هلاك سيف الوشيك فماذا سينتجع الفكر الاسطوري من معجزة ينتزع بها سيف من ورطته وموته المحقق .

وبينما سيف في حزنه يتضرع الى الله تظهر المعجزة ، فقد انشق حائط الجب عن شخص طويل يصل راسة الى سقف الجب ، وكان مفاجأة قوية ومذهلة لسيف فقد طلب منه الشخص العملاق ان ينقذه في الوقت الذي كان في حاجة الى الانقاذ ، ثم كانت المفاجأة الثانية فذاك الشخص كان فتاة من الجن اسمها « عاقصة » بنت الملك الابيض وفوق هذا وذاك من المفاجآت ، فقد كانت هي وقومها يؤمنون بالله رب العالمين وقصتها انها جاءت تطلب النجدة من سيف من مارد جبار أراد ان يتزوجها : وبطبيعة الحال وكما هو متعارف عليه في العرف الاسلامي فلا يمكن لامرأة مسلمة ان تتزوج من رجل كافر وقد طبق هذا التشريع في قصة سيف حتى على الجان . المهم ان امها وهي امه التي ارضعته وليدا قد نصحتها باللجوء الى سيف للتخلص من المارد الكافر الذي يريد ان يتزوجها . تحمل عاقصة سيف الى صومعة الشيخ عبد السلام والذي بقي طوال الليل يعلمه تعاليم الاسلام ، وفي الصباح اوصلته عاقصة الى قصر المارد الكافر ليجهز عليه وهناك كان في انتظاره اربعون فتاة وحين رأينه نادين عليه باسمه الحقيقي وعرفنه على انفسهن وكانت من بينهن بنت ملك الصين الملكة « ناهد » وبقية الفتيات هن بنات ملوك الاقاليم الانس . وقد خطفهن المارد الكافر . اراد هذا المارد ان يتزوج من الجن والانس من عاقصة الى ناهد بنت ملك الصين والتي اسلمت وقتها على يد سيف هي وبقية صاحباتها . يصل في تلك اللحظة المارد ويعرف سيف فيكشر عن انيابه للانتقام وهو نفس المارد الذي أراد ان يغتصب شامة ليلة وصول سيف الى مدينتهم . بادره سيف بضربة

من سوطه احالته الى كومة من تراب وبالمقابل طلب سيف من عاقصة اعادة البنات الى اهاليهم وقد لبت طلبه وحملتهن الى أقاليمهن وبقيت الملكة ناهد بنت ملك الصين التي رفضت العودة وعرضت على سيف ان يتزوجها الا انه رفض وابلغها انه يعد العدة للزواج من شامة فدعت عليه ودعى عليها وركبت ظهر عاقصة لتعود حزينة الى وطنها .

حملت عاقصة سيف وأوصلته الى قبة عالية يخرج منها الماء من اربع جهات هي منابع لانهر اربع اثنان يغوران هما سيحون وجيحون واثنان يجريان فوق الارض هما النيل والفرات . وقد حملته عاقصة بناءاً على مشورة « عبد السلام » الى عجائب الدنيا السبع المدائن المطلسمات ، ويستمر الخيال الاسطوري مجنحا ليتفرج سيف على غرائب الدنيا وعجائبها . تحلق به فوق المدن السبع . المدينة الاولى على أبوابها سبعة من الفرسان يشبهون بعضهم ورغم ذلك يتقاتلون . في هذه الصورة يبدو الرمز الواضح وهو يشير الى أهل منطقة واحدة مختلفون وقد بلغ اختلافهم ذروته بالقتال والطعن ، يرفض سيف أي يرفض الفكر الشعبي ، هذا الموقف العدائي وهو في مرحلة انحطاطه ، ينهاهم سيف فيمتثلون لنهيه ويوقفون الضرب والطعان . ويحشر الفكر الشعبي بفهمه فيلسوف اليونان « افلاطون » ويبلغ الفرسان سيف ان أباهم افلاطون ترك لهم قبل موته تركة عظيمة كل واحد منهم يريد ان يأخذها لنفسه . ومن فهم ذاك الفكر للامور . سيف افلاطون « الحقيقة ممزوجة بفكر اسطوري » فقد ترك قلنسوة صنعت بالحكمة ، كل من لبسها يختفي عن الجن والانس وقد جربها فاختفى عن الفرسان السبعة المتسابقين ثم اختفى كذلك عن عاقصة والتي عرفت أنه يلبس قلنسوة الحكمة . فقالت « ماتت ملوك الدنيا بحسرتها ولم يقدر احد في هذا الزمان على صنعتها » . وهكذا فهم العقل الشعبي في عصر الانحطاط ذاك فلسفة افلاطون وعلى الرغم من تبسيطه لها الى حد جعلها عبارة عن قلنسوة الا ان فعلها عظيم وكبير وهي فريدة من نوعها ويتمناها جميع الملوك الا انهم لا يستطيعون الوصول اليها لامتلاكها .

الوقوف الان فوق المدينة الثانية يحرسها شخص من النحاس الاصفر يترجل حصان حديدي وفي فمه بوق من الفضة البيضاء

يعطي اشاراته وقت حدوث اقتراب احد من باب المدينة يحس بسيف حراس المدينة يوقفوه ويحملوه الى ملكهم الذي يعرفه في الحال من الشامة التي على خده يأمر الملك وهو اعجمي واسمه « عبود خان » برمي سيف في البحر بعد تعذيبه يتفنن القبطان في التعذيب الا انه يعود بعد فترة من تركه سيف وهو يبكي ويعلن اسلامه على يد سيف ويطلب منه الصفح والغفران ، ويفك وثاق سيف ،هذه المرة تحصل المعجزةوينجو سيفمن لحظة الهلاك المحققة باسلام الجلاد والذي تغير اسمه من عبد النار الى عبد الصمد . خاف ملك هذه المدينة من ان يأخذ سيف خاتمه المطلسم كما اخبره كهنته ووضع للقبض عليه الارصاد وألف فارس . ويأمر سيف عبد الصمد ان يعلم اهله الاسلام فيسلموا جميعا الا جارية واحدة ، اجتهد الفكر الشعبي على ان يبقيها على كفرها حتى يجعل منهـا الضحية التي تفدي سيف فقد وضعت تلك الجارية بعد قتلها محل سيف داخل القارب ورمي بها في البحر ، والملك عبود خان مطمئن البال متصورا انه قد تخلص من سيف . يحصل سيف على الخاتم المطلسم في بطن حوت بمساعدة عبد الصمد ويهدد به الملك « عبود خان » ويخيره بين الموت او الاسلام يموت الملك الشرير بحسب رغبة اهل مدينته ويبقى الملك سيف في المدينة فترة من الزمن يعلم الناس الاسلام وطرائق الايمان ثم يتركهم بعد ان ينصب عليهم وزيره عبد الصمد .

طارت عاقصة بسيف الى مدينة قيمر وكانت في انتظاره طامة وأمها الحكيمة عاقلة . سيف مزود هذه المرة بعده سحرية كاملة قلنسوة وخاتم مطلسم استخدم القلنسوة في الاختفاء عن انظار اهل المدينة « قيمر » وملكهم « قمرون » للوصول الى كتاب النيل . يتمكن من ذلك اثناء تأدية الصلاة الوثنية لكتاب النيل تعرض عليه الحكيمة عاقلة الزواج ببنتها عاقصة هذه للمرة الثانية يرفض سيفا احتراما للوعد الذي قطعه للملكة شامة . تنتقم منه الحكيمة بوشايته الى الملك « قمرون »، يحاول اللحاق به فيفشل ، يتمكن سيف كما عودنا من الافلات من جنود الملك قمرون .

ما زال « سقرديون » يدبر المؤامرات ويستشير « سقرديوس » في حبك المزيد من المؤامرات للحيلولة دون اجتماع الشامتين ويخرج سقرديوس براي خطير لتحطيم كل طموحات سيف . يدخل الرواية

في طور اشد تعقيدا من الاطوار السابقة مزيدا من التعقيد والعنف يسهل له الحيل من جهة ومن جهة اخرى يخرجه من الورطة التي وقع بها هو وزميله في السحر والكهانة . يطلب سقرديوس من الملك « سيف ارعد » ان يتزوج هو شامة للحيلولة دون اجتماع الشامتين حتى لا يزول ملك الحبشة وتكون نهاية الديانة التي يدين بها ملوك الحبشة وكهنتها . تجد نصيحة الكاهن « سقرديوس » هوى في نفس الملك الطاغية « سيف ارعد » يغرق الملك افراح كما جرت عادة الملوك بالهدايا ويحمل له في نفس الوقت السوط يلوح بالمغريات حينا وحينا آخر بالسوط في خيار حاد بين الطرفين ولا ثالث بينهما ، ويحمل هذه المهمة مناطحا البغال حاجباه « دربال » و « ارتاح » .

يصل دربال الى الملك افراح ويعرض عليه قرار الملك « سيف ارعد » بالزواج من شامة ، يغضب لذلك سعدون ويدخل في طعان مع دربال ينتهي بمقتل حاجب الملك . يشتبك الطرفان بعد تحريض « سقرديوس » لرجال دربال والملك افراح واستغراقا في الخيال سعدون وفرسانه الثمانون يهزمون جيوش الملك افراح للحيلولـــة دون زواج شامـــة بالملك سيف ارعد وانتصارا لزعيمـــه الغائب « سيف بن ذي يزن » .

يدخل المعركة فرسان دربال يصيب التعب سعدون ورجاله يسقط منهم الكثيرون . وفي تلك اللحظة الحرجة تفك العقدة فيظهر فارس ملثم هو وحش الفلا لينصر سعدون في معركته يقاتل الاثنان جنبا الى جنب سيف مزودا بحسام بتار وخاتم مطلسم يطير الجماجم من على الاجساد . يخيف ذلك الملك افراح يوقف المعركة الخاسرة يترجل من فرسه يريد ان يقبل اقدام الملك « سيف » تسبق شهامة سيف الاحداث يترجل مـــن فرسه هو الآخر ويعانـــق الملك صهر المستقبل يعود جند الحاجب دربال يجرون اذيال الهزيمة الى الملك سيف ارعد . في تلك اللحظة يدخل رجل مستغيث من جور « قمرية » في المدينة التي استولت عليها . يرى الملك سيف ارعد بعد التشاور مع رجاله عدم الدخول في معارك متعددة تأديب قمرية من جهـــة والرد على تطاول الملك افراح وسعدون على فرسانه يقرر ايقاف جبهات القتال التي فتحت يحول المعركة بعيدا عنه . يرسل الامان والعفو الى سعدون والملك افراح ، ويطلب منهم التوجه لتأديب قمرية على تمردها عليه وقد وجد هذا الموقف قبولا لدى الجميع

وصدى عندهم كبير ، فقد ارتاح الملك أفراح من جهة تخلصه من غضب الملك سيف أرعد وفرح به سقرديوس لانه يتصور ان في تلك الحرب نهاية سيف بن ذي يزن وصديقه سعدون .

تلك اذن الخطة السياسية التي اعتمدها سيف ارعد للتخلص من مناهضيه السياسيين بحسب التجربة الشعبية السياسية ، فكيف فهمت الذهنية الشعبية حركة سيف لتحرير اليمن ؟؟

الصراع العسكري بين سيف وقمرية :

نواصل هنا رؤيا الذهنية الشعبية في الرواية الاسطورة للصراع التحرري الذي خاضه سيف ضد جبروت الملكة القمرية ومؤامراتها .

سارت جيوش الملك افراح الى اخر ارض اليمن، الى المدينة الحمراء التي اتخذتها قمرية عاصمة مملكتها فضربوا حصارا عليها وارسلوا لها رساله يطلبون فيها الاستسلام ودفع الخراج الى الملك سيف ارعد او فالحرب الوبال . تعيد الحاجب معززا مكرما وتبلغهم رفضها لمطالبهم ، ثم تلجأ للحيلة وتزور الملك سيف في خيمته ، تلجأ الى سلاح المرأة كما يخرج لنا ذلك الخيال الشعبي والذي يعجز على ان يتصور للمرأة قدرة اخرى الا جسدها وفوق ذلك ناسيا في خضم هيستيرية الاحاسيس الجنسية المكبوتة ان وضع قمرية في الرواية هي انها ام سيف . المنظر كما يصورها ذاك الخيال متلذذا عارية تضحك في غنج وتتأوه وتتحسس ذراعيها البضين وساقيها المرمريين على حد تعبير الرواية ، « وحش الفلا » في وضع نفسي متشنج . الاثنان على وشك اللقاء فوق درب الجنس امام بعضهما البعض الاسقاط النفسي الشعبي يزداد في هذا الموقف . يحل الخيال الشعبي العقدة في اللحظة الاخيرة حتى لا يقع هو وسيف وقمرية في المحظور وذلك بأن تتعرف قمرية على سيف بعقدا الجوهر اللذان وضعتهما معه وقت رميه في البر الاقفر وهو رضيع . تحكي له قمرية قصته ، ارسلت في طلب حجاب أبيه الذين يعرفونه كما يعرفون أباه وتتظاهر هي بالفرح لذاك اللقاء . تعد عدتها للدخول في مؤامرة جديدة ضد الملك سيف ، لنرى ماذا ينتجه لنا الخيال الشعبي من أفكار تعبر عن واقع حيلته ؟؟ الوزير يثرب يائسا من

اصلاح الامور يعتزل السياسة ويهاجر الى مدينة يثرب يسير حجاب الملك ذي يزن الاربعة الى مخيم سيف بن ذي يزن ، يعرفون الملك بملامح الشهامة التبعية .

تتخلص قمرية بالقتل حتى لا يفضحوا القضية وتعود مسرعة الى الملك سيف وقد دبرت في نفسها امرا ما لتبلغه انها رأت اباه قادما عليها في المنام وقال لي « يا قمرية اعلمي اني تولاني التراب وهذا ولدي الملك سيف هو ولدك وحشاشة كبدك فسلميه القلعة والمدينة وجميع اموالي وكل ما اخذن بعدوتي من الاموال والذخائر فاعلميه به وسلميه اليه ». فقلت له : « يا ملك الزمان هو غلام جاهل واظن انه ما عنده لياقة ولا يقوم بالملكة » . قال : « يا قمرية هذا يملك البلاد شرقا وغرباوتخضع له الملوك بعدا وقربا وتطيعه جميع ملوك الاقطار عجما وعربـا وينصر العربـان على الحـبش والسودان وتنفذ دعوة نبي الله نوح عليه السلام » .

وتبدي له حسن نية مفتعلة في رغبتها بتسليم الملك واموله اليه . يصدقها سيف وقبل استلام مدينتها حقنا للدماء وهو يتصور او بتعبير ادق والذهنية الاسطورية السائدة في ذاك الوقت تتصور من خلاله ان الله يفعل ما يشاء وانه سبحانه وتعالى قد غير حال قمرية من حال الى حال فاذا بالمرأة الشريرة بالامس خيرة اليوم فتلك ارادته وهو على كل شيء قدير .

بعد ان تخلصت قمرية من حجابها الاربعة بالسم المدسوس في الشراب وبعد ان رمتهم هي وجاريتها في الجب تغرس خنجرها في قلب الجارية لتنهي بصمات جريمتها والى الابد في تفكير سياسي خبيث وحتى تتفرغ للملك سيف وتتخلص منه دون مقاومة بعد ان تخلصت من خدام ابيه ومعارضيها جميعا في داخل القصر ، يجتاحها شعور بأنها استطاعت ان تخدع سيف وتأخـذه بعواطف البنوة والامومة . ينجر سيف وراءها بسذاجة للبحث عن كنوز ابيه فيخرج معها الى الصحراء تتوغل به في عمقها ، وهناك تنفذ فيه جريمتها . اسلوب القتل هذه المـرة يختلف عن المرات السابقة ويتنـاسب ومقدماته . يلخص الخيال الشعبي تجربته في المؤامرات وأساليب ارتكاب الجريمة . تضرب سيف في القفر بسيفها ، ولا تتركه الا بعد ان احست انها قد قضت عليه نهائيا . ووقفت متشفية ترقبه وهو غارق في لجة من الدم .

تتدخل المعجزة كما عودنا الفكر الاسطوري حـــين يقف في مواقف حرجة ولا يرى طريقة للخروج منها غير حدوث المعجزة وكما عودنا ففي الساعات الحرجة لابطاله يسارع بانقاذهم حتى يبقى الامل في نفوس اتباعه . فالنبي ابراهيم ينجو من الاحراق والموت بواسطة جبريل في اللحظة الاخيرة وحتى عيسى المسيح والذي كان لا بد من ان يموت على الصليب يرتفع الى السماء كما تقول الاسطورة الاسلامية . أما المسيحية فقد أماتته ثم أحيته ورفعته الى السماء بعد ثلاثة ايام . وسيف باعتباره مظهر لدين ابراهيم تحدث لــه المعجزة في هذا الموقف الدقيق وهو شبه ميت بواسطة طائرين حطا على غصن الشجرة التي يرقد تحتها . الطائران يتحادثان هــكذا ارادت المعجزة أن تنطق الطيور الاحتمال الاخر هذا ان سيف كان يعرف لغة الطيور ففهم كلامها والمعجزة الاكبر كما تخبرنا الاسطورة أن الطائران هما الشيخ عبد السلام والشيخ جياد فقد تحولا الى طائرين وحتى يقومان بمهمتهما على اكمل وجه كما اقتضت الظروف التي زج بها سيف وهي ارتماؤه في الصحراء البعيدة في وضع عسير جداً يتطلب ان يكون المنقذ بحسب الموقف . الشيخـــان في صورة طائرين يدلانه على الدواء ولتسهيل الحصول عليه وهو في وضعه ذاك فقد جعله في الشجرة التي كان يرقد تحتها وهو يعاني سكرات الموت . وبقيا يتحادثان ليسمعاه ان عليه ان يمضغ ورق الشجرة بأسنانه ثم يضع المضغة على جراحه . الرواية الاسطـــورة تضع لنا مفاجآت في كل انثناءة فيها قمة الفكر الاسطوري يتجسد في موقف عجيب على غرار اسطورة المسيح اماته واحياه الطائران ، كما سبق وذكرنا انهما الشيخان ، والادهى من ذلك انهما كانا قد ماتا ولان الله على كل شيء قدير ، تم احياؤهما من جديد ليأتيا خصيصا الى سيف ويعالجا جراحه بنصائحهما التي راح ينفذها وهو نائم على الارض الصحراوية ، تهب رياح قوية وتهز الشجرة فتتساقط الاوراق التي راح سيف يجمعها ويمضغها ويضعها على جراحه المتقيحة ، والنتيجة معروفة فما دام تسخير القوى الطبيعية والخارقة للطبيعة قد تم في المقدمات فشفاء سيف حالة متوقعة . ينهض وحش الفلا بعد ان داوى جراحه بنفسه وسار يضرب في الارض على غير هدى ستين يوما وبينما هو في تيهه اذ به يرى جبلين عاليين احدهما ابيض والثاني اسمر وبين الجبلين بحر متلاطم الامواج ، ويواصل السارد الشعبي وصف

مكان عجيب في الطبيعة ويظهر له من الخلف جبل احمر وفي قمته بيت سار اليه وحيا سكانه فردوا عليه تحيته بالمثل ، ولا يغيب عن بالنا ان الفكر الاسطوري العامي يعتقد ان على الارض يتعايش الانس والجن ، وحين سلم وردت تحيته ، كانت مصحوبة بذكر اسمه وقد استغرب لذلك كثيرا فصاحب الصوت لم يكن قد رأى وجهه وبينما سيف في دهشته فتح الباب وخرج منه شخص طويل القامة على وجهه آثار العبادة هذا الشخص كان ينتظر سيف في المكان منذ عشرين عاما وقد سبقه في الانتظار أبوه وجده جميعهم كانوا ينتظرون قـدوم سيف ليقدموا مساعدتهم اليـه ، فماذا قدم ذلك الشخص لسيف ؟

وجد البيت معدا لاستقباله . وفيما كان جالسا يأكل الطعام راح الشيخ يحدثه عن الكنز . الخيال الشعبي أراد ان يكون هذا الكنز من عهد سام ابن نوح ، ربما كان في ذلك رمـزا الى طلب المحافظة على نقاء الجنس السامي فالكنز هنا رمز الجنس . وهناك احتمال آخر ألا يكون المقصود سوى الكنز فقط ، وفي ذلك تعبير عن رغبة النفسية الشعبية في الامتلاك للمال في ظروف كانت فيها أقرب للفقر منها لاي شيء آخر ، فوضعها المعيشي كان متدنيا سواء حين قدمت كقبائل من الصحراء مع الفتوحات الاسلامية لمصر تبحث عن الماء والكلا والحياة الافضل معيشيا واقتصاديا ، ام في أيام المماليك الذين أجاعوها ولم يهتموا الا ببذخهم وملذاتهم .

يتعرف الملك سيف على الحكيم ويعرفنا عليه اسمه « اخميم الطالب » يقود الحكيم الملك سيف للتعرف على الكنز صعد سيف درجات وحلقات لم يكن يراها أحد سواه ، رأى نقشا في عمود وقف عليه ليرى جبلا أمامه وتحته بحر متلاطم توكل على الله وقفز كما طلب منه الحكيم فوق قدمين منقوشين في عمود آخر ، وأمامه القصر العجيب . وصف له ما سوف يجده في داخل القصر ، فسوف يجد لوح في عنق جثمان الملك المسجى مطلوب من سيف أخذه وايصاله الى الحكيم الذي أمره بالعودة ثانية الى القصر لاخذ السيف وعندما حاول تجريد السيف من غمده امتلأالمكان بصرخات كالرعـد من الصدى الذي وقع من السيف وقد كشف له هذا الصدى عن ذهب خالص وسمع صوتا يحذره الا يجرد الحسام مرة أخرى ، وان يترك المكان فورا قبل أن يصيبه مكروه . رأى سيف سرير فاقترب منه

ورفع اللثام عن وجه الملك فصرخ الجثمان في وجهـــه منزعجا من جرائه ، ولولا تقلده السيف لمات من الخوف والفزع ولتطاوله يتخلى عنه الحكيم

وقد حاول الخروج ولكن دون جدوى فوقع في الماء وابتلعه نفق مظلم قاتم وبقي تيار الماء يسوقه معه في ظلمة كاملة افقدته الاحساس بالزمن . وبقي يصارع الماء الى ان فقد وعيه واوشك على الموت ولاح له فرع شجرة فتعلق به وبقي يحمل النصف الميت من جسده ، ويزحف على الشجرة .

الصورة المؤلمة لسيف ما زالت مستمرة وهو يصارع الموت يأتي الفرج هذه المرة بصورة طبيعية فقد تمكن سيف من الوصول الى غصن الشجرة ينجو سيف بعسد صراع رهيب من الموت ، ويسير وحيدا في الوادي ، وعلى البعد تلوح له مدينة بيضاء فيسير اليها ، وما يكاد يقترب من الباب المغلق حتى يسمع صوتا يقول : « افتحوا البلد واطلعوا اليه ولا تعودوا الا به فانه غريمنا وجاءت به المياه الى أرضنا فلا بد ان نسقيه كأس الفنا » .

حينما اختفى سيف خلف اغصان شجرة يرقبهم وهم يفتشون عنه ، يمزق الجوع احشاءه ، وقد ساقه ذلك الى تسليم نفسه الى قائد المجموعة الذي تكرم عليه بطعام ابتلعه في نهم ثم بدأ يقص قصة ملفقة حين طلب منه التعريف بنفسه . يبدو من الصوت انه صوت انثى لا ذكر لابسة ثياب فرسان ، الذهنية الشعبية ترفض ان يكون القائد انثى لذا فقد رأت ان تلبسها ثياب الفرسان ، تسرع الفتاة الى ابيها لتبلغه العثور على سيف . ومن حسن حظ المستمع وحظ سيف ان ملك المدينة هو الحكيم « اخيم الطالب » يرحب به بحرارة وينزله في قصره . يتجاذب الرجلان اطراف الحديث ويعاتبا بعضا كل واحد منهما يلقى اللوم على الآخر ، يبدو ان الحق على سيف فهو الذي كشف عن وجه الجثمان المسجى على السرير يعرفه الحكيم ان الجثمان هو جثمان سام بن نوح . يخبر الحكيم سيف بأن لوحه السحري محفوظ عنده ، يدلكه الحكيم يظهر منه مارد ضخم يصرخ كالرعد .

— لبيك يا حكيم الزمان ويعرفه بنفسه اسمه « عيروض » بن الملك الاحمر وهو خادم اللوح من عهد « سام بن نوح » يطلب

منه الحكيم ان يخبره عن زيجات الملك سيف التي تمت ان كان هناك ما تم او المقبلة منها . يعدد له الزواج بالملكة شامة بنت الملك افراح.

« ناهد » ـــ الصين .

و « طامة » الحكيمة .

الملكة جيرة بنت الحكيم اخميم الطالب

وكذا « منية النفوس » .

القائد الفارس يخلع ثياب الفروسية فاذا به غادة جميلة حين تسمع كلام عيروض تتملكها الغيرة والغضب وتعتزم على التخلص من سيف بقتله . تأمر خادمها العملاق الاسود القيام بهذا العمل . يوكل الحكيم واحد من أعوانه الجان بحراسة سيف ، فيمنع العملاق الاسود من تنفيذ رغبة الملكة جيزة بقتله ، وترسل الملكة عبدا آخر يستقصي أخبار صاحبه حتى يلقــى نفس المصير . يخبر الجني الحكيم « أخميم » بتلك الاخبار فيعرف انها من صنع ابنته وحــين استفسرها عن الدافـــع لذلك العمل يتضـــح ان وراءها المشاعر النسوية وهي الرغبة في الاستفراد بسيف والغيرة عليه هما الدافعان لفعلتها . ورفضها أن تكون بالنسبة له جارية من الجواري . تحاول الذهنية الشعبية في هذا الموقف ، ان تبرز نفسية المرأة تجاه الزواج المتعدد وحساسيتها المرهفة منه ، الا انه يرفض ان يعيرهــا اي اهتمام فالرجل يجب ان يأخذ حقه من الاستمتاع بالمرأة في حياتـــه كلها ما دام وضعـــه الطبيعي البايولوجي والسيكولوجي يسمـــح بالحصول على تلك المتعة من أكثر من واحدة فليكن . فعلى ماذا تعترض اذن الملكة « جيزة » لتذهب برغباتها الانثوية الى جهنم .

يأخذ منها سيف اللوح وهي نائمة وحين تستفيق لا تجد اللوح المطلسم في عنقها فتدرك ان سيف هو الذي اخذه تسرع اليه لتقتله هذه المرة بيدها فلا تجده فقد طار سيف على ظهر خـــادم اللوح عيروض الى أرض اليمن الى المدينة الحمراء حيث ترك حاجبــه سعـــدون .

يصل المدينة تستقبله المشاكل من جديد ، الخيال الشعبي ما زال يتحفنا ، الراوي ما زال يعطي الجديد عن المشاكل والعقد التي جابهها سيف وراح يفككها الواحدة تلو الاخرى . الفارس سعدون الزنجي نزيل سجن الملك سيف ارعد ، ويبدو ان قمرية قد واصلت مؤامراتها بعد غياب سيف فقد سلطت عليه حاجب الملك سيف ارعد

« ابا الهول » والذي ذهب للتباحث مع سعدون حول الهجوم على المدينة . راح يرسم معه الخطط كما أوهمه وهم يحتسون الخمر . وراح سعدون يشربها بشره ، فقد كان لا يعرف ما وراء الاكمة ومـــا يدبر له حتى ثمل فانقض عليـــه جند ابي الهول وقيـــدوه بالاغلال وساقوه اسيرا وقد حاول جنده فك اسره فلم يتمكنوا وبقوا يقاتلون من اجله اياما طويلة دون جدوى . ثم انتهجوا نهج حرب العصابات وظلوا يغيرون على المدينة ويتحينون الفرصة للانتقام من قمرية . ليس من حل مع سيف بعد ان عرف ان صديقه سعدون سجين عند الملك سيف ارعد في مدينة الدور ، غير اللجوء الى السحر في صورة اللوح المطلسم يطلب منعيروض حمله الى مدينة الدور . يسمع هناك اصوات طبول وافراح يستقصي عيروض الخبر فيبلغه بحقيقة الامر الرهيب عرس شامة على الملك « سيف ارعد » بالهول المفاجأة والخبر لكن بصيص الامل دائما معلقا كما عودنا الخيال الشعبي في طريق سيف وحياته ، وعلى كل فما زال في يده « عيروض » . ينقله عيروض الى خيمة العروس التي كانت تبكي حظها ، يفاجئها سيف والذي يرتاح من بكاها كيف لا فهي تدلل عن حبها له ، تكفكف دموعها ، تحكي له القصة من البدايـــة وهو يحكي لها بدوره مـــا اعترضته من مشاكل .

يدخل عليهم الملك افراح الذي جاء ليصطحب ابنته الى الزفاف يفاجأ بوجود سيف يقف مذهولا كمن يرى شبح احد الاموات . يرفع سيف حسامه يريد الاجهاز عليه يتمكن من الافلات او هكذا يريـــد الخيال الشعبي فالملك افراح ما زال تحت كل الظروف والدشامة ووالده الذي تبناه في صغره . يسرع الملك افراح الـــى الملك سيف ارعد ليخبره بالخبر الصاعقة يسرع الجميع . المعجزة هذه المرة في مستوى الظروف الحرجة والدقيقة ، الدنيا نعم الدنيا تظلم حتى يختطف سيف حبيبته شامة ويطيرا على ظهر عيروض الى قمة الجبل حيث نصبا خيمة وجلسا داخلها . يقصداه حكيمـــا السوء « سقرديوس » و « سقرديون » ويطلبان منه ارجاع الملكة شامة باعتبارها زوجة الملك سيف ارعد فلينازل جند الملك يتقدم اليه الفرسان الواحد تلو الآخر وهو يصرعهم . خاف « ارعد » مـــن الهزيمة واقترح عليه وزيره « بحر قفقان الريف » ان ينزل لمبارزة سعدون الزنجي ورحب الملك ارعد بتلك الفكرة وفرح بها سعدون

الا انه كتم الفرحة حتى لا ينكشف أمره .

يسير سعدون في مسرحيته فينازل سيف في مبارزة حامية ، وحين نال التعب من سعدون مناله كشف اللثام عن وجهه ، وقفز الى جوار سيف واحس ارعد بأن سعدون قد غدر فأمر جنده بالهجوم على الفارسين . بقيا يقاتلان قتالا مستميتا ، وحين بدأ التعب يدب في جسميهما تدخل عيروض خادم اللوح المطلسم فاغبرت السماء واسودت وأبرقت ، ومثل هذه الصور تعودنا ان نراها في نضال المسلمين ضد القرشيين الم يكن الرسول يـذر التراب في وجوه المشركين . الصورة نفسها في السيرة الشعبية وهي تحكي قصة كفاح سيف ضد الشرك فهكذا فهمت الذهنية الشعبية انتصاراته في معاركه وحروبه ضد الاحباش .

طار سيفه وصديقه سعدون على ظهر عيروض الى شـامـة وحملاها معهما ، وقررا الوصول الى قمرية للانتقام منها ، واستعان سيف وسعدون برجال سعدون المرابطين منذ زمن على ابواب المدينة الحمراء واخذوا حراسها على حين غرة ودارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس وحين جاء احد الرجال يبلغها حقيقة الامر لجأت كما عودتنا الى الخديعة والمكر فماذا عملت الملكة قمرية ؟؟

تدخلنا السيرة في موقف درامي عجيب صورة الملكة وقد حلقت رأسها ووضعت القيود في يديها ، وخرجت من قصرها حافية تبكي وتأمر رجالها بالكف من قتال سيف ابنها وتسير اليه وهـي في تلك الوضعية الذليلة تطلب منه أن يضرب رقبتها وهي تبكي وتنتحـب كان منظرها يثير الذهول وهي تطلب منه ان يقتلها بالحاح . رق قلب سيف واعتبر ما حصل قدرا لا مفر منه وفك وثاقها ودخلوا جميعا المدينة واقيمت الافراح استعدادا لاتمام الفرحة بالزواج بينه وبين شامة .

اراد سيف أن ينتهي من دوامة المشاكل التي عاش فيها واراد ان ينتقم من المتآمرين عليه مبتدئا بالملك افراح الذي تدخلت ابنتـه لانقاذه من تحت سيف الجلاد . كان قلب قمرية يقطر حقدا خاصة بعد أن رأت اللوح المطلسم الا انها كانت تملك القدرة على اخفـاء مشاعرها والضغط على اعصابها لاتمام مخططها التآمري فاغدقت على الجميع الهبات والعطايا حتى يطمئنوا اليها أكثر ، وترقرقـت عواطف سيف نحو امه وهو يراها فرحـة بزواجه تكرم الارامـل

والايتام فتطعمهم وتوزع عليهــم الاموال وحين حــان وقت دخول الزوجين الى مخدعهما طلبت منه احتيالا ان يسلمها اللوح حتى لا يحضر الليلة المشهودة شخص ثالث وهو خادم اللوح عيروض وقد طاوعها في ارائها فهذه ليلة مقدسة لها طقوسها التي لا يحضرهــا سوى الاثنان . يثق فيها سيف فيعطيها اللوح لتحفظه عندها . فهل كانت قمرية امينة على ذلك ؟ هذا ما سوف نراه .

مؤامرة جديدة لقمرية :

بقيت قمرية تراقب مخدع سيف حتى انطفأ النور في الغرفــة ووقفت فيه الحركة وهنا دلكت اللوح فحضر عيروض وطلبت منه ان يرمي سيف وشامة في اقصى مكان يعرفه بعيداً عن بعض . فحمل سيف الى اراضي الغيلات ورمى شامة في وادي الطودان وعاد يخبر قمرية سيدته الجديدة بما فعل فارتاح بالها بعد ان نالت منهـــا مرادهـــا .

ماذا حل بسيف وشامة بعد ان فرقت بينهما قمرية ؟ ؟ تواصل الرواية الشعبية سرد سلسلة المغامرات الاسطورية . المشهد هنا شامة في الوادي بين الغيلان كعقلة الاصبع قزم بين عمالقة ، الخيال الشعبي بين الفينة والفينة يتحفنا برؤية المخلوقات العجيبة الطويلة من غير المستبعد ان يكون ظله وقت القيلولة هو الذي اوحى له بتلك الصورة او تضخيم الظلام للرؤيا كذلك كان المبدع في التصور . المهم ان شامة بقيت بينهم كمخلوق مسخ كان لا بد من الحكم عليه بالموت وفي اللحظات الحرجة لها تتدخل بنت الملك لتطلب من ابيها ان يتركها حتى تساعدها في خدمة الاله الذي مسخها ليعيدها الــى الخلقة السوية . تقودها معها الى المعبد الاله هــو خروف كبير سمين . الذهنية الشعبية لا تريد ان تعترف او تصدق ان الخروف كان من العبادات القديمة للانسان وصل الى مسامعها انه عبد الا ان رفضها ان يكون الانسان هــو الذي عبده جعلهــا تلبس تلــك العبادات بالمخلوقات العجيبة الوهمية . تبقى شامة في خدمة الاله الخروف . اما سيف والذي تركناه كما تركه عيروض في الوادي فقد بقي فوق شجرة الا ان مخلوقا عجيبا كان قد كشفه واستنفر اهــل الوادي الذين راموا قتله ، ولم ينقذه الا عجوز كانت تتكلم العربية ، وقــد نادته باسمه عرفمنها انها كبيرة الغيلان فطمأنته لينزل عن الشجرة.

الظريف في هذه الغولة انها تتحـدث العربية هكـذا اراد الخيال الشـعبي حتى يمكن سيف بن ذي يزن من التفاهم معها فيعرف انها تعرف قصته حين قدمت له الطعام وجلست ترويها له ، وتستمر في حديثها لتطلعه على قصة أولئك الغيلان ولماذا اصبحوا كذلـك ، الفكر الشـعبي اراد ان يبرر موضوع اخترعه بنفسه وهو الغيلان ولماذا هم على تلك الصورة . يعرف من كلامها انهم مسخوا نتيجة غدرهم بملكهم العادل الرحيم ، يبدو ان الـراوي الشعبي يريد ان يحذر من عصيان الحكام خاصة الطيبين منهم ويدعو الشعوب عن طريق المستمع ان تحافظ على هذا النوع من الحكام قبل ان تمسخ كما حصل مع الغيلان ، تبلغه هي ان هلاكهم سيكون كما اخبرها الرمل على يد الملك سيف بن ذي يزن التبعي اليمني ، وقد انقذته منهم حتى يؤدي رسالته بعد أن يتزود بادوات هلاكهم ، والتي توجد في حفرة داخل حجرة في نهاية المغارة وتدله على طريقة اخراج تلك الادوات من المغارة والاداة هنا هو ديك مصنوع بالحكمة سيستعمله وقت الحاجة . الموقف الغيلان تحيط به ينزع من الديك ريشا ويرمهم بها تحمل الريش على رؤوسها نيران تحرق الغيلان ويظل سيف ينزع من الديك ريشه حتى تحترق جميع الغيلان ويموت الديك بعد انتهاء مهمته . الاداة السحـرية هنا مؤقتة الفعـالية يخترعها الـذهن الاسطوري الشعبي للانتهاء من الصورة التي ابتدعها وخلقها لتؤدي دورها في حكمة حياتية « وهي عصيان اولى الامر الطيبين .

في معبد الاله الخروف تضع شامة طفلا تسميه « دمر » تغفو ذات ليلة فيحترق المعبد بنار الشمع يحكم عليها اهل المدينة بالموت صلبا فقد ادى اهمالها الى حرق وتدمير الههم ومعبده . النفسية الشعبية التي لا تقبل الاشراك تنهيه على يد امراة بطريقة الاهمال فهي لا تستطيع بطبيعة الحال ان تستخدم القوة ضد وضعية كتلك غير مقتنعة بها . كانت تؤدي خدمتها على مضض حتى تدخل القدر بالاحراق او بتعبير ادق ادخله الفكر الاسطوري الشعبي للانتهاء من الوضعية المشينة لعبادة الحيوانات وبينما هـي في ذاك الوضـع الميؤس تواجه الموت وحدها اذ بسيف بعد ان انتهى من مهمته يقبل عليها في صحبة العجوز تدور بينهما وبين الطودان معـركة قاسية غير متكافئة تنتهي بتقيدهما ووضعهما في السجن لصلبهما في اليوم التالـي .

الصورة وهم في السجن لم يناموا طوال الليل فقد راحـت

العجوز تفك قيود سيف بأسنانها ويفك سيف بدوره قيودها وزوجته . يردموا باب المعبد ويتسلقوا سوره ويظلوا من هناك يرمون الطودان بالحجارة ثم حين حوصروا ذبح سيف الخروف تحت سمع الطودان وملكهم مما زاد في هياج الطودان لان الههم يذبح أمام انظارهم تلك اذن حصلت الطامة الكبرى فلا بد من الوصول الى سيف وقتله مهما كان الثمن ومضوا يرفعون الباب الحاجز ليصلوا اليه ، واشتبك الفريقان في عراك ايقن فيه سيف بهلاكه ومن معه واذا بسيف وزوجته وولده دمر يرتفعون من ساحة القتال ، اما العجوز فلا حاجة لنا بها بعد ذلك لذا تمزقها رماح الطودان اربا اربا . يتضح لسيف ان الذي رفعه من وسط المعركة اليائسة هي اخته الجنية عاقصة . وقد انزلته على ارض الملك ابي تاج وهو احد الملوك التابعين للملك « سيف ارعد » وبلاده تفتح ضمن حدود ارضه وطلب منها قبل الذهاب احضار خيل وسلاح وطعام وقد نفذت طلباته ثم تركته واختفت وبقي سيف وزوجته وابنه في المغارة فترة من الزمن .

سار سيف وزوجته وابنه مع الملك أبي تاج الى مدينته لتكريمه بعد أن انقذ حياته من اسد مفترس اعترض طريقه هو وجماعة من فرسانه في الغابة . وتجاذبا اطراف الحديث فعرف منه انه سليل حسب ونسب وقد بقي في ضيافته ايام حتى بدأ الملك ابي تاج يقتنص حركات شامة في وله وأعجاب . والسيرة الشعبية تجعل من هذا الملك دون جوان النساء فقد كان مغرما كما جرت العادة عبر الازمان التاريخية الطويلة عند الملوك يجمع أعداد كبيرة من النساء في قصره بين جوار وسرائر . وقد زينت له احدى جواريه التقرب الى شامة لاخذها ، الرواية تريد ان تعبر عن مشاعر العربي في الغيرة على ما ملكت يده من النساء على خلاف بعض الشعوب والمقصود في الرواية الشعب الحبشي فهو على استعداد لاراقة الدم للحيلولة دون حدوث مثل ذاك الحدث والحاق العار به . يدخل الملك ابو تاج والجارية على شامة دون استئذان ، تثور ثائرتها فقد أصبحت زوجة رجل عربي هذا عدا الحسب الذي كانا يحملانه لبعض وتحاول أن تصفع الملك وهو يراودها عن نفسها .

الصورة الان دخول سيف ومفاجأته الملك ، وكان قد أتى ، بعد ان مل انتظار الملك في مجلسه . يتألم لاعتداء الملك على كبريائه وهو يعرض عليه التخلي عن شامة نظير ما يرغب فيه من النساء . يخرج سيف سيفه من غمده ويلوح به في وجه الملك الذي راح يعرفه

بتلك العادة المتبعة في بلده وهـي شراء اي امراة مـن زوجها ان اعجبته . ينتاب النفسية الشعبية في الرواية نوع من التقزز على لسان سيف من مثل تلك الاعراف اللاانسانية . المهم ان الملك ابو تاج يسجنهم في القصر ولا يتمكنا من الخروج منه الا بعـد أن تمكن سيف من الاطباق على الحارس . وحين بلغ الملك ابو تاج بهروب سيف تبعه على رأس فرقة حاصرته وظلت تدور بينها وبينه معركة شديدة . وكان في وضع استراتيجي افضل منها فراح يدافع عـن نفسه وزوجته وابنه دفاع الابطال حتى رأى الملك ابا تاج طريقته في القتال وراح يهاجم وينقض بعد ان كان مدافعا على الملك ويغمد رأس سيفه في عنقه ويهدد يقتله ان حصل اي اقتراب من الجنود ، ويتساوم الاثنان ثم اتفقا على التصافي ونسيان الماضي وبينما هم على مائدة الطعام يأكلون ويتشاورون اذ بيد تختطفه هذه المرة من بين الجموع لتصنع له الشقاء . كانت تلك اليد هي يد عيروض وقد ارسلته قمرية ليرمي به في وادي السحرة .

استسلم سيف للاقدار فقد تعب من المقاومة والنضال وشاهد فوق الجبل نيران عظيمة ودخان كثيف ثم رأى شيخا طويل القامة يسجد للنار وقد كتف يد وفم ولسان سيف بسحره ، ويذهب ويعود باربعين رجلا يخرون سجدا للنار ، عبادة النار هنا مربوطة بالسحر يفك الشيخ قيد سيف ويركبه حصانا ويركب الاخر ويسرعا بالنزول من الجبل وسط دهشة سيف الذي عـرف فيما بعد القصة الغـريبة والمواقف المتناقضة من ذاك الشيخ والذي تورد لنا الرواية اسمه « برنوخ » فماذا حكى برنوخ هذا لسيف ؟

بعد ان ترك برنوخ سيفا مقيدا ذهب لينام فرأى في منامـه شيخا اخر مهيب الطلعة يحمل في يده سيفا يطلب منه أن يفك وثاق سيف ، ويسلم على يده ليفوز بنعيم الدنيا ونعيم الاخرة وقد لحقتهما مجموعتان من الجند والسحرة تصدى كل منهما للمجموعة التي تعنيه فذهب سيف يقاتل الجنـد وراح برنوخ ينازل بسحره السحـرة . المعركة غير متكافئة . لا بد اذن مـن قوى خارقة للطبيعة . اختـه عاقصة تصل في الوقت المناسب تختطفهما من فوق الجوادين وتطير بهما يأمرها سيف ان توصله الى زوجته وابنه .

في تلك الاثناء كان الملك ابو تاج وشامة يتراشقون بالكلمات يعرف منها ان معبودهم الواحد هو الذي يحميها ويحـمي سيف ،

يعجب الملك لذلك فيطلب منها ان تعلمه العبادة . فرحت شامة بذلك كثيرا وطلبت منه ان يتوضـــأ واتجها الى المغـــارة ليقرأ في صحف ابراهيم . وحين عرف وزيره بذلك راح يحرض عليه جنده وقـــد احس الملك ابو تاج بدقة الموقف فطلب من شامة ان تدعو الله لاجلاء ذاك الكابوس عنهم ، واذا بشواظ من لهب ترتمي عليهم كانت من سهام سيف والعملاق برنوخ ، وحين عرف سيف بقصة الملك ابو تاج وما عمله وزيره معه ارسل في طلب الوزير وخيره بين ان يؤمن او يشقه بسيفه ، وقد نفذ وعيده حين رفض الوزير ، وبعد مقتل الوزير انتهى تمرد الجنود واعلنوا اسلامهم جميعا ، كما آمن اهل المدينة .

يحكم ابو تاج بالعدل والايمان مدينة مؤمنة ينوي سيف مغادرة المدينة فيكرمه الملك ابو تـــاج ويرسل في السفينة جندا ليحموه ، ويتركهم برنوخ ليصل الى قمرية ولينتقم منها . وقد دفن السحر على باب المدينة وجلس ينتظر النتائج . وكان السحر يهـــدف الى شل حركتها ، وقد مرضت كثيرا ، وحين طلبت عيروض اخبرها بحقيقة ما بها ، واعلمها ان ولدها قادم اليها مع الملك أبي تاج لتدمير مدينتها ولعرشه ان ينتطف لها الملك سيف . وقد وصل اليه عيروض واخبره انه يريد ان يختطفه ، كان أموت الملكة قمرية الا انه لم يتمكن مـــن تنفيذ طلبها الاخر في الساحر برنوخ وقـــد ارسلت في طلب الحكيم سقرديون وتمكن برنوخ من التنكـــر وظهر لهـــا في شكل سقرديون وراحت تشكو اليه ما تحس به واخذها معه الى الجبل ليبطل السحر وقد فعل ذلك حتى يكسب ثقتها وينقض عليها في اللحظة المناسبة .

بقي سيف في الجزيرة وحيدا حتى قابله عملاقا طلب منه الامان ثم راح يحدثه عن امر ذاك النهر العجيب الذي تتغير الوانه ابيض احمر اصفر حتى العشرة الوان ، ومن هذه الالوان يخرج السرطان ، ويبدو انه كائن مائي وفيه مسحوق يمزج بماء الورد ثم يوضع على العين المريضة العمياء فتشفى . ربما اراد الخيال الشعبي ان يوصف وصفه دواء شعبي لعمى العين ، وهذا يحملنا على الاستنتاج ان امراض العيون قد انتشرت في تلك الفترة ، وعلى كل فلا ننسى مرض « الترخوما » المنتشر في مصر وخاصة ريفها المتخلف كثيرا . التقى سيف في الجزيرة بصيادين يصطادون سرطان البحر وقـــد اعتقدوا انه تاجر فخافوا منافسته واضطروا الى اعطائه قاربا للخروج من الجزيرة . هذه المرة الخيال الشعبى يدخل سيف في مغامرة وسط

البحر وذهب يصف كل ما تعترض الانسان من مخاطر فيه . فسيف يخبط في الماء ايام وليالي والقارب تتجاذفه الامواج واسماك القرش الكبيرة تحاول ابتلاعه . المهم ان موجة عاتية تقذف به الى شاطيء مدينة يقع بصره حين يفيق على رؤوس بشرية معلقة . يسال عن سر قطعها وتعليقها فيأتيه الجواب ، انها رؤوس حكماء المدينة الذين عجزوا عن علاج هند بنت ملك المدينة . وقد جاء الجزاء قدر الخيار فمن يشفها يتزوجها ، ومن عجز يقطع راسه . هكـذا تعامل تلك المدينة حكماءها فاما الاجتهاد والنجاح في المهمة واما الموت الزؤام .

لا شك ان القاريء ما زال يتذكر قصة الاربعين فتاة الـذين سجنهم المارد الكافر « المختطف » والذين انقذهم الملك سيف بعد ان قتله واطلق سراحهم . وارادت هي ان تتزوجه فرفض ذلك قبل الزواج من شامة . ما زال القاريء يذكر انها موعودة له . اذن فقد رتب الخيال الشعبي احاديثه الطويلة واحدث تلك الاحـاديث . يبلغهم سيف ان في استطاعته معالجة الملكة ، يحذر كثيرا من المصير الاسود الا انه يصر على معالجتها يسمح له بذلك فيخرج السرطان بماء الورد ويبدأ في تكحيل عينا الملكة وهي تصرخ من الحرقة ويجن جنون الاب ويصدر حكمه بسوق الملك سيف الـى المشنقة . تبدأ الملكة تئن وتتحرك فقد بدأ النور يعود الـى عينيها بعـد ان سال السائل الاصفر منهما .

تتهيأ المدينة لزفاف ناهد الى سيف وفي ليلة زواجه يصلـه عيروض بأمر من برنوخ ليحمله الى مدينة حمراء اليمن ومعه ناهد ليجلس على عرش ابيه . الجميع يقدم له عهود الطاعة والولاء . ويناشده اصدقاؤه ان يقتل الملكة قمرية . ما زال الخيال الشعبي يحرك عواطف البنوة ويطالب بالبر بالوالدين وعلى وجه الخصوص الام . لذا فقد جاء رد سيف عليهم جميعـا بالرفض الا انـه امر بسجنهـا .

استقر سيف على العرش وبـدات اخباره تسمع في انحـاء الجزيرة وافريقيا الشرقية ، واتاه اصدقاؤه من كل حدب وصوب مهنئين مباركين . بدأت الاحداث في الرواية منـذ ان استلم سيف العرش تتجه اتجاها جديدا ، اصبحت في يد سيف زمام المبادرة فقد سجن الملكة قمرية ولحق بها الحكيمان سقرديون وسقرديوس بعد ان وصلا من الحبشـة ليدبرا مؤامرتهما مع الملكة قمرية لحيلولة دون وصول السلطة لسيف ، وقد فوجأ بالوضعية الجديدة حين قدمـا

وهما لا يعرفان شيئا وحين حاولا التملص وقعا في فخ الملك .

جلس الثلاثة في السجن يدبرون المؤامرات من جديد وقمرية معتمدة في خططها على طيبة سيف وصفاء سريرته . المطلوب هنا ان تتمارض قمرية ليعطف عليها سيف ويخرجها من السجن تأكل من اعشاب سقرديوس يتغير لونها حتى يغدو في لون وجوه الموتى ، يتصايح الجميع يحضر الحراس ثم يذهبوا ليخبروا سيف بالخبر . يحضر سيف بنفسه ويرى حالة امه فيحس بالاشفاق عليها ويخرجها من السجن ويضعها في حجرة خاصة بها في القصر ويقيم على خدمتها جارية تنجح اذن قمرية في تنفيذ المرحلة الاولى من مؤامرتها الجديدة.

المرحلة الثانية وهي خارج السجن تتمكن بواسطة جاريتها من وضع مخدر لهما في الماء يستغرقان في نومهما . المرحلة الثالثة من المؤامرة هي التسلل الى حجرتهما وسرقة اللوح المطلسم من سيف . اوامر قمرية لعيروض هي أن يحمل سيف ويرمي به في مدينة الحكيم افلاطون على سنن رماح وسيوف أهل المدينة حتى تمزقه لاشفاء غليل نفوسهم بعد أن سرق سيف قلنسوة الحكيم أفلاطون . عيروض ينفذ ما أمرت به الملكة فيدبر مع عاقصة قضية انقاذ الملك سيف . كل تلك الاحداث الجسام مع التأنيب النفسي هد من قوى سيف فوقع فريسة مرض وظل في مقر والد عاقصة مريضا ثلاثة اشهر كاملة وهي ترعاه وتشرف على اعلاجه . يرسل سيف عاقصة الى المدينة الحمراء لتأتيه باخبار اهله تعود وتطمئنه ان الجميع في رعاية برنوخ ، وان الملكة قمرية تعاني من مرض عضال بعد أن نفذ فيها برنوخ سحره وقد أجلس على عرش المدينة ابنه دمر ووضع مساعدين له سعدون الزنجي والملك ابا تاج حملته عاقصة بعد ان تماثل للشفاء لتعود به الى مدينته .

سيف في مغامرة نسائية :

وفي الطريق اعترضه بستان جميل استفسر عنه من عاقصة فابلغته أنه بستان النزهة المطلسم وطلب منها ان تنزله اليه ومما زاد من فضوله واصراره على النزول هو سماع اخباره الغريبة . وفي البستان العجيب راى حجرة منعزلة عليها بناء جميل فيه رسوم ونقوش وارض الحجرة مفرش بحرير منقوش وفي الحجرة خزائن جميلة يدفعه الفضول البشري الى ان يفتحها على الرغم من تحذير

عاقصة له . وكان كلما ادار رأسه رأى شيئا يسلب اللب ويسحر النفس اربعين كرسيا وحوضا من الرخام المتعدد الالوان وسطه نافورة ماء يندفع منها ماء رقراق . اثارت الكراسي فضوله فاختفى في حوض للزهور يترقب ما ستحمله اللحظات القادمة ... طيور تهبط بجوار الكراسي وتخلع ريشها فاذا بها غادات جميلة هيفاء يتمازحن ينادين على اجمل واحدة فيهم يا ملكة « منية النفوس » تقع نفس سيف عليها يعمل المستحيل على الرغم من تحذيرات عاقصة له الا انها حاولت مساعدته بعد ان احست بحاله وبدأت ترسم له خطة للوصول الى منية النفوس بنت الملك « قاسم العبوس يسرق سيف على منية النفوس ثوبها ويظهر لها من خلف الاغصان بعد ان تأكد ان المكان قد اخلا الا منهما وراح ينفذ تعليمات عاقصة وهي ان مخرجها اولا من البستان . الخيال الشعبي يصور سيف في موقف رجولي كما يعتقد ، يجر الفارة من شعرها بكل قسوة ثم يرمي بها ارضا وهنا استسلمت عاجزة ذليلة تحملها عاقصة الى قصر المارد المختطف وهناك يطلب سيف من الملكة منية النفوس يدها للزواج وتحضر العقد كشاهد « عاقصة » وبعد ان تمت اجراءات العقد الشرعي اقيمت الافراح تسمح الذهنية الشعبية على الرغم من تزمتها المعروف في مثل هذه الامور تسمح لسيف ان يقوم بمثل تلك الترتيبات لنفسه ولان سيف بالنسبة لها مؤمن وشهم وكريم الاخلاق فلا يمكن ان يقدم الا على عمل شرعي مجاز . وهذا الزواج هو ثالث زيجاته وبعد أيام تحملهما عاقصة الى ارض حمراء الحبش. واثناء السير يضطرب طيرانها ، فقد اعترضها رصد مطلسم من الارض تنزلهما مضطرة في جزيرة خالية . وقد انقذتهما صدفة سفن الملك « أبي تاج » وتحملهما الى مدينته حيث تجري استعدادات حربية كبيرة تهيأ للزحف على مدينة حمراء اليمن وانهاء جور الملكة قمرية . استنتجت قمرية بعد ان ابلغها الخادم بخبر برنوخ وسعدون انهما يدبران أمرا ضدها . وقد حل بها خطب جلل من برنوخ ولم يستطع عيروض ان ينقذها منه فترسل رسول الى الملك سيف ارعد تطلب منه المساعدة ويرسل لها بدوره جيشا وعلى رأسه ثلاثة فرسان وحكيمان . مثل التحالف المضاد سيف ارعد وقمرية والحكيمان وساروا في جيش يبلغ عشرة الاف جندي وعلى رأسه الفرسان الثلاثة . وكان برنوخ وسعدون والملك افراح . وكان سيف بن ذي

يزن في الجهة المضادة كذاك التحالف يستعدون داخل المدينة بثبات ورباطة جأش وتعقل يتدخل في المعركة عنصر السحر ويحسم كثير من المواقف الحرجة التفكير الاسطوري فالبحر يحل محل الصحراء ليباعد بين جيش سيف ارعـد والمدينة اليمنية ويعمل السحـرة الثمانيون بقيادة او زعامة سقرديون وسقرديوس على ازالة البحر والظلمة التي احاطت بقصر الملكة قمرية . يتواجه الجيشان ويقذف كل طرف بفرسان للنزال ، استبسل جيش الجبهة اليزنية على الرغم من قلة عدده وعتاده الا انه كاد ان يباد حين ظهر لهم شبح سيف من بعيد على راس جيش كبير ، تركناه هو والملك أبو تاج قبل فترة يعدان لخوض هذه المعركة . يبدأ سيف قتاله بنزال فروسي يقع في الاسر فارسان من الفرسان الثلاثة وعرض الاسلام عليهما فقبلاه وأسلما .

وفي وسط المعركة يأتي الحكيم « اخميم طالب » بابنته « جيزة » الى سيف ليتزوجها حتى يكمل العدد المحلل له شرعا . كما قدمت اليه الحكيمة عاقلة بصحبة ابنتها طاقة . أصبحت النساء يعرضن عليه بعد ان تربع عرش الملك يجتمع في مجلسه ذاك جميع الحكماء والذين ساعدوه في محنته .

افكار قمرية الجهنميـة :

بدأت قمرية من جديد تدبير المؤامرات هـذه المرة تطلب من عيروض ان يسرع ويقتل سيف فيعود خائبا . تشحذ فكرها تخرج بفكرة جديدة جهنمية وهي تقليد اللوح المطلسم بلوح مثله ، لنرى ماذا كانت تريد قمرية بفعلها ذاك ؟ بعد ان انتهى الصائغ من عمله وكان قد اتقنه جيدا شكرته قمرية واجزلت له العطاء وهو في جو الكرم والضيافة مبهور يكاد لا يصدق وهي في عملها ذلك تعد عدتها . كانت خطتها اولا التخلص من الصائغ حتى لا تنكشف قبل الاوان فتفشل تدبيراتها . لقد عودنا الخيال الشعبي من خلال تفكير قمرية وخططها على الحرص الشديد جدا في حركاتها وتصرفاتها لقد اراد الفكر الشعبي ان يلخص لنا تجاربه لعل الاجيال التي تقرأ او تسمع أن تستفيد منها سواء في صنع الخبث او في الحركة المضادة له . تدس قمرية السم في خبث عجيب وهدوء أعصاب غريب ، وكان

المسكين ياكله ممزوجا بابتسامتها الخبيثة وما كاد يشبع من اكلـة دسمة حتى ارتمى الى جوار الطعام يحتضر وسحبت جثته الى خارج القصر .

نزال حام يدور بين سيف بن ذي يزن والفارس مكمون والجميع يترقبون المعركة بقلوب واجفة ، تنتهي بانتصار سيف . ثم ينازل السحره بعضهم ، وينازل الجنود والجيش بعضهم بعضا . المعركة في ثلاثة دوائر : الدائرة الصغرى الفرسان ثم التي تليها السحرة والحكماء والدائرة الثالثة القواد والجيش . المهم هي ان المعركة انتهت بانتصار سيف وحكمائه وجيشه . وكانت بشرى سيف الثانية ولادة ذكر من زوجته ناهد اسماه « نصر » واراد أن تفرح معـه المدينة اكثر من فرح فتزوج جيزة في نفس يوم انتصـاره وكانت الرابعة . الزواج من الخامسة وهي طامة بقيت قضية بلا حل لان الذهنية الشعبية المتشعبة بالمفاهيم الدينية ترفض اكثر مما اجازه الاسلام للرجل وهي الزواج من اربع فكيف سيحل العقل الشعبي هذا الاشكال ؟ الاحداث التي تتابع علينا في القصة ستجعل المنفذ من هذا الاشكال موجود فكيف حل العقل الشعبي تلك المعضلة او بالاصح كيف ساعد سيف على حلها ؟ عودتنا الملكة قمرية ان تحل المشاكل التي تجابهها اعتمادا على ذكائها وخبثها . تحمل لسيف اللوح وتصل الى قاعة جلوسه حافية القدمين عارية الراس لتعلن له توبتها وتسلم له اللوح ، وهي تدعوه الى ان يقتلها . يندفع الجميع كل يريد ان يجهز عليها قبل الآخر يعترضهم سيف تخلص من عنقها اللوح وتسلم سيف ثم تؤمن على يده اثر وصية لذي يزن راتها في منامها . ويستبشر سيف لذلك كثيرا على الرغم من تحذيرات الجميع له ، فيعفو عنها وتعيش معه في القصر وتحققت بذلك غايتها فما هي المكيدة الجديدة التي كانت تدور في راس قمرية ؟

يلزم الزوجان في العادة الشعبية المتبعة في الزواج حجرتهما سبعة ايام بلياليها ، وقد بقي سيف وعروسه جيزة في غرفتهما ، وفي اليوم السابع نزل يتقبل التهاني ، وقد استاذن الفرسان الثلاثة في العودة الى أوطانهم فاذن لهم . الانتصارات والافراح تنهمر من كل حدب وصوب وكأن الخيال الشعبي يريد ان يعوضه عن سلسلـة المغامرات والمشاكل التي تعرض لها في حياته منذ ولادته . يصل اليه بشير ليلقي على مسامعه بشرى اخرى « منية النفوس » تضع

ولدا سماه برنوخ « مصرا » . أصبح أبا لثلاثة اولاد ذكور « دمر » « ونصر » و « مصر » .

ظل اجتماع الشام ومصر في اعماق الوجدان العربي ففي ذاك الاجتماع يولد المولود الثالث « نصر » وعبر التاريخ كان في ذاك الاجتماع قوة كبيرة ليس لهما فقط وانما لعرب المشرق والمغرب . فالارض المشطورة والامة المشطورة كـذلك باجتماعهما تكتمل . أدركت ذلك الذهنية الشعبية البسيطة ، فكرست السيرة الطويلة بأسرها لتقول لنا ذلك . زفت فرحتنا مع الفرحة الشعبية بهـذا المولود « مصر » ، « مصر السيرة » ، مصر التي نحلم بمولدهـا ونتمناه ، دسائس ومؤامرات « قمرية » تمزق الاحلام الجميلة . تتسلل قمرية الى غرفة ناهد ، تسلط عليه زوجه ناهد فتندفع معها ، وهي تجهل ابعاد مرامي قمرية تأخذها بالرقة المفتعلة حتى تستغفل سيف وتسحب منه حزام مصنوع من رق الغزال كان يتمنطق به حتى تشفى من مرض ادعته ، ويبدو ان قمرية ما زالت مريضة ، مرضها اليوم يختلف قليلا عن مرض الامس لانه مرض عضال . تريد بدسائسها أن تستأصله وتنتزعه من مكانه كما أنتزعت « قمرية السير » حزام سيف من يد زوجته .

السيرة ترصد الاحداث التي تلي لتسخرها لخدمة سيف في التمتع بالزواج . تتابع الاحداث في اتجاه مقتل الملكة ناهد التي تلقت ضربه مميتة من طامة ولم تكن هي المقصودة بل كانت قمرية هـي المستهدفة الا ان نفس الشر كما يبدو طويلا . يقتنع سيف بعد معاناة طويلة بقتل قمرية فهي مصدر القلاقـل والاضطرابات في مملكتـه وارضه ، والالتفات الى قضيته الجوهرية ، وهي نشر عقيدتـه الاسلامية لن يكون الا بالقضاء على مصدر القلق : وبالاجمـاع يحكمون عليها بالموت .

هذا الفصل مكرس لاقتران طامة بالملك سيف . يتم الزواج وقمرية لم تمت بعد فأين هي والى اي جهة ولت بوجهتها ؟ لقـد اتجهت شطر الصين تدس هناك عند ملكها على الملك سيف بن ذي يزن وتوغر صدره بمقتل ابنته ناهد حيث توعز اليه على ان سيف هو الذي قتل ابنته . يأمر باعداد حملة كبيرة تسير الى اليمن . ثم تورطه في ورطة اخرى بالزواج منها بعد ان فتنه جمالها . تدخل في دينه لتوقعه في حبائلها وتنفذ به ما تبقى من مخططاتها الجهنمية ،

وقمرية اليوم خطت نفس الخطوات واستطاعت بذلك ان تموه على الجميع حقيقة اهدافها التي وجدت من اجلها فهي لم توجد لصنع الحضارة في المنطقة اياها ولا لزرع الخير كما ادعت قمرية امام ملك الصين . عمدوا دخولها في دينهم بحفل كبير وهي سائرة بهدوء تام فما عزمت عليه تبدي له استعدادها لمساعدته . يسرق عليها برنوخ اللوح المطلسم بعد مقدمات صعبة وشاقة حتى وصل اليها وتمكن من اللوح وقد حمله لسيف كما حملت عاقصة الملكة قمرية الى مملكة سيف ليتم القصاص ، وقد تم على يد الملكات الاربع زوجاته وكن قد قررن التخلص منها حتى لا يكون مصيرهن كمصير الملكة الضحية ناهد .

اخيرا ماتت قمرية فلمن الحياة بعد مقتلها وازاحة الشرور ، تعد الذهنية الشعبية بافقها السياسي المتلهف على ان منح الحياة بعد انتهاء الشر لامراء الغد « دمر » و « مصر » و « نصر » . وجلس الامراء الثلاثة على نفس المقعد الذي انتزعته قمرية من الملك ذي يزن لتجلس عليه . وعاد الجميع كل الى بلده بعد ان انتهوا من اصعب مهمة جابهتهم في حياتهم ليسخروا فيهـا طاقاتهم وقدراتهم جميعا من اجل الوصول الى النتيجة : انهاء قمرية حتى يعود العرش اليزني الى أهله ، ويستتب الامر في المملكة لملكها الشرعي « سيف بن ذي يزن » .

محتويات بقيـة المجلدات :

لقد حاولنا ان نعطي ملخصا للمجلد الاول باعتباره يمثل قصة سيف الذاتية الاسطورية ، ورأينا عدم جدوى تلخيص المجلدات الباقية ، لاعتبارات عدة منها انها لا تحمل أخبار سيف الاسطورية الا لماما فهي تحكي قصص بنيه نصر دمر مصر . وزوجاته . ثم ان الجانب الخرافي فيها وصل حتى منتهاه ، والى الحد الذي أصبح فيه بعيدا عن اهتمام القارىء . رصدت المجلدات لمجموع العادات والتقاليد السائدة في العصر المملوكي والتي يأتي ذكر بعضها مثيرا للغثيان في النفوس . لذلك وقناعة بعدم جـدوى تقديم تلخيص للمجلدات الثلاثة الباقية سوف نحاول اعطاء تصور عام ومحدد عن المواضيع التي تناولتها المجلدات .

يأتي المجلد الثاني ليركز كما جرت العادة في السيرة ككل على الجانب الديني ، ونضال سيف ضد عبدة النار والكواكب والصلبان ، ونضاله للاقرار بوحدانية الله . وترد في المجلد بعض القصص الواردة في القرآن كقصة سليمان وبلقيس ، وابراهيم وأبيه ، ويونس وهو في بطن الحوت ، وغيرها من القصص الدينية . وفي السيرة يسيتبدل بهم سيف ، تظهر في المجلد بعض القضايا الاجتماعية تقاليد ، قيم ، امراض ، ومن التقاليد الاجتماعية السائدة انذاك التعدد في الزوجات والاكثار منهن ويظهر فيها سيف صوالا جوالا لا يثنه في ذلك شيء مهما كبر ، كما ترفض التقاليد الاجتماعية ، وتمج زواج الرجل القصير بالمراة الطويلة وتعزو رفضها الى حرصها الشديد على توفير الراحة الجنسية للطرفين وبالذات المراة .

ومن القيم الاجتماعية الدينية التي عرجت عليها السيرة وشددت أثناء التعريج ، سن عقوبة الموت على الزاني او الزانية رغبة الجماهير الشعبية ، تسعى لتنفيذه على أبناء الملوك العابثين .. والسيرة ترفض عادة دفن الزوجات مع أزواجهن ، ويبدو انها كانت تجري في وسط الاحياء الشعبية والفقيرة في تلك الازمنة ،

وتريد السيرة ان تعوض المراة ، التي جرى عليها العرف الاجتماعي البشع ذاك ، بالزواج من سيف الذي يرفض ذلك تطبيقا لعرف اجتماعي اخر كان وما يزال قائما الى يومنا هذا وهو تكملة العدة . وفي ذكر الامراض والجرائم الاجتماعية يرد الكثير منها الشذوذ الجنسي والذي وجدت له في السيرة مجمعات خاصة للجنس نفسه يقيم فيها فيما بينه علاقات ارتباط كالعلاقات الزوجية تماما . ويذكر المجلد من الجرائم الاجتماعية اغتصاب العذارى . الا ان القاص الشعبي لا يستنكر ذلك ولا يضعه باسلوب الرافض للعملية على الرغم من نتائجها الاجتماعية السلبية ، بل يزينها او بأكثر دقة يضعها في لحظتها الآنية وبمردودها الغريزي المستجيب للحاجة . اي انه يجردها من اطارها الاجتماعي ، ويضعها كما هي ، وقد اكثر في السيرة من ذكرها فهل كان يجد في ذكر ذلك تعويضا عن الحرمان الذي كان يعاني منه في حياته بعد ان استولى المماليك ومماليكهم على كل شيء في مصر ؟؟

وتمتليء السيرة في هذا الجزء بقصص دينية تاريخية كثيرة كقصة سليمان وبلقيس ، وكنوز الملك سليمان التي يبحث عنها

سيف ، واسماء الملك وعباقرة في التاريخ وشوهها القاص الشعبي بحكم طبيعة ثقافته فهو يظهرها بصور جن ومردة وشياطين بعد ان حرف اسماءها قليلا فالملك السبئي الكبير « يرعش » هو في السيرة المارد مرعش . وافلاطون فيلسوف اليونان يحمل قلنسوة هي سر حكمته وفلسفته . واكملت المجلد الثالث بعض الاسماء كالملك كنعان . ويمتلأ بموروث سحري يصل حد المج له في صورة سيف وقد تحول بعامل سحر الى غراب ، وهنا تغيب أخباره .

يعرض المجلد الثالث تجربة ابناء الملك سيف مصر ونصر ودمر خاصة بعد غياب الملك سيف عن الساحة بعد تحوله الى غراب ، ومع غياب سيف وانعدام التجربة لدى ابنائه الثلاثة تلعب حكيمة عجوز تسميها السيرة « عاقلة » دورا كبيرا في تسديد النصائح لهم ، وتقدم تجزبتها الذاتية لخدمتهم واخراجهم من محنهم ونصرتهم في الوقت المناسب . يدور جزء من المجلد حول معركة فاصلة تقع بين التحالف المؤمن الملك أفراح الامير سعدون الكهنية عاقلة ضد التحالف المضاد سيف ارعد وحكماءه ، ينتصر الحلف الاول بفضل الحكيمة . وبعدها تكرس الحكيمة جلي جهدها لتخليص الملك سيف من محنته بعد ان تحول الى غراب . تدور الاخبار في المجلد حول الاستعدادات للانتقام من الملكة التي حولت سيف الى غراب ، وبعد الانتقام منها يتحول الجميع الى حمراء اليمن .. وهي المدينة التي تسكنها الملكة قمرية والدة سيف . تفتح المدينة ويلغى اسمها القديم وتسمى مصر .

يشتد نضال سيف وقد عاد الى حالته الطبيعية ضد أهل الكفر بكل انواعهم التي حددتها الذهنية الشعبية ابتداءا بعبدة النار وانتهاءا بحملة الصلبان . ونحن لا ننسى ما كان في تلك الفترة الزمنية من فتنة اهلية بين مسلمي ومسيحيي مصر . ولذا جاءت السيرة الاسلامية في جوهرها لتحرض على المسيحيين وتضعهم على نفس أرضية الكفرة وتحرمهم مما وهبهم اياه الاسلام من مميزات باعتبارهم أهل كتاب ، الحليف الطبيعي للمسلمين كما تبرزه السيرة هم أحفاد سليمان فذكرهم لا يرد الا من خلال سليمان ويمثل في السيرة هدف وغاية تسعى الذهنية الشعبية للوصول الى كنوزه وحكمته ، فيقاتل الملك « سيف » بسيف آصف بن رخيا نائب الملك « سليمان » . ولولا سيفه المجندل لما انتصر على المشركين ، ومنهم

حملة الصلبان . المواقف العقدية تحل العمل الاسطوري ، وبأدوات سحريـــة .

يحمل المجلد الرابع اخبار سيف بن ذي يزن وهو في أيامه الاخيرة ، ويتطرق المجلد الى قضايا دينية واجتماعية وانسانية عامة يلفها اطار كثيف من الموروث السحري ، وعن القضايا الانسانية العامة بيع وشراء العبيد والجواري والاتخاذ منهن خليلات وجليسات منادمة وتسرر ، « وهو ما كان يحدث في العصر المملوكي ، فقد بلغت جواري الملك الكامل شعبان بن الملك الناصر محمد بن قـــلاوون خمسمائة جارية كان ذلك في ٧٤٧هـ وتقول الاخبار التاريخية ان الملك الكامل وبعض اخوته قد شغفوا بالجواري السودان » .

ومن الاخبار التاريخية التي وردت في المؤلفات في العهد المملوكي ، وجاء ما يشبهها في السيرة الشعبية المجلد الرابع كقيم اجتماعيـــة ديس عليها في أيامهم الزواج العرفي غير الرسمي ، واعتبرته الذهنية الشعبية زنا ، وظهر في علاقة بولاق الابن الاصغر لسيف ببنت ملك سمته السيرة الروض وسمتها الروضة ، وكاد ان يقتل من جراء تلك العلاقة لولا تدخل الملك سيف بنفسه ، ثم ما تم بعد ذلك من الاعتراف بأن الزواج قد تم بصورة سرية دون شهود عيان .

على الصعيد السياسي العسكري تدور الحرب الاخيرة بين سيف بن ذي يزن وسيف ارعد كل يستعين فيها بكهنته ، تصول الحكيمة عاقلة بسحرها في هذه الحرب وتجول ، وتقتل افيال الملك سيف ارعد ، وكثير من رجاله . وفي خاتمـــة الحرب يقتل الملك الحبشي سيف ارعد على يد دمر احد ابناء سيف بن ذي يزن الذي يحتل عرش الملك الحبشي سيف أرعد .

يناضل الملك سيف وابناؤه من أجل ابطال عبادة الاحجار والاصنام ويتمكنوا من الحاق الهزيمة بأتباعها عن طريق المـــردة والجان المؤمنين منهم . تظهر السيرة في هذا المجلد على ان الدين وهو الاسلام ويمثله سيف بن ذي يزن عدو الحكماء .

تستمر في هذا المجلد متابعة الملك سيف للحكيمين سقرديون وسقرديوس وتستمر فتوحاته ، رغما عن مكائدهما واسحارهما . وحين كان يجرب صدق اسلام شخص ما فانه كان يستخدم سيف آصف بن برخيا فيضعه على رأسه ، وهناك حركة للسيف يعرف بها

صدق اسلام الشخص أم خداعه .

في هذا المجلد يخلــص سيف بسيف آصف بن برخيا الناس من ابناء ابليس ويدفنهم جميعا في البئر التي كانوا فيها كما يقوم بمطاردة الشياطين . تظهر السيرة سيف بن ذي يزن على مستوى رفيع من الاخلاق في تعامله مع اعدائه فهو يــرفض الغدر بهم ، ويطلب المواجهة الشجاعة معهم .

وفي نهاية السيرة يقتتل الملك سيف وابنه دمر من اجل امرأة ويبدو ان الكيل قد طفح بابنه دمر فراح يخاطبه بلهجة حادة « كل هذا منك وبسببك لانك كلما رايت بنتا اخذتها وفي عاجل الحـــال تزوجتها هذا اذا كانت ذات حسن وجمال وبهاء ودلال واذا كانت بغير أوصاف حميدة تركتها ولم تسأل عنها وأنا احق بذلك لانك حدث كبير ومالك بهذا الامر النكير » ، وانتهت المعركة بالافتراق بين الاب وابنه .

ملاحقة الحكيمين تصل الى الاقليم الخامس وهو اقليم يونان يطلب سيف من المارد صاروخ كما يرد اسمه ايصاله الى هنـــاك ليقبض عليهما ، وحين لا يجدهما يرتحل الى الاقليم السادس وفي نهاية السيرة يأتي بهما عفاشة الى سيف فيصلبا ويرد في السيرة حديث يرويه الراوي على لسان راو مجهول « وان الوادي السادس فيه حكيمان حكيمة يقال لها رخمة وزوجها حكيم يقال له رخائم وهما اكبر تلاميذ الكهين يونان الذي اصل هذه الاقاليم له وان رومـــان الازرق وأخاه روم هناك » . هكذا فهمت الذهنية الشعبيـــة الفلسفة اليونانية حيث يسلم الحكيم يونان عدة حكمته للملك رومان حتى يسلمها للمسلمين وبالذات لسيف بن ذي يزن ، وفي هـــذه الاقاليم التي مروا عليها يتزوج الاخوة الذكور من اخواتهن الاناث .

يصبح سيف في هذا المجلد جدا بعد أن ينجب ابنه نصر ولدا اسموه « الدمرياط » وعلى الرغم من ذلك ما زال يتابع القتال . وفي اقليم رومان يرى الهول بأم عينه فأصحابه يتساقطون الآخر تلو الاول ، الحكيمة عاقلة الشيخ عبد القدوس .. الخ .

اصبح تحت امرة سيف بـــن ذي يزن سبعة وثلاثين ملكـــا كلهم ملوك على قرى ومدن في الحبشة والسودان وثلاثة وثمانين سلطان ومقاوم .

تحكي السيرة في ختامها سيرة سيف بن ذي يزن كما ارادتها الذهنية الشعبية واخرجتها بصورتها الشعرية في مئتين وخمسة عشر بيتا . تحدثت عن تاريخ أجداده التبابعة اليمنيين ، ثم تعرج على حياته في مراحلها المتخلفة منذ طفولته وما جابهه من أهوال ، وحتى شبابه وفيه تمت العديد من الزيجات له ، ومغامراته الحربية بالعتاد السحري المتنوع فهو لوح وسيف وخرزة وسوط مطلسم .

ثم يأتي الشعر على ذكر انتصاراته وأخيراً ما قام به من توزيع للامصار بين بنيه واصدقائه المقربين .

وبتعبير دقيق تلخص الابيات الشعرية السيرة وتتطرق الى مختلف جوانب الحياة التي عاش فيها انسان ذاك العصر وأقلقه تعرض أي جانب فيها للخطر ، فورد كل ذلك في صور النضال والصراع الذي عاشه سيف البطل الاسطورة في الرواية .

الباب الخامس

تقييم السيرة

انتجع الفكر العربي الاسطوري في القرون الوسطى العديد من القصص والروايات ، بعد ان اعتملت في داخله العديد من المؤثرات من الشرق بأوسطه وادناه ، مصر وبابل وكلدان واليمن ، وفارس والهند والصين .. الخ . في مرحلتي السحر والتدين ومثلت السيرة الشعبية اليزنية مع اسطورة الف ليلة وليلة قمة ذاك الانتجاع ، فقد أشبع القاص الشعبي الجو فيهما بالعجائب واتى بالغرائب من أعمال الجن والمردة ، الى جانب خوارق العنصر الانساني وهو الذي اكسب السير مكانة عالية ، حيث اتت في مجملها لتنفيذ الارادة الالهية . لم يكن البطل فيها سوى اداة تنفيذ جهزت مسبقا بكامل عدتها لتنفيذ مهام ثلاث :

الاولى : **اقتصادية** وهي تحويل مجرى النيل من الحبشة الى مصر .

الثانية : **سياسية** اخضاع الحبشة في مرحلة صراعها المحتدم مع مصر في القرن الرابع عشر لمصر ، واسقاط اكبر عروشها انذاك .

والثانية : **دينية** وتسعى لنشر **الاسلام الابراهيمي** تمهيدا **لنصرة الاسلام المحمدي** ، وتحطيم وتدمير كل ما عدا ذلك من ديانات باستثناء اليهودية .

وقد وضعت تنفيذ هذه المهام الثلاث على عاتق البطل اليمني سيف ، وأمدته بكل الصفات الضرورية لانجاح مهمته التاريخية . فهو الشجاع وهو الذكي وهو الشهم الى آخره .. من المواصفات . وقد قسمت السيرة القوى المتنازعة في جبهتين ، جبهة الخير ومثلها سيف وتحالفه السياسي الديني ، والجبهة المضادة وقد جمعت كل قوى الشر بزعامة سيف ارعد الملك الحبشي السليماني الذي عاش في القرن الثامن ، ودخل الجميع في الصراع وامـــدت السيرة سيف بكوكبة من الانبياء ، سام سليمان وزيره آصف بن برخيا وفي مقدمتهم ابراهيم . جميعهم ، مدوا سيف بما احتاجه من عدة اسطوريـــة للنضال ضد الجبهة المضادة وانتزاع النصر منها ، كما وقفت مع سيف جمهرة من السحرة والكهنة والجان والمردة من الذين جمعتهم واياه وحدة العقيدة والهدف ، وهو الاسلام وانتصاره . وبالمقابل كانت الجبهة المضادة تتألف من قوى يجمعها نفس الهـــدف ، وهو مقارعة الاسلام وعدم تمكينـــه منها ، ودخلت ضمن التحالف في الجبهتين وامتزج العنصر الانساني مع الجان بأدواتهم السحرية كما جاء ذلك تعبيرا عن ميول الرواة النفسية ، والمزاج الشعبي في تلك العصور ، فقد جاء مؤثرا فيها غارقا اياها في عالم غير عالمها لاهداف خطط لها ، ووجدت في الواقع استجابة لتنفيذها .

يلعب السحر كما أراد رواة السيرة دورا كبيرا فيها فلدى السحرة قوة تضاهي قوة الالهة ، خاصة المسلمون منهم . لانهم يستمدونها من قوة الذات الالهية الواحدة التي ارتضوا بها واسلموا أمورهم اليها ، فأمدتهم لتنفيذ مشورتها القدسية بقوة سحرية يمكن بها اذا تطلب الموقف الدراماتيكي ذلك امحاء مدينة من الوجود ، واحلال اخرى بدلا عنها في لمحة البصر ، مشطبا بذلك على قيمتي الزمان والمكان ، وقد جاؤوا في السيرة بأعمال سحرية كثيرة .

والسيرة الاسطورية بمجملها محبوكة حول موضوع تاريخي ديني يمكننا ان نوجزه لايضاح القضية الاساسية في السيرة ، وهي الحركة الوطنية اليزنية في معركتها التحريرية ضد الحكم الاوتوقراطي الابرهي الحبشي في القرن السادس للميلاد ، وهي القضية التي دارت حولها كل تلك التفاعلات الشعبية على امتداد القرون الثمانية للهجرة ، ومنذ ان حملها اليمنيون الـــى مصر في عهد الفتوحـــات الاسلامية المبكرة تحت قيادة عمرو بن العاص . وظلت تتفاعل بين

الجماهير وفي الكتب التاريخية حتى القرن الثامن هجري اي الرابع عشر الميلادي وقد اعارت الذهنيـة الشعبية مشاعرها الدينيـة للاحداث التاريخية ، ويظهر موضوعها التاريخي الديني على النحو التالي :

للملك الاب ذي يزن الحميري وزيرا عاقلا يدعى يثرب آمن بالاسلام قبل الدعوة المحمدية ، وقرأ في الكتب المقدسة عن الرسول العربي محمد بن عبد الله الذي سيخرج من الجزيرة لمواصلة نشر الاسلام الابراهيمي وتمكين الديانة الاسلامية من الانتشار في الارض. عرف الملك الحميري باسلام وزيره وتوحيده وهو في طريقه الى مكة حيث عرف هذا النوع من العبادة ، وحاول تحطيمها الا انه تراجع اثر مرض الم به ، وعاود الكرة ثانية فاتضح له عدم امكانية ذلك فتراجع وتحول الى الاسلام هو وكامل جيشه . ومع ملاحظة ان الموضوع التاريخي الديني هو نفسه نسج خيال ، ومحاولة تصوير أن حادثة تاريخية قد جرت على نسج تلك الوقائع مع الاخذ بعين الاعتبار ان الحقائق التاريخية المدونة والمعروفة لا تحمل قصة من هذا النوع . وبالرغم من ورود اسم ذي يزن كقبيلـة في النقوش والمدونات التاريخيـة وتبدو واضحة عمليـة التطويع التعسفي وتستغل باستمرار في وقت الحاجة وذلك ما حدث حين طوعت اسماء تاريخية لاحداث خيالية لها طابع ديني . وهو الـذي حملنا على اعطائها صفة التاريخية الدينية .

عودة الى الرواية التاريخية الدينية نرى ان وزيره المسلم « يثرب » يقوم ببناء مدينة في واحة عسكروا فيها سميت باسمه ، وهي مدينة « يثرب » . التي عرفت بعد هجرة الرسول اليها والى اليوم « بالمدينة المنورة » . ثم توجه الملك الحميري الى الحبشـة وقرر بناء مدينة فيها اثر اعجابه بجمال الطبيعة فيها وتعلقه بها . الا ان الملك سيف ارعـد — وهما الاستعارة الثانية والتطويـع التعسفي — يرفض تأسيس دويلات اجنبية في اراضيه ، ويقـرر الحرب لايقاف الاعمال الاستيطانية ، ينصحـه مستشاراه بتجنب اراقة الدماء ، والدخول في تحد من نوع آخر للملك الحميري ذي يزن . والتحدي هنا هو اللجوء الى الحيلة والخديعة . وعليه فقد ارسل الملك الحبشي سيف ارعد جاريته قمرية لتفتك بالسم بالملك سيف ، تفشل المؤامرة بعـد انفضاحها فتعتمـد على جمالهـا في

المراوغة . يتزوجها الملك وقبل وفاته يجعلها وصيه على عرشه لتنجب الملك سيف . فتقرر التخلص منه وترميه في الصحراء وهنا ترتفع درجة حرارة الفكر الاسطوري وينعطف في زاوية حادة مخلفا وراءه الافكار التاريخية الدينية الغيبية داخلا في محور سحري ـ ديني جامعا بين السحر والدين خالقا منهم مادة واحدة تبتديء منذ ترك سيف وهو المسمى في السيرة بوحش الفلا في الصحراء، وتتدخل العناية الالهية باغاثتها للطفل بغزالة ترضعه ومن هذا الموقف حتى خاتمة حياته وسيف محل عناية الذات الالهية التي تتدخل في الظروف الحرجة لمصلحة من اختارته ارادتها منفذا لمشيئتها في الارض ، وكانت أول المهام الملقاة على عاتقه هي تحويل مجرى نهر النيل . لقد ربطت الرغبة المصرية الشعبية والرسمية المشتركة ذات المصلحة الاقتصادية الواحدة بالارادة الربانية . فالله هو الذي يريد تحويل المجرى لذا ارسل سيف ووفر له الحماية اللازمة لتنفيذ مشيئته . والنيل هو أحد الانهر الاربعة التي تجري على الارض فيغور اثنان منها وهما الفرات والنيل تحت الارض ، ويبقى سيحون وجيحون يجريان على السطح . والاسطورة بعد ان صبغت الرغبة المصرية بصبغة قدسية باعطائها ابعاد دينية ، أرادت كذلك ان تضفي بعدا تاريخيا يحمل تبريرا لتلك الرغبة وهي ان النيل كان يجري من قديم اصلا في مصر اي انه ينبع من ارضها ويجري فيها . وتظهر اسطورة تحكي ان زعيم مدينة تعاني الجفاف ويدعى « جابلكا » هو الذي حول النيل بقارورة ملأها من ماء النيل وقد تكررت عملية التحويل سبع مرات متتالية فكان لا بد من وقف العملية المتبعة بكتابة كتاب تاريخ النيل وخبيء في مكان معين كانت على سيف مهمة الوصول اليه . الا ان انجاز المهمة الاقتصادية التاريخية الدينية في مظهرها كانت تستوجب اخراجا اسطوريا بأدوات اسطورية فكان لا بد من :

١ ـ الحصول على كتاب النيل .

٢ ـ الدفاع عن النفس ضد جبهة الجن والمردة الاشرار باختراع سيف آصف بن برخيا .

٣ ـ حصان سحري يحمل سيف بن ذي يزن .

٤ ـ فأس يافث بن نوح ليستطيع شق طريقه وسط الجبال الوعرة .

٥ ـ الخرزة المسحورة للملك كوش بن كنعان .
٦ ـ لوح يخدم تحت امرته الجني خليجان واخاه ..
٧ ـ والعفريت المسمى بالرهق الاسود .

وكان لا بد من توفير هذه الادوات حتى تتحقق الرغبة المصرية في السيطرة على مياه النيل خاصة بعد تهديدات الملك عمدا سيون وابنه سيف ارعد بتحويل مجرى نهر النيل عن مصر . وقد ارتعب لذلك الشعب المصري وحكومته معا . وترد على لسان سيف ابيات من الشعر ضمن القصيدة الشعرية الطويلة التي تحكي القضية اليزنية بأكملها فيقول :

وقد سهل الرحمن في فحرارضه   واجريت مـاء النيل اعظم انهـار
وابطلت اعمالا لبقرة تطلسمت   لافساد جري النيل اسوا ابقار الخ.

ويحاول سيف في الفكر الاسطوري ان يسخر الرهق الاسود لتحطيم السدود السبعة التي تمنع ماء النيل من الجريان في الاراضي المصرية ، ويتطلب ذلك الحصول على فأس يافث بن سام ، وحين تم العثور على الفأس قام بتحطيم ستة من السدود وامتنع عن تحطيم السابع ، وبعد الحاح تابع مهمته فتدفق الماء وتفرع في فرعين الاول نحو دمياط ، والثاني نحو رشيد ، وتتدخل العناية الالهية لتذليل الصعوبات التي نشأت من جديـد ، ولتوصل الهدف الى نهايته فيجري النيل دونما سدود ويصب في البحر . وهكذا تحقق الهدف الاول .

اما الهدف الثاني وهي تركيع الحبشة لمصر المملوكية فقـد دارت المعارك الكثيرة بين سيف وانصاره من الملوك الصغار الذين اسلموا على يده ـ بين الملك سيف ارعد العدو الشديد المراس للحكم المملوكي في القرن الثامن ـ والمتصدي في الاسطورة هو سيف بن ذي يزن الحميري . وقد استخدمت في تلك المعارك كل انواع الخداع والحيل السياسية ، ولعب الكهنة في هذا الجانب ولتحقيق هذا الهدف الدور الكبير . فقد كان الى جانب سيف الحكيمة عاقلة ، وبالمقـابل استخدم سيف ارعـد الكاهنـين سقرديون وسقرديوس .

عكست التطورات السياسية على صعيد الواقع نفسها في السيرة ممزوجة بالاماني والطموحات الشعبية ، والاطماع السلطوية المملوكية المصرية في الحبشة لتمتعها بوضعين اقتصاديين حيويين

لمصر الاول منابع نهر النيل الواقعة فوق هضابها الوسطى . والثاني اشرافها على مداخل البحر الاحمر الغربية ، ومن هنا جاءت تدخلأتها السياسية في الشؤون الداخلية للحبشة . وتشجيعها لكيانات الاستقلالية ذات الوجه الاسلامي على السواحل البحرية وفي الهضاب الوسطى ، وقد جئنا على ذكر ذلك سابقا .

اتحدت في الاسطورة كل القوى المتحالفة لتحقيق الهدف السياسي في الواقع المادي واخرج بطريقة اسطورية . فسيف ارعد كما صورته الذهنية الشعبية هو من عبدة « زحل » وهنا تداخلت كثير من القضايا التاريخية الدينية لان عبادة الكواكب كما تحكي الاخبار الدينية قد حدثت في عهد ابراهيم ، الذي شن معركته المقدسة ضدها ، وباءت بالفشل محاولات قومه وعلى راسهم أبيه وملكه نمرود الذي قتله حرقا ، كما تحكي الروايات الدينية ، واستمر هو في معارضة ديانة قومه وعبادتهم الكواكب . ويبدو ان سيف بن ذي يزن قرر مواصلة النضال الذي كان قد بداه ابراهيم ضد عبدة الكوكب زحل وهم في هذه المرة الاحباش على عهد سيف ارعد . مع العلم ان « سيف ارعد » وجماعته القبلية « الامهريين » كانوا من اتباع المسيح ، ومن حملة الصلبان على حد رأي الذهنية الشعبية في السيرة . فكيف تحولوا الى عبادة زحل ! ذلك ما أرادته الاحداث أنذاك وعكس نفسه في الرواية . والمهم ان سيف بن ذي يزن اخذ على عاتقه نصرة ديانة ابراهيم على عهد سيف ارعد والانتصار للذات الالهية فهي المرغوب الاسمى لانها الخير الاسمى والمعقول الاسمى ، وهي الجوهر الكامل الذي منه كل كمال وهي العلة السرمدية الازلية . ومن هنا كما يبدو جمعت الازمنة الثلاثة المتباعدة فقدرتها القدسية قادرة على ادغام الزمن في بعض ذلك على مستوى التصورات الدينية الغيبية .

اما على مستوى الوقائع التاريخية المادية فقد قمنا بشرح ذلك مسبقا وبينا من وجهة نظر علمية مادية لماذا حدث الادغام الزمني والاعارة البطولية والتحريف للحقائق التاريخية واظهار سيف ارعد بمظهر الوثني عابد الكواكب . الا أن ما حدث هو التطويع التعسفي للزمن لخدمة الهدف السياسي الملح آنذاك .

وتعكس القصة ميول الرواة النفسية وتربيتهم وثقافتهم

الاجتماعية فتفوح برائحة الشبق الجنسي يترجمـــه الجميع ، وفي مقدمتهم سيف البطل ويبلغ ذروته في القتال بين دمر وأبيه سيف ، وهما يتصارعان حول امراة يريدها كل منهما لنفسه . وعلى الرغم من مهمته الصعبة التي كلفته حياته بأسرها الا ان الجنس بقي قضية قائمة واستحوذت على جزء كبير من حياته ونضاله الشاق .

وجاء التجانس بين عناصرها قائما على وحدة في العقيدة ، وقد جمع الاسلام جبهة سيف بن ذي يزن ، في الوقت الــذي لم تستطع النصرانية ان تجمع الجبهة المضادة، وتعمد الفكر الاسطوري الشعبي على ان يظهر سيف ارعد وجماعته انهم من عبدة الكواكب ، وقد يكون ذلك ناتجا عن جهل لحقيقة العبادة الرسمية في الحبشة ، او خلطا للعبادات السائدة هناك ، او ان هناك هدفا سلطويـــا سياسيا لاظهار حكام الحبشة وكأنهم عبدة الكواكب وتجريدهم من صفتهم الايمانية بديانة سماوية وهي المسيحية ، ومن ثم لتبريـــر معاداتهم . ونحن بدورنا نميل الى احتمـــال تداخل كل المسببات المذكورة ، وان كنا نرجح السبب الاخير . وعلى كل كانت الجبهة المضادة للاسلام مشرذمة دينيا . فهناك اكثر من دين او له اتباعه وقد قامت السيرة باستعراض كل العبادات الرئيسية الكبيرة التي تعرف عليها الانسان في مرحلة تدينه ومنذ بواكيرها الاولى ، وبتعبير أدق العبادات التي تعرف عليها الشرق في « مرحلة التدين » ممزوجة بالسحر من بقايا مخلفات « مرحلة السحر » . ففي السيرة يدخل جبهة سيف الاسلامية الابراهيمية في خوض نضال مـــرير وعنيف بأدوات قتال طبيعية وسحرية وقوى بشرية تاريخية وغير تاريخية الى وهمية ادبية مع قوى اسطورية غير آدمية هم « الجن والمردة » وهم قوى تعترف بها الديانات السماوية ومنها الاسلام ، أي أن هناك اعتراف بعالم هو عالم الجان ، وقد اجتمعوا مع سيف وقواه الآدمية في وحدة اساسها الدين ، وفيها وبها ذابت كل الفروقـــات والاختلافات الاخرى ، وقد جابه هذا التكتل الاسلامي ــ « الآدمي ــ الجاني » ــ معارك كثيرة في نضاله المرير ضد الجبهة المتشرذمة فقاتل عبدة النار لوحده، ومن دون ان يسندهم لمعتنقي ديانة اخرى .

وحين دخلت جبهة سيف في قتال ضد عبدة الصلبان استفردت بهم ، وسددت اليهم ضربات موجعة دون ان يجدوا من ينصرهم من أصحاب الديانات الاخرى لعدم وجود اية علاقة بينه وبين عابد النار،

فحاملـــو الصليب هم في نظـــر المسلمين ـــ المسيحيون المشوهون للمسيح عيسى ابن مريم ، وهم اولئك الـــذين ثلثوا الله الواحد فأفقدوه وحدانيته ، وحين يقوم الفكر الانساني بعمل كهذا يكون قد خرج عن جادة الحق فاستحق غضب الله وغضب الجماعة الموالية له المؤمنة به . ومن هنا اتت الغضبة اليزنية عليهم والتي ارادتها الذهنية الشعبية .

اما معركته الدينية مع سيف ارعد والتـــي استحوذت على نصيب الاسد من الرواية الشعبية فقد كانت لانهاء عبادة الكواكب واتباعها .

ومن صور الشبق الجنسي الاكثر اثارة هي صور الافتراع (فض البكارة) يثيرها الراوي بحماس وانفعال ، ويتجاوز بهـــا الاعراف الاجتماعية السائدة وكأنه يريد بذلك ان يعوض كما جسد بها معاناته الجنسيـــة نتيجة حرمانه وكبتـــه في كماشة التقاليـــد الاجتماعية المفروضة من قبل الذهنيـــة الدينية الغيبية والضغـــط السلطوي والذي كان يبيح لنفسه اشباع غرائزه وايصالها الى قمة الادمان ، والى الحد الذي امتلك فيها بعض المماليك المئات من الجواري والعشرات من الزوجات ليس ذلك فحسب بل اضافة عليه ممارسة الجنس من قبل المماليك والذي كان يتم في سن مبكرة جدا فلا يصل الفرد فيهم سن العشرين الا ويكون الجنس قد ارهقه ، ونال منه فوق قدراته واحتمالاته .

ولقد اظهرت السيرة الجموح للجنس الى الحد الذي كاد فيه سيف ان ينام مع امه وهو لا يعاني اي كبت الا انه يعانـــي من الشبق الجنسي ، كما يريد الرواةانيصوروه تنفيسا عن مشاعرهم في شخصيته . فجاءت قضية رغبته الجنسية الجامحة في النوم مع امه ولم يرتدع الا في اللحظة الاخيرة حين تاكد له انها امه . وهكذا اسقطت نفسية الروائيين معاناتها الجنسية على السيرة في شخوص ابطالها الذين ينتمون الى الطبقات العليا وهم بالتحديد من اسر ملكية ، ولم تشاهد اي عملية اختراع واحدة تمت على يد شخص او مواطن عادي ، كل العمليات تمت علـــى ايدي شخصيات رفيعة المستوى ، فقط كان على الراوي والمستمع ان يتلذذ بما كان يتم على ايدي ذوي المكانة الرفيعة اجتماعيا . ويبدو ان الشبق جاء هنا نتيجة الكبت والحرمان على مستوى الراوي والمستمع الشعبي ، وصور

على المستوى السلطوي يعاني من ادمان للجنس يصل حد الابتذال أي ان الجنس يعاني من الانقسام الطبقي في المجتمع فكما امتلكت الطبقات العليا وسائل الانتاج فقد امتلكت كذلك الجنس والحق في التصرف به كيفما ارادت ورغبت ولم تردعها في ذلك اخلاقيات ولا قيم اجتماعية في الوقت الذي فرضت كل انواع القيود عليه وطبقت القيم الاجتماعية على الجماهير الكادحة أي على الطبقات السفلى في المجتمع وعانت هي من بؤس جنسي وعاني الجنس عندها من بؤس اجتماعي ووجد تعويضا له في الصور والخيالات اللامحدودة فجاءت متعته الذهنية الجنسية ممزوجة بالمرارة لعدم قدرته على ترجمتها في واقع حياته بحكم ما فرض عليه طبقيا وايديولوجيا (القيم الدينية الاجتماعية) .

لقد جاءت السيرة هي والعديد من القصص والروايات الاسطورية لامتاع المستمع والقارىء . فهي الادب الروائي المنتشر والمعروف في العصور الوسطى ، كما اتجه الهدف الثاني صوب الاشباع لحاجة النفس الجماعية الى ابطال يحوون جماع فضائلها واخلاقياتها الاجتماعية ببعدها الطبقي على مستوى البنى التحتية والفوقية ، وان تغلبت اخلاقيات البنى الفوقية لانتساب كثير من الابطال اليها .

ولقد وجهت سيرة سيف كغيرها من الروايات الاسطورية لمسايرة العقلية الاسلامية التي بعدت منذ القرن السابع عن العقلانية ، وغرقت في الغيبيات الدينية الاسطورية ، ولم تتعارض قصصها الصغيرة المؤطرة داخل سيرة سيف مع ما جاء به القرآن من قصص بل انها خدمته انذاك لان مضمونها توجيهي اسلامي محض ولا تخلو السيرة من النفس الاسرائيلي الديني الاسطوري كما يثبت ذلك الدور الكبير الذي تلعبه في السيرة شخصيات عاشت في العهود القديمة الاسرائيلية كالملك سليمان ابن داود ووزيره آصف بن برخيا . كما ان موضوع الانهر الاربعة النيل والفرات وسيحون وجيحون اسرائيليات متداولة ، وان كان لها اصول مصرية قديمة ، الا أن تأثيرها في الفكر الاسلامي من المبكر ثم الوسيط قد جاء من الكتب الاسرائيلية المقدسة .

وسيطرت الروح المصرية القديمة فقد استعارت الذهنية المسطرة للسيرة من ذاكرتها التاريخية بعض اعمال السحر وكشف

الغيب وكان لهما دورا اساسيا في السيرة . ذلك أننا نجد ان ثلث الكتاب مخصص للنشاطات الغريبة للكهنـــة والسحرة والمردة . فالاسطورة تمنع النيل وفيضانه ، وبقاؤه في مجراه الطبيعي قائم على التمائم والتعويذات . ولا ننسى ان النيل منذ القديم كان قد استنفذ من الانسان المصري كل تفكيره وحامت حوله اغلب الاساطير المصرية بل وقد مثل مراحل متعددة ومختلفة ربا دينيا عبد وقدمت له القرابين . وقد الغى التوحيد او الوحدانية الالهية عـــن طريق الاديان الثلاثة الشرقية السماوية العبادات القديمة واعتبرها من بقايا العهود الوثنية فانتهى امرها الى الزوال والاضمحلال وبقـــي القليل من طقوسها ، تكيف جزء وصبغ الديانات الثلاث وآخر بقي ضمن العادات والتقاليد الشعبية المتوارثة كان منها ما جاء من اعمال السحر وكشف الغيب الوارد في السيرة ، وبذا تمت عملية التحام السحر والدين . واتصلت عن طريقهما مرحلتيهما ببعض اي «مرحلة السحر ومرحلة التدين » . وتلك عملية طبيعية وغير مستغربة ان رأيناها في امتداد زمني تراثي الى الان في المجتمعات ذات التشكيلات المتعددة وذلك لبقاء التعدد في أساليب الانتاج فيها .

الباب السادس

الظروف التاريخية للسيرة

استعرضنا الآراء التي قيلت حول الفترة الزمنية التي الفت فيها الاسطورة ولا نريد ان ندحض هذا الراي او ذاك الا اننا نملك موقفا من تلك الاراء ومدى مجانبتها او ملامستها للحقيقة والصواب ، ولقد قدمنا من أجل ذلك على محاولة اعادة تركيب الظروف والاوضاع جميعها في الفترات التي قدرنا حسب التحليل انها الازمنة التي قيلت او كتبت فيها السيرة . ولتقديراتنا بأن غموض مصرع سيف والجهة المتحملة مسؤولية مصرعه والاسباب والاهداف التي دفعتها الى الاقدام على فعلتها ، هي التي شحذت الفكر الشعبي فبدأ بالتساؤل ثم استمر ينسج حول التساؤل تساؤلات اخرى واجوبة عليها في صيغة روايات بدأ اطارها يتسع ويكبر فخرج من الحدود اليمنية بهجرة اليمنيين بعد مقتل سيف واستحواذ « الابناء » على السلطة في صنعاء الى الجزيرة العربية ، ورمى الجيل الاول مجموعة التساؤلات الى الجيل الذي حمل راية الاسلام ، والمعروف تاريخيا ان اليمنيين كانوا عماد الجيوش الاسلامية وحملوا السيوف وهم مقتنعون انهم ينشرون الدين الحق سبق وان تعرفت عليه اليمن وتسمى أتباعه بالحنفاء . الى جانب الديانات الاخرى من وثنية

ونصرانية ويهودية ، وبفعل الزمن تبدأ الحوادث في السيرة تتداخل في بعضها ، فسيف كان مسلما حنيفا على دين ابراهيم ، واعداؤه هم المشركون بما فيهم المجوس اي اهل فارس عبدة النار ، اما حملة الصلبان وهم من الاحباش . وتدغم الحوادث فالمهم ان الفرس اعداء لسيف لعبادتهم النار . اما متى كانوا اصدقاء ومتى حدث التحول في موقفهم من سيف والسلطة في اليمن ، اما لماذا هم اعداء فذلك كله غير مهم بالنسبة للذهنية الشعبية .

استمرت هجرة القبائل اليمنية في زحفها على الجزيرة واتجاهها نحو الشمال تحت جنح الجيوش العربية الاسلامية التي قادها خالد بن الوليد — وأبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وغيرهم وانضوت تحت الويتهم بدوافع شتى دينية واقتصادية واجتماعية حاملة راية الاسلام من جهة ، ومن جهة أخرى مخلفة وراءها الجفاف الصحراوي وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي ، وقد احتسبها العلماء موجة من موجات الهجرة السامية الا أنها حسب تقديراتهم كانت الاخيرة .

نظم جيش عمرو الفاتح مصر تنظيما قبليا فتكونت الكتيبة الواحدة فيه من أفراد قبيلة واحدة او من أفراد مجموعة من القبائل المقاربة ، وقد اتخذت من الفسطاط مقرا عسكريا في البداية ثم تحولت الى مدينة سكن لمجموع القبائل التي عاشت فيها ونخص بالذكر القبائل اليمنية او ذات الاصول اليمنية فمن قبائل كهلان اليمنية جاءت همدان، وخولان ومدحج ومراد وعك وتجيب وغيرها من القبائل والعشائر والبطون الصغيرة ، اما ذات الاصول اليمنية والتي تنتسب الى كهلان فهي الازد وخزاعة ولخم وجذام وغيرها من الافخاذ الصغيرة .

وجاءت الى مصر في الحملة الاسلامية من القبائل اليمنية ذات الاصول الحميرية قبائل المهرة ، والهميسع وحضرموت والصدف ويافع وذبحان . ومن الاذواء جماعات من الكلامع وجماعات أخرى من آل ذي يزن . . وحملت تلك الحملة قبائل ذات أصل يمني حميري سكنت في أعالي الجزيرة والشام ، كبلي وقضاعة وبني كلب وغيرها من البطون الصغيرة والتي لا يسع المجال هنا لعدها وحصرها .

كيف انتشرت قصة سيف :

كانت **عملية الارتباع** التي مارستها القبائل العربية في مصر

المدخل الحقيقي لانتشار قصة سيف في مصر ، وقبل ان نستطرد في كيفية حدوث ذلك تجدر الاشارة الى عملية الارتباع التي كانت تحدث في الربيع وتقوم بها تلك القبائل المشتركة في مرتبعات واحدة او المستحوذة على اكثر من مرتبع ، وحركة الارتباع هي هجرة داخلية يتم فيها اتصال القبائل العربية المهاجرة بالمصريين ، ومع التطور الزمني لعملية الارتباع حدث التزاوج الثقافي بين المؤثرات الادبية والمادية للقبائل العربية والمؤثرات المادية والادبية الخصبة للشعب المصري ، وكان من نتائج المداخلات **تعريب المصريين وتمصر العرب ليخلق الانسان الجديد الواحد بالاشتراك** . ثم أصبحت المرابع او المرتبعات منازل ومحط اقامة ثابت ومستقر . والى جانب عملية الارتباع التي احدثت التداخل كانت هناك طريقة اخرى تؤت عراه احدثتها **عملية الرباط** ، وقد كان يتم بين الجند المرابطين وبين الاهلين اثناء فترة مرابطتهم في معسكراتهم قرب المدن ، ونخص بالذكر الاسكندرية ، وهي أكثر المدن المصرية تأثرا بالعملية . فقد رابط فيها بعد الفتح اثنا عشر الف جندي ارتفع هذا العدد الى اكثر من الضعف اثناء حكم معاوية . اما العملية الثالثة والتي حدثت فيها التمازج المصري العربي فهي **الضيافة الجماعية** لتلك القبائل من قبل قرية او مدينة . **وعن طريق العمليات الثلاث الارتباع في دلتا مصر وعملية الرباط في الاسكندرية والمدن الساحلية والضيافة الجماعية في مصر من اقصاها الى ادناها حدث التداخل والتمازج بين المصريين والقبائل العربية المهاجرة . فماذا كان يحدث اثناء ممارسة العمليات الثلاث ؟**

اثناء حدوث التفاعل اليومي لعملية الاختلاط التي كانت تتم بالتدريج بين المصريين والقبائل العربية الفاتحة ، والتي بدات اول ما بدات بالصورة المقدمة سابقا ، اثيرت من قبل القبائل العربية الفاتحة مجموعة مطارحات فكرية واجتماعية ، ولنا ان نتصور مطارحات ذاك العصر ، وفي ظروف كظروف القادمين الجدد المختلفي المشرب والمنزع من حيث انتماءاتهم السلالية والعرقية تجمعهم في نفس الوقت عقيدة واحدة وهدف واحد التقوا جميعا عنده .

طرح أولئك القادمون مطارحاتهم في ثلاث اتجاهات ليمهدوا السبيل من أجل تشكيل واعادة تشكيل قناعات الانسان المصري الفكرية والنفسية . كانت اول محاولاتهم هي اجتثاث ما خلفه الروم

من ثقافة فكرية بقيت عالقة في ذهن الانسان المصري الى ما بعد الفتح الاسلامي ، ويستدعي منا اثارة هذه النقطة الوقوف قليلا امام حريق مكتبة الاسكندرية والذي دار حوله كثير من الكلام ، وطرحت فيه عدة آراء منها ما يقول ويرى ان الحريق كان قد حصل قبل الفتح الاسلامي بعدة قرون وهذا الراي لا تعنينا مناقشته . أما الراي الآخر فيرى ان الحريق حدث بعد الفتح الاسلامي . سوف نقف أمام هذا الراي قليلا لعلاقة موضوع الحريق بموضوعنا . ولا نستبعد ان يكون قد حصل فعلا او حصل ما يشابهه من بعثرة للكتب الموجودة في المكتبة ، نتيجة عدم جدواها للفاتحين . خاصة وان هناك رواية تقول بأن رجل من أهل الاسكندرية ، ومن قسوس الاقباط واسمه (حنا النحوي) تقرب الى عمرو وقربه الاخير بدوره طلب من الفاتح العربي نقل ملكية المكتبة الى حوزته ، وهناك احتمالان :

اما ان يكون عمرو قد استجاب لطلبه وبذلك انتهى مفعول المكتبة الفكري والثقافي وتأثيرها على عامة الناس ، فقد بقيت في خزائن ذلك الرجل ينهل منها ما يريد ويرغب . وبذلك يكون العرب قد استطاعوا اقتلاع الوجود المادي للثقافة الفكرية الرومانية ليحلوا انفسهم كبديل للروم ، ولم يكن في يدهم غير « الكتاب » وتاريخ آبائهم واجدادهم المروي . أما ترجيح الاحتمال الاخر الذي يقول بأن العرب قد اقدموا على احراق مكتبة الاسكندرية . فمن المحتمل أن يكون قد حدث فعلا ، وليس في ذلك ما يعيب العرب الى الدرجة التي تتصورها ذهنية انسان هذا العصر ، ولا نريد هنا ان نبرر مثل ذلك العمل على الرغم من تمسكنا بالراي الاول ، مع عدم استبعادنا لحصول الاخير ، فقد حدثت في التاريخ الانساني الطويل حوادث احراق واتلاف للمكتبات وللكتب تحت العديد من المسببات والمبررات والدوافع*، منها ما كان بدافع الهمجية والبربرية المحضة او بسبب ظرف ما وتحت مبررات عدة وبأهداف مغايرة . ويحدث هذا النوع من الاتلاف او الاحراق في التاريخ كثيرا ، وما زال يحدث حتى عصرنا الراهن بل ويومنا هذا ، وهو الاحراق بقصد اجتثاث الثقافة السابقة واحلال ثقافة المحتلين او الدعاة الجدد .

وكان ما كان من حادث مكتبة الاسكندرية بحجة اجتثاث الفكر الوثني من جذوره واحلال العقيدة التوحيدية محله ، ولا ننسى

ان ذلك كان في أعقاب مرحلة تاريخية انسانية مهمة انتقل فيها الفكر الانساني الى مرحلة الماورائيات والوحدانية الكونيـــة التجريدية ، وكانت ضرورة المرحلة تستدعي اتلاف كل مخلفات الماضي والذي أصبح الانسان نفسه سليل الاجيال السالفة ينظر اليه باستحيــاء فتجاوب مع حل التخلص من التركة المثقلة خاصة وانه يشعر نحوها بالمهانة والخجل . وعليه فان احتمال حدوث الحريق وارد . فقد يكون حدوثه حاصل من الدعاة الجدد ، وقد يكون من المتحمسين من أهل البلد للدعوة الجديدة ، وعلى كل فقد وجهت للثقافة الرومانية صفعة مميتة بعد أن اجتثت كتبهم دفعة واحدة ، وحل محلها الدين الجديد بفكره وثقافته المتركزة في تاريخ الاجداد وانسابهم وبطولاتهم وامجادهم العسكرية والحربية وجاء ذلك مصحوبا بسلوك مضبــط ومعاملة حسنة من قبلهم وعلى راسهم قائــدهم عمرو بن العاص والخليفة عمر بن الخطاب والذي كان يلح في رسائله على المعاملـــة الحسنة لاهل مصر ، وهم يحاولون اعادة تشكيل ذهنية الانسان المصري ونفسيته ، بعد أن تمكنوا من انتزاعها من الماضي . كانوا في اطروحاتهم النظرية يبالغون في تعظيم وتضخيم دور أجدادهم ، وما صنعوه من حضارات وقيم كما راحوا يذكروا بتفردهم في حمل الرسالة الدينية المقدسة والداعية الى التوحيد واحـــلال مباديء الاديان الجديدة وهي التي عرفت « بالسماوية » لرفع شأن انفسهم وللتقليل من قيمة ومكانة المحتلين القدامى من الفرس والروم مثبتا ذلك ومرسخا لدى الانسان المصري سلوكهم المنضبط ، والذكرى المريرة العالقة في نفس الانسان المصري من معاملات جميع المحتلين القدامى له في بلده .

كما ارادوا أن يظهروا بطرحهم ذاك والذي هدفوا من ورائه اعادة تركيب ثقافة الشعب المصري وافكاره ولتسهل عملية قيادته هو التذكير بأفضليتهم السلالية والعرقية ، خاصــــة وانهم ظلوا محتفظين بخصائصهم البدوية والقبلية ، والتي كانت وما زالت حتى يومنا هذا عند كثير من الناس تعني النجدة والمرؤة والشجاعة والكرم الى آخر الاوصاف . واقنعوا الانسان المصري بذلك فقبل فكرهم ، وقبل دينهم وتحول كثير من القبط الى الاســـلام وهم المعروفون بتمسكهم الشديد بعقيدتهم . كانت القبائل العربية الفاتحة اذن بطرحها للعقيدة ولتاريخها المرتبط بأجدادهم تروض نفسية الانسان

المصري وعلى وجه الخصوص فلاح الريف ليتقبل وجودهم في أرضه ممنونا فرحا مستبشرا بهم خيرا . راضيا بوجودهم لا كغزاة او محتلين وانما اصحاب رسالة أريد بها تحريره من كل انواع الظلم والاستبداد الذي لحق به في العهود السابقة من اولئك الغزاة .

أما الاتجاه الثالث في المطارحات فقد نحى منحا آخر مختلفا كلية عن اتجاه المطارحات التي تقدمت عليه ، ودارت بين القبائل العربية ، فقد تكتلت مجموع القبائل المعروفة بالعدنانية في جهة ، وقابلتها في الجهة الاخرى القبائل ذات النسب القحطاني اليماني ، وهي التي جئنا على ذكر بعضها فيما سبق ، مستعرضة نسبها ومفاخرة به المجموعة القبلية المضادة لها ، ومن هنا نشأت التكتلات السياسية والقبلية المعروفة في التاريخ بين القيسية والكلبية ، وكان من جملة ما طرحته القبائل اليمنية للتفاخر بعد المبالغة والتضخيم والتفخيم لتاريخ اجدادها ، أحاديث وقصص عن الحميريين والتبابعة وآخر حدث كان ما زال عالقا في ذهنها قضية نضال سيف بن ذي يزن ضد الاحباش وعلاقته بالفرس وموقف القبائل اليمنية قبل حربه ضد الاحباش واثناء الحرب وكان للجماعات القبلية سليلة آل ذي يزن وذي كلاع دورا كبيرا في الترويج لتلك القصص التاريخية خاصة وانها انحدرت من الاقيال والاذواء ، ولذلك فقد كانوا يشعرون برفعة مكانتهم القبلية ، والتي كان لا بد من فرضها اجتماعيا على القبائل الاخرى والمجتمع المصري حتى يمكن بذلك انتزاع بعض المكاسب السياسية التي استحوذت عليها القبائل العدنانية وبالذات القرشية .

بدأت المفاخرة مع بداية حدوث عملية التداخل بين القبائل العربية واهل مصر ، والتي تمت بالطرق التي سبق وان اشرنا اليها ، وبقيت تلك العملية في تفاعل مستمر تجنح اثناء تفاعلاتها الى مزيد من التضخيم والتهويل ، يتدخل في ذلك الخيال الذي يسهب في معطياته الادبية الى حد طمس الحدث التاريخي المعين والمحدد واحلال حدث آخر كان في الاصل نفس الحدث ، الا ان ما علق به من تضخيم ابدله بصورة اخرى تبدو وكأنها لا تمت للاول بصلة .

استمرت تلك العملية الترويجية التفاخرية تتنقل من جيل الى جيل تعين المتمسكين بها في صراعاتهم السياسية القبلية خاصة حين اشتد أوارها في عهد الامويين ، واذكت كثير من الحروب في مصر

وسورية والجزيرة والعراق . ذلك لانها لم تقف عند حد التفاخر بل تجاوزته الى التكتل السياسي من أجل الاحتفاظ بالسلطة او انتزاعها . اما الجماعات التي بقيت خارج السلطة فقد كانت تشعر باضطهاد سياسي لحقها من السلطة فاستعين بالامجاد كتعويض نفسي جاء نتيجة المعاناة والحرمان من ناحية ، ومن ناحية اخرى التذكير بأمجادها ودورها في الفتوحات الاسلامية ، ليكون لها نصيب من السلطة ولو جزئيا وتحت كل الظروف . كما أن الضرب على هذا الوتر كان ضروريا للالتفاف حول الجماعات التي استغلته ، ونفمت عليه للعمل على تحقيق اهدافها السياسية ، وأصبحت التكتلات السياسية تسترشد بالقبلية . فقد استعان « معاوية بن ابي سفيان » في حربه ضد « علي بن ابي طالب » ثم في توطيد أركان حكمه بالكلبية اليمانية ، على الرغم من عدم انتمائه اليها من الناحية السلالية . وحين دغدغت الاحلام والمطامع « زفر بن الحارث » في العراق استعان بالقيسيين لطرد امير تنسرين والمنتمي الى كلب ، وبعد ان بايع الامويين وانصارهم من القبائل اليمنية « مروان الاول » تصدى له القيسيون في محاولة للانقضاض عليه قبل ان يتمكن من الوصول الى دمشق وتثبيت حكمه وسلطته هناك وبقي زفر بن الحارث بمساندة القيسية . كما بقيت القيسية بزعامة زفر تناجز مروان ونظامه من العراق . واستمرت العداوات السياسية القبلية طوال العهد الاموي كما حملها الامويون بعد ذلك حتى الاندلس . وكان من الطبيعي أن يستند كل اتجاه سياسي قبلي الى خليفته التاريخية سواء كان على المستوى النظري الايديولوجي او الواقعي المادي . وقد بقيت تلك القضية متاججة حية بين الناس يتداولها الجميع في حياتهم اليومية حتى بدات حركة التاليف في أواخر القرن الثاني وبدايات الثالث من الهجرة . بدت تلك الحركة نشطة وواسعة لمساهمة مجموعة من المفكرين والمؤرخين في تكوينها وبلورتها .

القرن الثالث والتاليف :

حاول المؤلفون قدر الامكان تقصي الحقيقة التاريخية في كثير من الاحاديث والوقائع والقصص التاريخية في جو كان مشبعا الى

حد كبير بالخيال للقضايا التي جئنا على ذكرها فيما سبق ، فجاءت جهودهم الكبيرة على الصورة التي رويناها في الجانب التاريخي من شخصية سيف ، ولم يكن في الامكان تقديم أفضل مما قدم لاسباب عدة منها منطلقات المؤلف النظرية نفسها . والتي انطبعت بطـابع انحداره الاجتماعي والطبقـي والقومي على الرغم من الاطـار الحضاري العام الذي كان يجمعهم . والذي وحد بينهم نسبيا بسبب الغلاف العام الشعبي الاسطوري الذي غلف الاحاديث التاريخية وطبعها بطابعه الخيالي واللاواقعي في كثير من الاحيان ، فجاءت اكثرها وكأنها بعيدة عن الواقع تماما مغلفة بالغـلاف الاسطوري والخيالي السميك والذي اعجز اولئك المؤرخين ، على الرغم من محاولاتهم تمزيقه وتحطيمه لاظهار الحقيقة المختبئة وراءه ، وكل ما كان في مقدورهم ان يعملوه هو ما قدموه لنا في كتبهم خاصة ما جاء منها في امهات المراجع . هذااذا لم يغب عن اذهاننا انهم انفسهم قد خضعوا بهذا القدر او ذاك لتأثيرات الذهنية الاسطورية العربية ، والتي لم يكن من الممكـن ان تكون الا بالصورة التي تطالعنا في الكتب ، وهي بطبيعتها امتداد للمرحلة الفكرية الانسانية السابقـة لها والمتعايشة معها ، ونقصد بها تلك التي سيطرت على الفكـر الانساني العام الومضات المضيئة التي أنارت الطريق امام العقل الانساني المادي . وتشبعت بطبيعة الحال افكارهم بالتيار الفكري الانساني العام فلامس طرحها الخيال على الرغم من الجهود الكبيرة المبذولة في كتاباتهم .

ولقد شارك المؤلفون اليمنيون بنصيب وافر في تقص الحقائق حول شخصية سيف والظروف التي أحاطت بها وهم يدونون تاريخ اليمن أبان حركة التأليف في القـرن الثالث ، وتعب مؤرخ اليمن العملاق ابو الحسن بن يعقوب الهمداني وهو يقوم بمحاولاتـه لتحديد شخصية سيف وطبيعة دوره الوطني من جهة ومحاولة اجلاء الغموض الذي غلف حركته ، وفتح الباب على مصراعيه للاجتهادات والتخريجات الذاتية لكل مؤلف وكل راو .

لقد أراد الهمداني بجهوده الكبيرة التي بذلها ان يقترب من الحقيقة ويقربها للفكر العربي الاسلامي وللمؤرخين والمؤلفين العرب والمسلمين ، وقد أورد في ذلك عدة تعريفات في نسب آل ذي يزن والتي جئنا عليها سابقا .

ولا شك ان المؤرخ اليمني الكبير الهمداني قد بذل جهودا جبارة في تتبع سلالة سيف لمعرفة شخصيته ، ومن المحتم ان ذلك لم يأت للترفيه والتسلية او بدون هــدف لما وراء تلك العملية التاريخيــة المعرفية ، بل لقد جاءت ضمن حركة تأليف واسعة النطاق جرت في القرن الثالث للهجري واسهم فيها فطاحلة التأليف والترجمة من مؤلفي العروبة والاسلام ، وكان لا بد من مساهمات يمنية تصب في المجرى العام للنشاط الفكري والثقافي العربي الاسلامي ، ورأى الهمداني كمؤرخ يمني ان ينير الطريق بامكاناته المعرفية للموضوع اليزني فجاءت اسهاماته كاسهام يمني يصب في المسيلة الفكــرية والثقافية العربية الاسلامية للتعــريف من ناحية اخرى للاثــراء والاغناء الفكري العربي الاسلامي لهذا الموضوع . وقد اصبحت مجهوداته فيما بعد مرجعا مهما واساسيا للمؤلفين الاسلاميين الذين عاشوا بعد القرن الثالث . بل لقد اضحت كتاباته اليمنية بأسرها من اهم المراجع العربية للقضايا اليمنية . اما اليمنيون فقد اعتمدوا مجهوداته الثقافية والفكرية مراجع واسس ثقافية تاريخية شكلت العمود الفقري لكتابة اغلب التاريخ اليمني . فلم يتناول اي مؤلف او مؤرخ اية قضية تاريخية يمنية الا وعاد الى كتابات واسهامات الهمداني خاصة فيما يتعلق بالموضوع اليزني والذي جاءت اجتهاداته فيه كوقائع تاريخية حقيقية مسلم بصحتها وغير قابلة للنقاش او الاخذ والرد . ولا يمكننا ان نلمس حدود التأثيرات الهمدانية الا اذا عدنا الى كتابات المؤلفين اليمنيين المتلاحقين فيما بعــد بل وحتى اليوم . ومما له اهمية مبدئية ودلالة خاصة ان عطاء الهمداني الفكري والثقافي قد جاء في مراحل التأليف الاولى في العالم العربي الاسلامي ، وعلى مقربة الى حد ما من الاحداث المبكرة في تاريخ الحضارة العربية ، كما انه كان المصدر الوحيد للتاريخ اليمني في تلك الحقبة ، ولاجل تلك الاستفرادات مجتمعة استطاعت كتاباتــه ان تنتزع المكانة الاولى عند المؤلفين اليمنيين والعرب .

ارتاح الفكر العربي بعد ان دون تلك الاخبار في المؤلفــات التاريخية ، وحين انتهى دورها السياسي قبعت في الكتب وحصرت في الخاص بدل العام ، وتداولها المتخصصون والقراء بفهم اقرب الى الحقيقة الموضوعية ومجرد الى حد ما من الخيال والاسطورة بدلا من التداول العام البعيد عن الحقيقــة والمقترب كثيرا بحــكم

الحمدانية في حلب ضد الفاطميين لدفع خطرهم ، وكانوا بذلك أول من عقد حلف مع اجنبي لا يربطهم به دين ولا رابط قومي ، كما انه كان تحالفا بقصد دفع خطرتربطهمبأهله صلات قومية ودينية .

في ظل هذه الظروف السياسية المضطربة ازدهرت العلوم والاداب والفنون ووصلت موجة التأليف والترجمة اقصى مداهـــا ، وخرجت القصص والاحداث التاريخية مجددا من الكتب الى حياة الناس العامة لتؤدي دورها السياسي المختلف الان عن دورهـــا الســـابق . فوجهت بحسب الحاجـــة وكيفت على حجم الاوضاع والاحداث ، خاصة وان الشعوب وبالذات العربية اضحت بحاجة لمنقذ في ظل الاوضاع الساقطة مقدراتها في القواد والدهاقنة من الشعوب الاخرى بروحهم الشعوبيـــة ، ليس ذلك فحسب بـــل والامبراطورية التي شيدها الاجداد ممزقة الاوصال والاطراف . والحكام والخلفـــاء المسلمون والعرب يقاتلون بعضهم بعضـــا ، والثورات الداخلية المتعددة المشـــارب والاهواء ، والتحالفـــات المشبوهة بين حكامهم وحكام الافرنج تعقد لنصرة الاجنبي . أخرجت هذه الوضعية سيفا كما أخرجت غيره من ابطال العرب والمسلمين من كتب التاريخ المحصورة في الخاص الى التداول العام مرة أخرى ، لتوجه هذه المرة ضد الشعوبية الفوضوية الداخلية والعشوائيـــة والغوغائية والطيش عند الحكام العرب الذين مزقوا الامبراطورية فؤادوا الامل ووأدوا الكرامة . انتفض الخيال الشعبي ليبحث عن الكرامة والعقل والاتزان والحكمة فلا يجدها الا في الاسلاف الذين نامت سيرهم في كتب التاريخ . فانبرى سيف يناجز اهتراء الاوضاع السياسية .

على صعيد الادب والثقافة ، فبعد ان تزاوجت الثقافة العربية بالثقافات الاسلامية الاخرى تجـــاوزت البوذية الخصبة الخيـــال الحدود الجغرافية للهند ، فدخل الفن القصصي الهندي الى الثقافة الاسلامية فاشبعها بخصوبته الخيالية . فألفت القصص الخيالية وكتبت الكتب وحفظت النوادر ، وكان ممن سبق في هذا المضمار الجاحظ في كتابه « الحيوان » ، كما صيغت حكاية الف ليلة وليلة وســـيرة سيف وغيرها من القصص التي كان في الامكان اطنـــاب الخيال فيهـــا باسلوب بلاغي مسجوع . ومـــع تفاقم المشاكل السياسية كانت الحاجة تزداد الى ذلك النوع من الزاد المعنوي

والنفسي ومع تدهور الاوضاع كان الاغراق في الاداب القصصية الخيالية يتفاقم فتنتشر على مستوى العامة ويهبط مستواها الادبي بعمد او بغير عمد حتى تتمكن الجماهير من هضمها واستيعابها وتداولها . وكان ذلك في القرن الخامس من الهجرة وهو القرن الذي شهد تمزق الامبراطورية الاسلامية وانحطاطها وانتهاء هيبتها بين الشعوب الاسلامية .

في أواخر القرن الخامس اضطربت الاحوال كثيرا في العالم العربي والاسلامي ، وعلى وجه الخصوص في مصر . فقد حكمها من العبيديين حكام ضعاف النفوس متخاذلين اشد التخاذل مكنوا العدو الاجنبي من الديار المصرية والعربية فتسلل الافرنج في ضوء المؤامرات الداخلية لاولئك الحكام من صقلية الى مصر وبلاد الشام وفلسطين ، حين وجدوا الظروف مواتية بل على احسن ما تكون . بدأوا يملون شروطهم على الاطراف المتنازعة المتخاصمة ، وحالوا دون وصول السلجوقيين لتحقيق أهدافهم ، ومنعوهم من العبور من خليج القسطنطينية الى الشرق العربي حتى تسلم انطاكية اليهم . فأذعن الحكام الضعفاء لشروط الاجنبي بعد ان مد له العبيديون أيديهم وتعاونوا بل وتآمروا معه .

بدأ الافرنج يجنون ثمار الخلافات العربية الاسلامية في الشرق، وقد دنى قطفها في انطاكية اولا فسلمت دون ان تكلفهم كبير عناء ، في وقت دفع فيه المسلمون الاف الضحايا والابرياء ، وقد احسوا بنضج الثمار في الوطن العربي فساروا الى معرة النعمان وحاصروها حتى سقطت فاستباحوها كما حلى لهم فلم يكن هناك ما يخيفهم او يردعهم او يمنع ارتكاب الفظائع ، والجرائم . فالواقع العربي ممزق تتجاذبه شتى الاهواء لشتى الامزجة المتربعة على كراسي الحكم والسلطة في كل دويلة على حده . سلكت الطريق امامهم فساروا الى غزة فامتنعت عليهم وشكلت بذاك الامتناع سدا وقف في وجه اطماعهم التوسعية فعجزوا في حمص كما عجزوا في عكا . في ذاك الوقت كانت القدس تعاني من التنافس والتطاحن السلجوقي ــ الفاطمي ، اما منطقة الرها فقد خرت على قدميها امام الافرنج فأعملوا السيف في رقاب أهلها وقتلوا ، كما تقول الاخبار التاريخية ، سبعين الف مواطن في اسبوع الاستباحة ، ونهبوا ما أمكن نهبه وحمله من خيرات البلد . كل ذلك وبغداد عاجزة لظروفها الذاتية

يسترد من المسلمين ما استولوا عليه منـــه فاستسلمت الرميلة لهم ٥٢٠هـ .

تغير ميزان القوى بعد ٥٢٠ لصالح القوى العربية الاسلامية فاستولى صاحب انطاكية « اسمند » على حصن القدموس وهــزم صاحب طرابلس ، وتمكن « شمس الملوك اسماعيل » حفيد طغركين من استرجاع بانياس وشقيف بيروت واكتسح طبرية والناصرة وعكا فأفزع ذلك الافرنج فسارعوا بعقد هدنة معه ، استردت سوريــا انفاسهابعد سلسلة الحروب والمعارك المتواصلة ، اما الافرنج فقد اداروا وجوههم هذه المرة شطر افريقية ، واستولوا على جربه وهي مدينة تقع بين طرابلس الغــرب وقابس ، ثم وضعوا أيديهم على طرابلس نفســهــا ٥٤٧هـ . وفي طرابلس لعبــت القضايا والامــور الشخصية دورا كبيرا في السياسة العامة للحكام وحركت كثير من الاحداث ، فكان من نتيجتها فتنة داخلية وقمت ضحيتها المهدية ودخلها الافرنج دون عناء .

الاوضاع في مصر :

عاشت مصر أيام حكم المستنصر اوضاعا متردية فقد ضربها ، القحط والوباء بقسوة وهي المعطاء دوما ، فغلت المواد الاستهلاكية غلاءا كبيرا لندرتها بعد ان انقطع ماء النيل ، واشتد الجوع بالناس حتى اكلوا موتاهم ، وكما تذكر كتب التاريخ ، فقد كان يموت كل يوم عشرة الاف انسان . وتوسعت رقعة المصائب فزحفت على الشام ثم انتقلت الى بغداد فجاع اهل دجلــة كما جاع أهل الفرات وبــردى والنيل . ولم يقف البلاء عند حد الجوع بل حمل معه كافة الاوبئة ، ففتك الطاعون ببخاري وسمرقند وبلخ ، ثم انتقل في النصف الثاني من القرن الخامس الى الحجاز واليمن ، وعمل هناك عمله ، وعاد الى مصر ٤٥٦هـ ليعشعش بها ويفرخ فيقتل كل يوم ألف انسان ، وتعاون القحط والجوع والنظام القائم في مصر على الشعب المصري .لم يكتف المستنصر بالبلاء الذي أصاب مصر بل راح يستزيدها فدخل في معارك طاحنة مع « المعز بن باديس » في المغرب بعد ان ابطل الدعوة لهم وتحول بولائه للقائم بأمر الله العباسي . وتطاول الجميع على حكمه . استمرا الغلاء والقحط يفتكان بمصر منذ عام اربعمائة وثمان وأربعين

حتى العقد السابع من ذاك القرن وازداد الغلاء حدة وخرج عن الحد فبيع اردب القمح بثمانين دينارا . انعدم وجوده سنة ٤٦١هـ من الاسواق نهائيا ، وحين وصلت الحال الى تلك الصورة المأساوية تمرد عليه ولاته في الجزيرة وابطلا صاحبا مكة والمدينة الخطبة باسمه .

يتتابع الدمار والخراب على أرض الخلافة الفاطمية من كل جانب ، وكائن البلاء يجر ورائه الف بلاء ودمار ، فقد اصيبت الرملة بزلزلة هائلة هلك من أهلها خمسة وعشرين الف مواطن . كل ذلك والمستنصر غارق في اللهو والشرب والطرب ، كأن شيئا لا يعنيه فلم يكن يهمه ما آلت اليه البلد من بلاء عظيم . فلم يقف عبثه عند حدود بل توجه بأن أمات العلم وقتل العلماء ، وكانت أشهر حادثة وقعت لهم مقتل العالم « بن ابراهيم العلوي » فقد مزقه وزير الدولة « بدر الجمالي » ، وسلخ جلده مع رغبة خليفته واقتداءا به في معاملة العلماء من أهل ذاك العصر .

لقد دفعت سلوك المستنصر بالولاة الفاطميين دفعا للتمرد عليه وليت القضية وقفت عند ذاك الحد ، بل لقد استنجد بعضهم بالافرنج وتجاوزوا كولاة مهترئين حدود الاستنجاد فسلموهم مدنهم ، كما فعل والي صقلية حين سلمها لهم ٤٦٣هـ .

وامعانا في تحقير الشعب المصري وتمزيقه ، فقد فتن بين أهل الزمة والمسلمين فاقتتلوا وهم الاخوة واوجد الفرقة واصطنعها حين « الزمهم بلبس الغيار والزنانير وتعليق الدراهم الرصاص في اعناقهم مكتوب على الدراهم « ذمى » وتجعل هذه الدراهم ايضا في اعناق نسائهم في الحمامات ليعرفن بها ، وان يلبس الخفاف فردا اسود وفردا احمر ، وجلجلا في أرجلهن » تلك كانت حال مصر في عهد المستنصر .

وتتابعت المهازل على عرش الخلافة في مصر فجاء عام ٤٨٨هـ « المستعلي » . فكان مجرد دمية في يد « الافضل » فقد أتى به الى الخلافة وأجلسه على عرشها ، بعد ان طارد اخيه الاكبر « نزار » . تنقلب المقاييس والقيم السياسية فيحكم الوزير الخليفة ويسيره كما يريد ويشاء . فخارت قواها ويصيبها الضعف فتمرد عليها الداخل وطمع فيها الخارج ، فسقطت مدنها بيد الاتراك والافرنج الذين أخذوا انطاكية ٤٩٠هـ ، ثم الحقوا المعرة بها بعد سنين من الزمن ، كما وقعت القدس في ايديهم في نفس السنة ، واستشهد من أهلها ما

عشر سنوات ، لم تنجدهم فيها مصر رغم حاجتهم الضرورية والقسوى للنجدة العسكرية والمؤونة الغذائية ، حتى كادوا ان يهلكوا جوعا . فتفرقوا بين غزة ودمشق ، ودخل الافرنج البلدة خالية من أهلها خاوية على عروشها . وبالغ حكام مصر المنهارين في خذلان الشام فتواطئوا مع العدو الخارجي وحملوا والي دمشق « سيف الدولة مسعود » الى مصر تسهيلا لمهمة الافرنج ، وضربوا بذلك الاماني القومية المتعلقة بهم في الصميم .

اتاح اهمال الفاطميين لامور الدولة على عهد خلافة الآمر للافرنج فرصة ذهبية ظلوا طويلا يحلمون بها ، فلم يكتفوا بما أخذوا ، بل واصلوا زحفهم على بقية المناطق الساحلية آملين بالوصول الى مصر نفسها وتركيعها . وبدأ « بغدوين » حسب الخطة الموضوعة الزحف من القدس الى عكا ثم حاصر صيدا من البر والبحر وقد صمدت مع واليها « زهر الدولة الجيوش » رغم خذلان مصر ، وسقطت في تلك المعارك اغلب المدن الساحلية ، وتابع الملك « بردويل » الخطة فشارف على السواحل المصرية نفسها فدخل « الفرما » وهي مدينة مصرية تقع في الجهة الشرقية من بحيرة المنزلة واحرقها . وقد صالح الافضل بردويل لعجزه عن منازلته قبل مقتله .

جاء الى الخلافة الفاطمية ثامن خلفائها العبيديين الخليفة الحافظ لدين الله في ٥٢٥هـ وبلاد الخلافة ممزقة محطمة ، والافرنج يحتلون اجزاء كبيرة منها ، وشعوب الخلافة في قمة تذمرها واستياءها ، وكان لا بد من لملمة الاوضاع قبل الانهيار الكامل والمؤكد الذي كان ينتظر الخلافة الفاطمية . فعمل الحافظ قدر جهده على تغيير الأحوال السياسية المنهارة واستطاع ان يحشد ويعبأ الطاقات المصرية والعربية للوقوف في وجه الزحف الاجنبي الشرس ، فانقلبت الموازين وتغيرت الاحوال فاذا بالافرنج في موقع الدفاع بعد ان استردت مصر زمام المبادئة والهجوم واعتمدت استراتيجية متحركة هجومية فأسرعت بحملة كبيرة لنجدة والي عسقلان تمكن بها من ايقاف حركة الافرنج وتغلغلهم ، وخلق ذلك الامل في النفوس ، وأعاد الثقة بالقدرات الذاتية للخلفاء الفاطميين فتحرك ٥٢٧هـ « شمس الملوك بن تاج الملوك بوري ابن الاتابك طغتكية » وهاجم الافرنج في بانياس ودحرهم منها مسترجعا اياها للحظيرة الفاطمية في مصر . وتبعه ٥٣٩هـ « زنكي بن امن سنقر » فخلص الرهاه من أيديهم بعد حروب

ومعارك طاحنة ، ثم افتتح « نور الدين محمود » صاحب الشام ٥٤٢هـ حصن ارتاح وغيره من الحصون الشامية واستعادها من الافرنج بقوة السلاح ، وكان هذا اول أمر الفتوحات الزنكية الايوبية .

هزلت الخلافة الفاطمية بعد موت الحافظ كثيرا فنصب الصبيان والاطفال وتولى عرشها بعد « الحافظ » « الظافر » ابن السابعة عشر عاما ثم « الفائز » طفل الحضانة ومن بعده « العاضد » وترامى بهم مستوزريهم ذات اليمين وذات الشمال ، ثم تخلصوا منهم بصور مفجعة ، فمات الظافر مقتولا ، ومات الفائز تحت نوبات الصرع التي اصيب بها يوم توليه الخلافة طفلا . اما ثالثهم وكان الاخر فيهم فقد اختلفت الروايات في موته الا انه مات متأثرا بهمومه وهو بعد لم يزل شابا لا يتجاوز من العمر الثلاثة والعشرين ، وقد استوزر له كما تذكر الكتب التاريخية « شاور » بعد ان قتل المستولي على السلطة فيها « رزيك » ابن الملك « الصالح » طلائع بن رزيك ، وكون رزيك وهو في السلطة بطانة على راسها امير يقال له الضرغام فتنازع السلطة في ظل حكم الخليفة الشاب كل من « شاور » و « الضرغام » واستنجد شاور « بنور الدين محمود بن زنكي بن ان سنقر » فأرسل لـه « أسد الدين شيركوه بن شادي » عم « صلاح الدين » .

سار أسد الدين لنصرة شاور ضد الضرغام ، كما توجه نور الدين الى دمشق ليشغل الافرنج عن اسد الدين في خطة عسكرية محكمة اريد بها تغيير مجرى الامور السياسية المتردية ، وهزم الضرغام وكان ذلك أول الغيث لمصر وللامة العربية ، على الرغم من خيانة شاور فيما بعد لمنقذه اسد الدين ، وتعامله مع الافرنج ، وليس ذلك ، فحسب بل وقد بذل لهم المال لاستعمار مصر مستهينا بكرامة الشعب المصري ، ضاربا في سبيل اطماعه واحلامه الشخصية في السلطة الاخوة العربية الاسلامية طاعنا الظهر الذي امتد اليه لينقذه ، وسارت جيوشه بجانب جيوش الاستعمار الافرنجي لقتال أسد الدين فحاصروه في بلبيس ثلاثة أيام الا انهم لم يظفروا بشيء ، بل وقد فشلت المؤامرة الانهزامية ، حين شدد نور الدين ضرباته في الجهة الشرقية ، فهزم أصحابهم على أبواب مدينة خارد وفتحها ، وبعد معارك ضارية ومتفجرة في كل مكان ضد الحلف الثنائي الافرنجي والشاوري دخل أسد الدين الديار المصرية منتصرا واضعا لمهزلة السلطة حدا بقتله شاور ، وارغم الافرنج على التقهقر الى الوراء ،

اليمن ودولة الخلافة ثم المزاج الفردي للحاكــم او الوالي ، واخيرا بحسب ظروف خزانة الدولة وميزانيتها غــير ثابتة او المستقرة ، والمتحركة بطريقة تنازلية تصاعدية علــى حسب الدخل القومي المتذبذب لليمن ، وتذكر الوقائع التاريخية حــوادث حربية عديدة وقعت بين بني نجاح والصليحيين ، وبين بني المهدي وبني نجاح . كما تذكر الاخبار الضغوط المتزايدة التي مارسها آل الصليحي ضد بني نجاح واضطر فيها سعيد الاحوال والى زبيد الى الهرب متجها صوب الحبشة فالهند عائدا من جديد الى عاصمة دولتهم زبيد .

في تلك الاثناء، نجد انفسنا مضطرين بما فرضه علينا البحث ان نتجاوز التسلسل الزمني للاحداث ، برزت دولة عشائرية قبلية اخرى هــي دولة بني رزيع في عدن وكان مؤسساها وهما «العباس» والمسعود بني « المكرم الصليحي » بالتبني قد خرجا عن طاعته بعد ان ولاهما اجزاء ومدن من البر والبحر ، واهم تلك المدن مدينة عدن وضمــا القسمين ليؤسسا دولة بني رزيع وجعلا عدن عاصمة تلك الدويلة، وقد تداول الحكم فيها احد عشر سلطانا واميرا ، في فترة لا تتجاوز الثمانية عقود ممتدة من ٤٧٠ هـ الى ٥٦٩ هـ .

اما دويلة بني المهدي القصيرة العمر والاجل فقد اسسها علي بني المهدي على انقاض الدولة النجاحية وقد حاول سلطانها الثاني توسيع رقعتها الجغرافية فبالتوسع تكبر الدولة بشكل اخطبوطي يمكنها من البقاء والاستمرار ، خاصة وان جذورها كانــت واهية التأسيس ، وان الميل العام للتوسع والذي ينتقل من مدينة الى مدينة سيزداد ليشتد عود الدولة . الا ان عملية الضم والتوسع لم تقوي الدولة الضعيفة بل عجلت في فناها فلم تتمكن من الصمود او البقاء اكثر من عقد ونصف من الزمن . خارت وتحللت جذورها الضعيفة أمام اول ضغط حقيقي اصابها قدم من مصر لينهي واقــع التجزئة والكيانات الصغيرة المزقة المهترئة . فقد احس القادم اهمية اليمن الجغرافية والبشرية في تلك الفترة ففي اليمن طاقات بشرية اكتشفها القادمون من خلال علاقات اليمن السابقة بالدولة السابقة العهد عليهم في مصر فقد ارتبطت اليمن بمصر في عهد الخــلافة الفاطمية والحكم الصليحي والذي جاء متوجا لتلك العــلاقة العضوية بين الدعوة في اليمن ودعوة الفاطميين في مصر بل ، ولقد مثلت اليمن حلقة من الحلقات المهمة الرئيسية للدعــوة الام فقد ارسل المستنصر العبيدي علي بن محمد الصليحي الى اليمن للتبشير بالافكار الفاطمية

لربط اليمن عضويا بمصر وواجه الفكر السياسي الجديد مقاومة كبيرة وشديدة من الكيانات الصغيرة القائمة انذاك التي اتينا على ذكرها سابقا ، مضيفين اليها الهاشمية المسيطرة على صنعاء ودمار خاصة حين لمسوا في تلك الدعوة اخطار سياسية كبيرة فهي ليست فقط دعوة عقائدية من دون حركة ديناميكية سياسية بل هي اولا تلك الحركة السياسية المتحركة بنشاط وفعالية الفكر العقائدي . الا ان داعيه العبيدي استخدم جميع تكتيكات ذاك العصر ، فمن الدعوة الى اصلاح البلاد الى الدعوة لاقامة الشريعة الاسلامية بسلوك وممارسة فعلية ونشاطات يومية حتى تمكن في عام اربعمائة وتسع وثلاثين تأسيس اللبنه الاولى في الحكم الصليحي الفاطمي داخل اليمن .

تجنب الصليحي اثناء حكمه الاخطاء التي وقع بها دعاة الدعوة الاسماعيلية الاول في اليمن بزعامة علي بن الفضل القرمطي والامام المنصور ، مستفيدا من دروس الماضي منتهجا منهجا مغايرا تجنب فيه الميل الى العنف والدعوة ما زالت في ايامها الاولى فدخل الناس باسلوب ذلك العصر . حيث كان يبدو ان النوازع الدينية هي المتحكمة ، بل ، والمسيرة لحياة الناس والمتنفذة في اذهانهم ، وترجم فكرته الجديدة في سلوكه فتراس مرارا قوافل الجميع الى مكة ، وفض نزعات القبائل وزعمائها ، واصلح بين الناس باسلوب ديني تقليدي كان يتقرب به الى قلوب الناس ليطرح دعوته عليهم كاتما في نفسه مقاصده الحقيقية ، وما ان نضجت الظروف الموضوعية حتى سار الى جبل مسار بحراز وهو احد الجبال الحصينة بالطبيعة في اليمن فتحصن بها وايدته قبائل بني همدان العلية المذهب فكون جيشه منهم ، ومن القبائل والافخاذ الصغيرة المتعاطفة معه ، وبدأ يصول ويجول في الساحة اليمنية مبتدئا بابن جهور وجعفر بن الامام القاسم فهزمهم ، وانهى حكم بني يعفر في صنعاء فسقطت والعاصمة التاريخية الروحية للشعب اليمني وكان من الطبيعي بعد الاستيلاء عليها ان تتساقط المدن اليمنية بين يديه الواحدة بعد الاخرى .

ان الانتصارات التي حققها الصليحي في اليمن رفعت مكانته الشخصية عند فاطميي مصر ، وعلى راسهم المستنصر الذي سبق وان اضاع حدود الرقعة الجغرافية للخلافة الفاطمية بسبب ضعفه، وقد اشرنا الى ذلك سابقا فكلفه امر مكة فتقبل الصليحي بذهن

متفتح الاوامر السياسية ، وسار الى مكة وهو العارف بشعابها للعلاقة الوطيدة السابقة بها ودخلها ٤٥٥ هـ فتغيرت احوال البلاد كثيرا ، وانتقلت من مرحلة الانهيار الاقتصادي الكامل اثر موجة الغلاء والوباء التي اجتاحتها ٤٥٣ هـ الى مرحلة انتعاش اقتصادي مثله توفر المواد الاستهلاكية ورخص الاسعار ، وكما تذكر الاخبار التاريخية فان الصليحي اظهر مرونة في الحكم وعدالة في التنفيذ ، فاطمئن اليه الناس واطمئن اليهم فلم يحتاط في الحراسة ، مقتنعا بان ما قدمه للشعب اليمني وشعب الجزيرة العربية كفيل بحراسته ، ناسيا الجبهة المضادة ، والتي احست بخطره في اقتلاع جذورها من الارض اليمنية فكمن له الاحوال النجاحي في طريق مكة وقتله وجميع افراد عائلته الذين كانوا في صحبته . اشعل القاتل بفعلته نار فتنة داخلية بعد ان اطفأ الصليحي بحنكته السياسية وقوته وصرامته في الحكم ، ما كان مشتعلا في ارض اليمن والحجاز .

جر الاحوال على عشيرته بلاء كبير فقد حمل عليهم المكرم بن علي الصليحي حملة كبيرة فقتل منهم اعداد هائلة اخذا بثأر ابيه ثم تولى مقاليد الامور في اليمن وحاول على قدر امكانه الاستمرار في سياسة ابيه ومتابعة خطته . فحكم اليمن اكثر من ربع قرن ليأتي بعده السلطان سبأ بن احمد بن المظفر سقطت صنعاء في قبضة بني حاتم مؤسسا حكمهم هناك حاتم بن على المغلس الهمداني ، واثار ذلك اطماع الائمة الزيدية من جديد بعد ان كانت مطفأة في حكم علي بن محمد الصليحي وابنه المكرم

اشتبك الائمة مع بني حاتم في العديد من الحروب قادها عن جانبهم الامام المتوكل احمد سليمان رافضا مد نفوذه الى صنعاء واسقاط حكم بني حاتم هناك . بعد ان لمس ضعف السلطان حاتم بن احمد سادس سلاطينهم ، واستطاع ان يهزمه هزيمة نكراء على ابواب صنعاء وادخله في طاعته بعد ان استسلم له كلية ، وحاول ابنه علي الابقاء على حكم بني حاتم في رقعة صغيرة من اليمن وساعدته الطبيعة في ذلك حتى جاء الايوبيون فاقتتل الطرفان ثم اصطلحا .

وبقي الموقف مراقبا من الائمة الزيدية الذين كانت قوتهم بين المقدام يوسع رقعة سلطانه الجغرافية ، ومن ثم السياسية وينكمش المد والجزر بحسب طبيعة امامهم ومواصفاتهم فالامام الشجاع

على نفسه الامام الضعيف او المستضعف فتنكمش معــه حــدوده الجغرافية ويتقلص نفوذه السياسي . وقد وجد الامام المنصور عبدالله بن حمزة وهو من اشهر ائمتهم الفرصة المناسبة للانقضاض على السلطان علي بن حاتم قبل ان يتمكن الايوبيون من توطيد حكمهم في اليمن فهزمه شر هزيمة وامعــانا في الاذلال واظهــار الجبروت الامامي فقد ادخله تحت طاعته كما جرت عادة اولئك الائمة بانه يدخله ضمن ممتلكاته والتي تتحكم في سعتها وانكماشها مواصفات الامـام الذاتية الشخصية .

أما الدولة الصليحية فقد اعطت لليمن بعد السلطان سبأ المع اسم في تاريخ اليمن الوسيط ، وقد لمع ذاك الاسم الكبير لما قدمـــه لليمن من عطاء ، فقد استقرت الاوضاع السياسية في ظل حكم تلك الشخصية الى حد كبير ، وانتعشت الحيـــاة الاقتصادية وازدهرت الثقافة واستقرت حياة الناس الاجتماعية ، وشعروا بحماية الدولة ورعايتها لشؤونهم فقد احتضنت الشعب اليمني وعملت على تخليصه من محنته السياسية ، القائمة على الفتنة الداخلية المستمره .

حكمت الملكة « أوري بن احمد » اليمن قرابة اربعين عاما حين كانت هي الآمر المباشر وحكمته من وراء الستار حين كان زوجها المكرم هو السلطان ولقد اتاح لها الامتداد الزمني السلطوي ان تحل وتعالج قضايا اليمن المعقدة باتزان وروية وتعقل ، خاصة ما يتعلق بالعلاقات الخارجية لليمن ، وعلى وجه الخصوص العلاقات اليمنية المصرية فعملت بكل ما في وسعها على ان تكمل مشوار زوجها وأبيها محافظة على استقلال اليمن الذاتي فلم يكن في الامكان خضوعها أو المجازفة باستقلال اليمن ورميه ليسقط بين أيدي حكام مستضعفين « كآمر باحكام الله منصور » ورسلهم في اليمن فقد ضربت وبقسوة حين حاول « نجمت الدولة المصري » التمرد عليها والاستقرار بما تحت يديه من ولايات ومناطق ، وارجعته الى حظيرتها ليأتمر بأمرها لا بمزاجه الشخصي او حسب اهواء مرسليه في مصر . فقد كان عليه ان يلتزم بالقضية التي جاء من اجلها من مصر وهي الدعوة الدينية المجردة فقط .

ولقد حملها التمادي على الحذر والحيطة ، والعلاقة المحدودة مع نظام الخلافة في مصر ، واصبح الجانب السياسي الى حد كبير بعيد التأثير والتاثر . فقد كان لنظام حكم الملكة وزنا كبيرا في المنطقة ،

وكان اكبر من الانظمة المتهاوية في مصر ، فلقد استطاعت الملكة ان تفرض نظام مركزي في اليمن منذ ان شق اليمن عصا الطاعة عن دولة الخلافة في بغداد . كما تمكنت من ان تفرض هيبة للدولة بعد أن كانت سمات الحياة السياسية في اليمن ، التمادي عليها بسهولة بل وعنجهية من قبل القبائل والعشائر وحتى الافراد . ثم كان ما تبع الاستقرار السياسي من نهوض وازدهار على كافة الاصعدة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية . في وقت كان العكس هو الصحيح في مصر ، مع أخذنا بعين الاعتبار الفترات المزدهرة التي صنعها بعض من الخلفاء الفاطميين ، لذا فمن المستبعد للغاية التبعية السياسية لمصر ، واصبحت العلاقة بين مصر واليمن متكافئة ، كما بقيت العلاقات الاقتصادية والثقافية في استمرارية بل وصعود دائم فقد استفادت اليمن منها بصورة مكثفة . خاصة اذا ادركنا ان الاقليم اليمني في عهد الملكة عاش افضل فترات تاريخه الوسيط اقتصاديا وثقافيا ، فلاول مرة تربط اليمن كدولة ونظام بعلاقات تجارية منتظمة مع دولة اخرى ، وصحيح ان ذلك قد جاء بفعل الصلات الروحية والعقائدية بين النظامين الفاطمي والصليحي والذي هو جزء منه .

ان العلاقات الاقتصادية والثقافية مع مصر قد قامت وقويت وانتظمت في العهد الصليحي خاصة مع الظروف الجديدة المتشكلة مع الصراع الفاطمي السلجوقي ، والذي كان من نتيجته قفل الطرق البرية المارة عبر الشام فأرض الرافدين ثم ايران الى الهند ، وفتح الطريق البحري عبر باب المندب عدن الصليحية الى الهند والشرق الاقصى فانتعشت الموانيء اليمنية من تجارة الترانزيت بعد خمول وانعدام لحياة التجارة فيها دام قرون طويلة منذ تحطم الحضارة اليمنية وانهيار الازدهار والتمدن في القرن الثالث والرابع من الميلاد ، اي قبل الاسلام بقرنين او يزيد قليلا من الزمن . وبعد ان تحولت الطرق البحرية وعادت من جديد الى البر الملكي والشواطيء الافريقية الموازية للشواطيء اليمنية ، منذ تلك الفترة والشواطيء اليمنية تعاني الكساد التجاري . ولم يعد يجني منها اليمن اي دخل قومي ، واصبح استعمالها محدود في اطار اليمن وداخل حدوده اي للانزال البضائعي الداخلي ليس الا . وتعد الموانيء اليمنية ذات اهمية حين تستخدم للخارج كمحطات ترانزيت ومرور لما تمتعت به من موقع ربط بين البحرين ، وتواصل مع الثالث المتوسط ابان الحكم الصليحي والفاطمي

واشراف الفاطميين على البحرية متقاسما متواصلا مع الصليحيين بالبحر الاحمر . ومع استقرار النظام الصليحي وتعقيدات النظام الفاطمي السياسية ثم حاجته للموانيء الحساسة والمهمة وبمساعدة ذاك الارتباط العقائدي الى جانب الظروف الذاتية والمساعدة في النظام الصليحي عادت الحياة للموانيء اليمنية وخلقت علاقات اقتصادية قوية ومتينة بين اليمن ومصر ، بحكم المصالح المتبادلة من جهة ، وتحت تأثير العلاقات العقائدية ثم السياسية من جهة ثانية ، فقويت وانتظمت الارتباطات الاقتصادية ولحقتها ارتباطات ثقافية بين البلدين لحاجة اليمن اليها وغنى مصر فيها ، فوصل اليمن العلماء والفقهاء ، مكنوها من النهوض الثقافي . فانتشرت المدارس ودور العلم والمساجد الكبيرة بفقهائها المتضلعين في علوم ذاك العصر واحتضنت « جبلة » عاصمة « الملكة اوري » النهضة العلمية وما زالت آثارها باقية حتى يومنا هذا .

كان من جراء العلاقات الثقافية بين البلدين موضوعنا الذي نحن بصدده اي انتقال السيرة الشعبية الى اليمن من مصر حيث نشأت نتيجة الظروف السياسية التي عاشتها مصر ، والتي اتينا على ذكرها سابقا ، الحاجة الى بطل يخرج الاوضاع العربية من مآزقها الذاتية والموضوعية الداخلية والخارجية وبحث الذهن الشعبي في ذاكرته التاريخية عن المنقذ فاختار سيف بن ذي يزن لاعتبارات عده تستحق منا الوقوف امامها على سؤال يبدو أما الجميع ملحا .

الاختيار الشعبي لسيف : سيف في القرن الخامس

لماذا اختير سيف بالتحديد ليكون هو البطل الشعبي في السيرة المتنفس الامل ؟؟ لقد كمن وراء التحديد الشعبي العديد من الاسباب ، التي كان يدرسها الشعور الشعبي ، فقد كانت في اعماقه الجمعية ، وحين دعت الضرورة تم استدعائها فاذا بها تتحدد بجوانبها الموضوعية والذاتية في الظروف السياسية المتشابه بين مرحلة ما قبل الدعوة الاسلامية في الجزيرة، واواخر عهد الخلافة الفاطمية وقبل الاجتياحات الخارجية . فقد عاش الوطن العربي في العهدين الجاهلي ، كما تعورف على تسميته ، والفاطمي نفس ظروف التمزق فقد خضعت مصر لبيزنطا والتي سيطرت كذلك على الساحل الشرقي للبحر

الابيض المتوسط ، واستسلمت العراق لفارس اما المناطق التي لم تكن خاضعة الخضوع المباشر في الشام والجزيرة وخليجها او الجنوب فقد اعطت ولاءاتها لهذه الامبراطورية او تلك وارتبطت معها حماية ودفاع فأعطت قبائل الشام العربيـــة الولاء لبيزنطا وربطت بهـــا وجودها وديمومة بقائها واستمرارها بصرف النظر عن كيفية ذاك البقاء والاستمرار .

لقد حافظت الدولة الحامية والمحتضنة على وجود القبائل من حملات الابادة التي كانت تشنها القبائل ضد بعضها او تلك التي كانت تأتي بجيوش امبراطورية ضخمة بقصد التأديب ، كما كان يحـــدث باستمرار من قبل الاحباش الموالين لبيزنطا تجاه اليمن وقبائله ، وقد تتطور الحملات الى الابادة لتأمين اطراف الامبراطوريـــة او للضم الجديد والذي كان يحدث باستمرار ، ولم يكن امام تلك القبائل الا ان تعطي ولاءها للدولة الكبرى المحاذية لاراضيها او المحتلة لها ، كما اعطى الغساسنة في الشام الولاء لبيزنطا ، فوفرت لهم الحماية ساعة حاجتهم اليها ماديا ، ومنحتهم الشعور بالطمأنينة النفسيـــة الدائمة طالما بقوا على ولائهم لها . وكذلك فعلت فارس بالنسبـــة لقبائل الخليج ، أما قبائل الجزيرة العربية وجنوبها فقد قدمت لهم الطبيعة الحمايـــة اولا بوضعهم الجغـــرافي البعيـــد عن سطـــوة الامبراطوريتين العظميين ثم لوعورة المسالك اليها ان قربت الاطراف او تاخمت الوجود الامبراطوري المعني فشكلت وضعية القبائل في الجزيرة وجنوبها كيان مستقل اندرجت فيه كيانات صغيرة كثـــيرة مستقلة بنفسها ، فعاشت تلك الكيانات متقاتلة حينا متقاربة بحسن جوار وصلات دم ورحم حين آخر .

ان التبعثر والتمزق في الارض العربية كان قائما ومكرسا بل ومبررا له كذلك نفسيا ، فقد اعتنقت بعض القبائل النصرانية كما حدث في الشام ومالت الاخرى لليهودية كما حدث في جنوب الجزيرة حين اعتنقها الحميريون ، وبقيت قبائل الجزيرة ووسطها على وثنيتها، ومالت قبائل الخليج الى خليط من الاديان سيتغلب عليها بطبيعـــة الحال ديانة الامبراطورية الحامية فارس . تلك كانت أجواء الوطن العربي قبل مجيء سيف بن ذي يزن بايجاز شديد فما هو واقـــع الحال الموحي لعودة الروح اليه ، واختياره بطلا لفترة زمنية بعدت كثيرا عن فترته الا انها اقتربت من حيث طبيعة الاوضاع السياسية

التي سادت في تلك الفترة الزمنية المتقدمة اي في العهد الفاطمي مع الاوضاع السياسية التي افرزت وجوده ونضاله الحقيقي والواقعي .

ان المتتبع للاوضاع السياسية في اواخر العهد الفاطمي يلمس تمزقات كثيرة وكبيرة في العالم العربي فهو مجزأ بين الخلافة العباسية في بغداد ، والفاطمية في مصر ، والاموية في الاندلس ، والبويهية في أرض الاعاجم وما وراء النهر ، ثم السلجوقية ، تلك كانت التقسيمات الكبيرة في الامبراطورية العربية ناهيك عن عشرات الكيانات الصغيرة المبعثرة داخل التقسيمات الكبيرة ، والتي كان وجودها محدود زمنيا . ان واقع التجزئة ذاك قد فرض على الامبراطورية الاسلامية في تلك الفترة بالتحديد بعد ان ضعفت دولة الخلافة المركزيــة في بغداد فأصبح خلفائها مجرد دمى تلعب بها كل الايدي الحاقدة على الجماهير العربية والاسلامية من شعوبية منغلقة الى عربية اسلامية متزمتــة لعبت بالخلافة من الداخل فأتاحت الفرصة للمحيط الخارجي ان يجرف الخلافة وهيبتها ، ويقيم فوق البقع الخالية من سلطة دولة الخلافة سلطات مغايرة كانت نواة لكيانات بدأت صغيرة محدودة الرقعــة الجغرافية والسلطة السياسية . توسعت على حساب مزيد مــن الضعف والانهيار في داخل كيان الدولة المركزية فتكونت الكيانات الكبيرة التي أعلنت نفسها خلافات بديلة للخلافة العباسية في بغداد ، واختلفت وتناقضت معها سياسة ومصالحا وعقيدة . فاحتضنت مصر الفاطمية المذهب الاسماعيلي الشيعــي ، واعتنقت الامبراطوريــة السلجوقية المذهب السني بعد ان مزقت وسحقت البويهيين ومذهبهم خضعت دولة الخلافة في بغداد لتحولات المذاهب وتقلبات السياسة فحين شيعي واحيان كثيرة سني بحسب تمذهب القواد والساســة المحركين للخليفة العباسي والدولة .

ادت كل تلك المشاكل العقائدية والسياسية الى تمزيق الخلافة وكان لذلك انعكاسات سلبية على واقع الحياة الاجتماعية فأفرزت جمعية متألمة وممزقة بحسب الواقع الموضوعي ، والــذي لم يكن كذلك . راح يفرض عبر مرحلة تاريخية بالتدريج حتى ثبت كواقــع موضوعي لم تكن تشعر الجماهير بحقيقته على الرغم من تشكلــه المادي ولذا ذهبت تبحث وتفتش في ذاكرتها عن منقذ يرفض واقــع التجزئة **ليعمل على انهائه واعادة اللحمة التاريخية بين تلك المرحلة والمرحلة التاريخية التي سبقتها** . منذ قيام اللبنــة الاولى للدولــة

الاسلامية في المدينة حتى فترة ما قبل التمزقات الكبيرة ، واصطناع الكيانات الصغيرة الكثيرة والمتعددة .

والى جانب ظروف التمزق المتشابهة ، والتي فرضت ذاك الاستدعاء فقد تكافأت معهـا ظروف وأسباب اخرى جعلت من الاستدعاء ضرورة لتلبية حاجة منها حملات الغزو والاحتلال التي تعرض لها الوطن العربي وبالذات الخلافة الفاطمية فقد زحف على ولاياتها الشرقية السلاجقة ثم الصليبيين . اي مرة ثانية الشرق والغرب ، ووقع الوطن العربي في فكي الكماشة الجديدة بعد ان صنع له الاسلام القوة المطلوبة لينفك من فكي الكماشة . بل ويكون أي الاسلام الذراع الطولى التي استطاعت ليس فقط ان تفك الكماشة ، وانما لتحتضن شعوب المنطقة بحديها الادنى والاقصى ، وتشكل معها الحضارة الانسانية الواحدة ، وحين وهنت قوتها وضعفت وبهت مجدها التفت عليها من جديد كماشة الشرق والغرب ، وزحفت على المنطقة الاستراتيجية والتي بقيت طوال مراحل التاريخ تثير شهوات الغزاة والمحتلين . فملك السلاجقة اجزاء من الشام ، ونافسهم الصليبيون في أجزاء اخرى ، وهدد الصليبيون مصر كما سبقهم لتهديدها السلاجقة آخذين بعين الاعتبار موقف السلاجقة المدافع بقدر امكانياتهم عن بعض المدن الشامية ضد الاعتداءات الصليبية البربرية . لدوافع كثيرة منها الرابطة الدينية التي ربطتهم بالعالم العربي ، وخلقت العداء للصليبيين .

تكثفت الحملات الصليبية فزرعت الدمار في كل انحاء الوطن العربي التي مرت من فوقها جيوشهم وجحافلهم الجرارة فاستعادت الذاكرة الشعبية معلوماتها عن الغزو والاحتلال فاذا بغازي اليوم « المرحلة الفاطمية » يحمل نفس سمات غازي الامس بيزنطا وحلفائها الاحباش تحركهم نفس الاطماع تحت نفس الشعارات لنفس العقائد المسيحية في القرن السادس للميلاد اي قبل الاسلام بأقل من قرن ، ثم وهي بعده في أواخر الخامس والسادس منه ، **وحين اتضح للذاكرة بعد الاستعراض والمقارنة التشابه الكبير في سمات العدو وملامحه حسمت امرها على ان يكون البطل نفس البطل ،** ولم يكن امامها خيار فلم تكن هناك اسماء لامعة في سماء البطولة العربية غيره قائدا وزعيما شعبيا للغليان الجماهيري اليمني المتد باشعاعه الى كل أنحاء الجزيرة العربية .

مثل سيف ذاك القائد الشعبي الذي تحمل آلام شعبه على كتفيه وبقي ينوء ويرزح تحت ثقلها في ظروف لم تكن مواتية له بل ومعقدة وصعبة فالارض اليمنية ممزقةوالشعب اليمني محطم من ابشع احتلال عرفه تاريخه رفض ان يكون له من ذاك الشعب غير الثلث قتلا ونهبا وسبيا . وفي ظروف عربية في غاية التمزق والانهيار قبائل تقتل بعضها وتأكل نفسها في حروب طويلة بلا هدف ولا سبب ، او انها موزعة بين الدولتين الكبريين لا تأتمر الا باوامرهما لتحديد مواقفهم من هذا الامر او ذاك في تلك القضية أو هذه وعلى وجـــه الخصوص في قضية احتلال واجتياح ترعاه دولة كبرى وتنفذه دولة لها كل مقومات الوجود والدولة ، التي تجعل منها قوة لا يستهان بها في المنطقة ، الى جانب قربها من الارض العربية والذي سهل عملية الدخول والتداخل المعقد بدوره للعملية اكثر فأكثر . وجد سيف وجماعته انفسهم وحيدين وسط كل الظروف الصعبة والمعقدة فحمل هو كرمز لهم آلام شعبه المسلوب الارادة والفعل .

راح سيف يضرب الصحراء العربية يطلب العون من بين القبائل العربية وذاك هو ما أعطى للقضية بعدا قوميا اضافة الى اسعادها الوطنية والشعبية ، على الرغم من ان حدود التعاون القومي لم تكن تخرج عن حدود الدعاء والصلاة وتقديم القرابين لهذا الاله او ذاك لينصر سيف على اعدائه ويهزم الدخلاء والمعتدين بدلا من الدعاء الا ان امكانيات القبائل والشعوب العربية لم تكن تتجاوز غير ما تملكه ، ولم يكن سيف يؤمن بما تملكه لم يكن يؤمن بآلهتها فلا اللات بالنسبة له مقدسة ولا العزى فقد كان بعيدا عن وثنية الجزيرة او اليمن ، وفرضت عليه ظروف الاحتلال الوقوف في وجه المسيحية باعتبارهـــا ديانة المحتلين والغزاة ، وتحت شعارها غزوا أرضه وعاثوا بمقدرات شعبه وكرامته . كما ان انتشارها يؤدي الى تثبيت وضع الاحتلال واكسابه صفة الشرعية ، ولم يتعصب لليهودية رغم كونها ديانـــة أهل اليمن الرسمية . فبقي بعيدا عن التعصب الديني لعدم جدوى ذاك التعصب لظروفه ووضعه . كانت ظروفه تفرض عليه التعايش مع جميع الاديان مستثنيا مسيحية الاحباش الغزاة ، وقد واتتـــه الظروف للعمل مع أهل الاديان مجتمعه لطرد الاحباش ، فارتفعت مكانته في النفسيه الشعبية الجمعية أيام نضاله ، وبعد أن تربع على عرش اليمن ملكا متوجا فوق العرش وفي وجدان الشعب اليمنـــي

والقبائل العربية في الجزيرة .

اثرت اخلاق سيف المتسامحة مع الاديان المتحصنة لها جميعا في النفسية العربية في اواخر القرن الخامس والسادس من الهجرة فاصرت على اختيارها لسيف بطلا ومنقذا لها من التمزقات المذهبية والطائفية التي عصفت بالوطن العربي والامبراطورية . فقد اثارت التعصبات الطائفيــة والمذهبية الفتن واشعلت الحــروب فقاتلت الشعوب الاسلامية بعضها البعض ، وتقاتل ابناء الشعب الواحد ، وقد بدأت تأثيراتها السياسية منذ حرب صفين بين علي ومعاوية ، وكان على أثرها ان انقسم العرب ثلاث طوائف ثم توسعت انشقاقاتها فازداد عدد الفرق والطوائف ووجدت في السيف فقط وضع الحلول وفرض الحدود المطلوبة امام الطرف الخصم مذهبيا او طائفيــا . والدخول في هذا الحديث لن ينتهي فقد بقيت المشكلة مستمرة بل هي ما زالت قائمة حتي يومنا هذا تعطي بنتائجها السلبية للشعب العربي والجماهير البائسة مزيدا من البؤس والالم .

بعد قتال علي معاوية تقاتــل الامويون والعباسيون ، ثــم العباسيون والعلويون ، ثم الاسماعيليون والعباسيون ، وحتى تلك الفترة كان الصراع فاطمي عباسي شيعي سني ناهيك عن الحروب الطائفية الصغيرة والمتفرعة من هذا الاصل او ذاك ، والتي استمرت تتفاقم بفعل الزمن ، ولم تجد لها بعد الحل الناجع والضروري عند المتعصبين لها المتمسكين بها . **احس الوجدان الشعبي الممزق والمتالم من حكم السيف بحاجته الشديدة لشخصية سيف حتى يضع به حدا لمعاناته المذهبية والطائفية** بعد ان اصبح يتجرعها صباح مساء مــع خبزه اليومي وفيه .

ولهذه الاسباب مجتمعة كان استدعاء « سيف الامل » وحصر الوجدان الشعبي الحل ببطل فرد كما تعود التفكير الانساني الجنيني في المرحلة المتقدمة من نموه ، وفرض على نفسه ان يكون البطل متدينا كنتيجة طبيعية لسيطرة الفكر الغيبي الديني على مرحلة التدين الطويلة والمستمرة حتى يومنا هذا في عالمنا العربي . فتعلق الوجدان الشعبي بالفرد المتمتع كما صوره ذاك الوجدان بقوى خارقة يتمكن بها من حل المشاكل الجمعية المستعصية بقدراته الفردية الذاتية . أما « سيف المتنفس » فقد ولد مع « سيف الامل » الا ان الحاجة الملحة اليه ولدتها ظروف اتت مغايرة الى حد ما في القرن الثامن وهو

الذي نراه في السيرة الشعبية التي بين ايدينا والتي سنأتي فيما بعد على تحليل موضوعها .

عودة سيف الى اليمن :

لهذه الاسباب وتلك الاعتبارات استدعى سيف من المرحلة التاريخية التي عاش فيها ، الى مرحلة تاريخية اراد الوجدان الشعبي في مصر ان يعيشه فيها من جديد ، وانتقل **ذاك الشعور الجمعي المصري الى اليمن نتيجة التقارب الذي تم بين القطرين** ابان الحكم الصليحي في اليمن وجزره الكبير في مصر عن طريق الثقافة والعلاقات الثقافية التي نشأت بين البلدين فابتهج بها الوجدان اليمني فقد عادت اليه مرة ثانية حقوقه وملكيته لسيف فاعاد صياغتها بطريقته المعتاد على اتباعها فصاغها شعرا هو ما تبقى لنا من الاسهامات اليمنية في القضية الشعبية فظهرت قصيدة « نشوان الحميري » والتي يلخص فيها التاريخ اليمني والحضارة اليمنية مخففة الى حد كبير من التفكير الاسطوري مبقية على ما ارتبط منه بالفكر الديني في القصص القرآنية وقد اضاءت امامنا النور الاخضر فدعمت الادلة قناعاتنا بأن السيرة الشعبية لسيف قد كتبت بين القرنين الخامس والسادس**والا ما الذي بعث سيف من جديد ؟!** وما الذي استدعى الوجدان اليمني للمفاخرة والمباهاة بتاريخه في تلك الفترة ؟ اليست هي عودة الروح لسيف ، لتلبية حاجيات الوجدان الشعبي ؟ نتيجة لكل تلك الظروف الموضوعية التي وجد نفسه مفحما بها . ثم انتقال ذاك الشعور بطريقة عكسية للمرة الاولى التي حدث بها الانتقال حين هاجر مع القبائل اليمنية من اليمن الى مصر مع الفتوحات الاسلامية . اننا نراه هذه المرة عائدا الى اليمن بعد هجرته الطويلة منها فوجد الترجمان قصيدة تحكي قصة الحضارة في اليمن وتفرد لسيف وانتصاره على الاحباش حيزا كبيرا ، وهي بمجملهــا تفخيم وتضخيم لتلك الحضارة وذاك التاريــخ . **والقصيدة في افكارها الرئيسية لا تخرج عن السيرة الشعبية بل هناك تطابق كبير بين الاحداث الرئيسية في القصيدة والسيرة** ، فالنضال ضد الكفر والوثنية قائم منذ عهد هود وحتــى عصر سيف والتفاخر بأمجاد اليمنيين فكرة مهمة في كل الاثنتين ، كما ان التبشير بالاسلام ، في ظل التحديات السياسية الكثيرة والكبيرة التي تعرضت لها دولة

الخلافة الاسلامية قد استحوذ على جزء كبير من اهتمام مؤلف القصيدة ومؤلفي الاسطورة . **اما المحور الذي تمحورت حوله كل منهما فقد كان الصراع العربي الحبشي** ، مع الأخذ بعين الاعتبار تغير الظروف الزمنية ، التي اكسبت ذاك الصراع ملامح خاصة تباينت بينهمـــا بسبب اختلاف الشخصيات في الجبهة المضادة لسيف .

ولقد لمسنا في ما سبق كيف ان اليمن تأثر وأثر في كتابة تاريخ سيف في القرن الثالث وهو القرن الذي كتبت فيه الحوادث التاريخية كحقائق واقعية مع الاخذ بعين الاعتبـــار المبالغة والحذف وكـــل الثغرات التي لها علاقة بالكتابة المتأخرة للحادثة او الواقعة والمعتمدة على المشافهة والرواية ولا شك ان لكتابة الملحمة الحميرية لنشوان الحميري علاقة بما كان يجري ويدور في الامبراطورية الاسلامية من قضايا الفكر والادب . وانطلاقا من هذه القناعات تأتي اجتهاداتنـــا حول الفترة الزمنية التي كتبت فيها السيرة كفـــن من فنون الادب العربي متشبعة بالخيال المرافق عادة للادب والفنون .

مقارنات بين القصيدة والسيرة :

تأتي السيرة ، ونعتبر السيرة التي بين أيدينـــا متطورة عن سيرة حكيت وكتبت ثم تطورت وانتهت بموضعها القديم الى صورتها المدونة في القرن الثامن والتاسع والباقية الى اليوم لتخرج سيف من اطار الواقعة التاريخية لتحلق به في عالم الخيال والاسطورة محاولة بذلك من ناحية ادبية فنية الاشباع الادبي ، والاخصاب البلاغي ، والاثراء اللغوي . أما من الناحية الاجتماعية والسياسية فقد أريد بالسيرة مع غيرها من السير والقصص والروايات البطولية ان تعرض عن واقع البؤس الذي عاش فيه انسان تلك الفترة كما راحت تعيشه في عالم جميل من الاحلام التي تكثر النساء والعيش الرغيد وليس فيه من بؤس الواقع شكل ولا صورة بل صور مختلفة تماما عن الصورة البشعة التي يحيون داخل اطارها .

أما الجانب الذي أسهمت فيه السلطة بصورة أو بأخرى فقد ارادت به تحذير الجماهير ودفعها الى الاغراق في الغيبيات والماورائيات والمراهنة على تلك القوى الغيبية في حـــل المعضلات السياسيـــة المعاشة انذاك . كما راحت اطروحات السلطة الغير مباشرة فـــي

السيرة توهمه في امكانية حل مشاكله دفعة واحدة في حال **التمسك** الشديد بالدين .

أما عطاء السيرة ذهنيا وفكريا فقد جاء ليؤكد على ان ذهنية انسان تلك الفترة هي امتداد لذهنيته في الفترة الاولى من مرحلة التدين والتي غلفت جزء كبير من جوانبها الاسطورة لاعتماد تلك الظاهرة في حركتها على الماورائيات والغيبيات ، ولذلك فقد اضحى العطاء مزيدا من الخيال والاغراق في الاسطورة الى حد التخيل باستحالة حل المشاكل المتراكمة للفرد والمجتمع الا بها ، فهي وحدها التي تستطيع ان تنقل الانسان وعلى بساط السرعة من حالة العدمية الى حالة الامتلاء ومن واقع الصفر الرافع تحته الى الكمال المنشود والذي يحلم به ويأمل فيه وهو على حالته الاولى ولقد وفرت له السيرة تلك القفزات النوعية الخارقة للطبيعي من حيث حركتها الكمية وعملية الانتقال من حالة أخرى الى حالة مغايرة تماما لها وهي الصورة التي بقي الفرد والمجتمع مشدودا اليها وهو يعيش في واقع بائس كالذي عاش فيه في تلك الفترة .

دفعت مفارقات الصورة بين حالة الصفر وحالة المائة على ان يشحذ الانسان فكره ليتصور طريق الوصول من الاولى الى الثانية محفوفا بالمخاطر ، التي سرعان ما تزول بمجرد تدخل قوى خارقة للطبيعة تنقله من حالة الى حالة ، وتوفر عليه اتعاب ومشاقات كان يشعر في تلك الفترة بعدم قدرته على ركوبها وخوضها . **لقد اعطت السيرة منح وهبات روحية ونفسية كبيرة اطمئن لها الانسان واستعان بها على واقعه** لا لكي تدعمه في حركة تمرد او ثورة بل لتواسيه وهو في وضعيته الاستسلامية للقوة المولودة في نفسه من ناحية ، وللقوة المهيمنة مباشرة على حياته . **كانت عملية الاستعانة اذن للمواساة والتعزية عن طريق الاستغراق في التنويم المنبعث في السيرة والمدغدغ للاحلام والاماني الفردية والجمعية .**

فهي عند نشوان الحميري الحبشة بزعامة ابرهة الاشرم وأرياط في بدايات القرن السادس للميلاد ، اما في السيرة فهي الحبشة المسيحية بقيادة سيف ارعد في القرن الرابع عشر من الميلاد اي الثامن للهجرة .

ولقد طرحت كل من القصيدة والسيرة القضية اليزنية باسلوب خاص بها يتماشى مع طبيعة ذهنية قائلها والمستمع اليها ، فهي في

القصيدة لشاعر فذ قيلت فيه اوصاف كثيرة نوجزها بانه الى جانب شاعريته الرفيعة فقد كان عالما ومؤرخا كبيرا ويأتي انتاجه على غراره ومن شاكلته لهم بلا ادنى شك مستوى من العلم والادراك ليتجاوزوا مع الشاعر وعطائه الفني الشعري . أما السيرة فقد كان من الطبيعي بل والضروري اتباع الاسلوب العامي البسيط لتفهمها عامة الناس ويستوعبها أقل الناس ادراكا وفهما لاسباب كثيرة منها الرغبة السلطوية او الجماهيرية للتعرف على بعض الاحداث والوقائع التاريخية . وفوق هذا وذاك فقد رواها مجهولا كغيرها من السيرة ، وربما اشترك فيها اكثر من راو ، بل ولا نستبعد ان تكون العامـة بأسرها هي الراوي وهي المستمع في نفس الوقت ، ويمكننـا ان نقارنها بالاشاعة اليوم يسهم فيها الجميع كل يزيد من عنده حتى تفقد الرواية او الخبر معالمه الاصلية ، وكذا كان شأن السيرة اليزنية ولذا فمما لا شك فيه ان النسخة الاولى من السيرة ستروى باسلوب عامي شكلت النسخة التي بين ايدينا والتي يعتقد انها كتبت في القرن الثامن الهجري صورة منها ، آخذين بعين الاعتبار كل الاضافات والتـي ادخلت على اخر صياغة للسيرة .

جاءت قصيدة نشوان لتكون نصيب اليمنيسين في الاسهام في كتابة السيرة الشعبية لسيف كغيرها من السير ، والتي كان يبدو ضرورة اعادة كتابتها للتذكير ببطـولات خلت كان أولى للجمـاهير العربية ان تتمثلها في فترة تدهور الاوضاع ليس فقط للتعويض عن بؤس حال او التعزية في واقع ، وانما ، وخاصة ما كتب من قبـل المؤرخين والمؤلفين ، لكي تجد في السير صور يمكـن بواسطتها ، كدافع تاريخي مع غيرها من الدوافع الاجتماعية والسياسية المعاشة، استنهاضا ونفخ روح التحدي من جديد فيها لمواجهة الاخطار الداخلية والخارجية المحيطة بها ، فقد كانت تعيش محنة التمزق الداخلـي المزروع بين صفوفها ، والذي احال الامبراطورية الى اجزاء ودويلات صغيرة محدودة الرقعة والبشر ، الى جانب التحديات الخارجية التي بدأت تندفع كالعواصف المجتاحة من الشرق والغرب . ففي عـام ١٠٩٩م سقطت القدس في أيدي الصليبيين وحسر النفوذ الفاطمي في منطقة صور وعسقلان الساحلية ، وفي الوقت نفسه كانت انطاكية تسقط فريسة بين أيديهم ، ومنها راحوا يزحفون على شمال سوريا ، وحوصرت طرابلس الشام ثمان سنوات طوال لتسلم بعد ذلك زمام

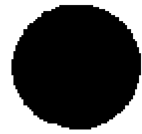
امورها لهم .

وبقيت السيرة الشعبية متداولة حتى ظهور صلاح الدين الايوبي كبطل قومي في المنطقة للصفات التي تمتع بها والاعمال التي قام بها ، فقد كان ديبلوماسيا محنكا ورجل سياسة موهوب لرفعه ذلك الى قمة القوة والسلطان، وصفى حسابات العرب ومصر بالذات مع الفاطميين المتخاذلين تمهيدا لتصفية الحسابات مع الافرنج واقتلاع جذور استيطانهم اللاشرعي فوق الارض العربية في الشام وفلسطين ، وقد ادرك الفرنجة بعد استلامه الحكم في مصر الخطر بدأ يتهددهم منذ ان جثموا فوق الارض العربية ، فطلبوا إمدادات من أوروبا فحملت الاساطيل لهم الجيوش واستعد صلاح الدين ، ففشل حصار دمياط وانسحبوا من مصر .

بدأ صلاح الدين يفكر في فتح فلسطين فاحتل ميناء ايلة كقاعدة يستعد فيها للفتح ، وشعر صلاح ان مصر مهددة ما بقيت سورية منفصلة عنها خاضعة لملك صغير هو اسماعيل به نور الدين ، كما ان لشريط الاحزمة الامنية الساحلية التي احتفظ بها الافرنج تعد مصدر تهديد وازعاج لمصر والعرش الايوبي . فتقدم الى دمشق بحيلة سياسية وهي توطيد السلطة الشرعية للملك اسماعيل به نور الدين ، وهناك بسط سلطانه ثم توجه صوب جنوب البحر الاحمر ليغلق باب المندب فوجه اليه اخيه توران شاه ، ودخل اليمن دون مشقات تذكر لانهيار الاوضاع الداخلية بمجملها هناك .

كانت جهوده العسكرية ضمن الخطة السياسية العسكرية لتحطيم الاحزمة الامنية الساحلية واقتلاع الاستيطان الافرنجي في فلسطين . وقد بقي الافرنج يناوشونه من المناطق المتاخمة لحدود سلطانه في سوريا فقد كانت راس حربة في أيديهم يؤذون بها استقرار وأمن المواطنين العرب فقرر تصفيتها ، واحتل مرجعيون تمهيدا للضربة القاضية ، وأمر قواته بالاحتشاد في حارم . وسار بنفسه الى الكرك والتقى عند بحيرة طبريا بالجيوش الافرنجية الجرارة ، فتقاتلا الجيشين في سهل حطين وانزل بالصليبيين الهزيمة القاضية ، وتساقطت بعد ذلك الحصون خلال فترة قصيرة من الزمن حتى شارف على ابواب القدس وحاصرها ، فاستسلمت في الشهر نفسه ، فدخل بطلا وعادت المدينة المقدسة مرة ثانية عربية بعد ان بقي استيطان المدينة ما يقارب التسعون عاما .

لقد تحقق في الواقع اذن أمل الجماهير الشعبية في البطل المنقذ فبعد ان كانت تستدعي ، صورا من الماضي أعطاها الواقع صورة حية فالتفت حوله ، وهدأت نفسها به . على الرغم من معاجلة المنية له **ودخلت سيرة سيف ضمن الفلكلور الشعبي ، وبعد قرنين من الزمن اعيدت صياغتها بالصورة التي بين ايدينا واضيف من الاسماء والوقائع التاريخية ما وحت به الاحداث المعاشة** انذاك وحذف من الاسماء ما لم تكن الحاجة اليه ضرورية او ملحة فاذا بسيف ارعد يحل محل الملك الحبشي « عيزانا » ومحل قائد الحملة الى اليمن ابرهة الاشرم وابنه مسروق وهو الذي حاربه سيف وانتصر عليه في الحوادث التاريخية التي أتينا على ذكرها . **فما الذي دعى الى ذلك ما هي الظروف التي فرضت ذاك الخلط التاريخي او بالاصح تلك الاستعارة من الماضي ؟؟** الى تلك الفترة التاريخية والتي حددتها بعض الشخصيات السيرة بالقرن الثامن للهجرة . ذاك سؤال سنحاول ان نجيب عليه ونحن نقوم برسم صورة الواقع التاريخي كما كان عليه ، وكان منه انتجاع السيرة وغيرها من السير المتجاوزة حدود الاسطورة الجميلة الى الخرافة والشعوذة والاسفاف في الاراء والافكار الشعبية العامية والانحطاط بها الى الدرك الاسفل في نهاية تدوينها .



الباب السابع

القرن الثامن ومعطياته السياسية

لقد حاولنا في الدراسة ان نأتي على الاحداث في تسلسلها الزمني حتى نتوصل الى معرفة الواقع الذي افرز الاسطورة والخيال من المنبع حتى المصب فالسيرة الشعبية لسيف ليست نبتة شيطاني كما نفهم ذلك من كلام جميع الباحثين الذين تناولوا هذا الموضوع بل هي عملية خلق ذهني تاريخي فيه روح الاستمرارية مع التكيف بالمكان والزمان ومقتضيات الحاجة فيهما . **فسيف الواقع التقى واختلف مع سيف المحمول على رؤوس سيوف القبائل العربية الفاتحة مصر ثم المنصهرة فيها . وهو سيف المتشابه والمتباين لسيف القصيدة النشوانية وتلك المرحلة . وسيف تلك الاوضاع السياسية غير سيف العصر الملوكي وهو كذلك شبيهه .** ثم هم جميعا ليسوا سيف اليوم والغد الحلم **والامل مع الاحتفاظ والمراعاة للخصائص والصفات الاساسية الواحدة التي تجعل منهم جميعا اشباه بعض .** لذا حرصنا على التسلسل الزمني حتى نقطع دابر القاطعين للزمن ، واستعراض الصور الذهنية في الصورة المعروضة ضمن الاحاديث والقصص الشعبية المتراصة الحلقات في الامتداد الزمني . من هنا جاءت ضرورة رسم الملامح السياسية الاساسية التي خلقت صورة

سيف السيرة ، كما هي عليه فيها ، وانسجاما مع التطور المنطقي الذي سارت عليه قصة سيف حتى وصلت الى صورة السيرة ، فقد تسمح لنا قراءة حوادث التاريخ باستشفاف الاهداف المحمولة في السيرة سواء كانت شعبية جماهيرية او فوقية سلطوية . ومـا يحملنا على القول بذلك ما نلمسه في السيرة من احداث ورغبات ذات موقف نظري طبقي محدد يمثل مساهمة الدولة في توجيه الراي العام لذا فالسيرة بصيغتها تلك مجال تنفيس وتخويف وسنأتي على ذلك فيما بعـد .

اتى المماليك الى مصر كما تشهد كتب التاريخ من اخر ملوك بني ايوب فقد حمل توران شاه وامه شجرة الدر من الجزيرة الفراتية جماعة منهم على رأسهم اتابك العسكر « عز الدين ايبك » وهـم يجهلون ان نهايتهما ستكون على ايدي اولئك المماليك ، والذين بيتوا النية بعد ان تخلصوا من توران شاه وامه للقضاء المبرم على مـا تبقى من الدولة الايوبية وتأسيس حكمهم في مصر ولقد قام ذاك الحكم في اجواء داخلية وخارجية معقدة وممزقة . فلم يكن من الممكن ان يقبل الشعب المصري وجودهم على ظهرانية كحكـام فهم بحكم ما سار المجتمع من افكار اقطاعية عبيد ارقاء اشتريوا بالمال وجيء بهم للنهوض باعباء الديار السلطانية الداخلية ثم انهم جاءوا على انقاض الدولة الايوبية وهي التي ارتبطت في ذهنية انسان تلك الفترة بالمجد والعزة القومية ، وما شهدته مصر من ازدهار سواء على المستوى السياسي او الاقتصادي التجـاري في العهد الايوبي والاستقرار الاجتماعي الذي نعم به الشعب المصري في عهدهم ، ثم تأتي جماعات ناكثة للعهد اوردت اولى نعمتها موارد الردى والتهلكة ، كما حدث للملك توران شاه وامه الملكة شجرة الـدر ، فكيف اذن التعامـل معهم ؟؟ وبقيت سياج الشك والريبة تحـول بين الحـكام الجدد والانسان المصري حتى رقي على عرش مصر الملك « الظاهر ركن الدين بيبرس » .

في تلك الاثناء كان الاعصار المغـولي يجتاح الشرق الادنى ويهدد مصر بالخراب والتدمير وشعوب المنطقة ترتعد خوفا ، فلا هناك قيادة تنظمها لتتصدى ، ولا قائد يستشيرها لتدافع عن نفسها وتذود عن تربتها الوطنية في حدودها الاقليمية ، بعد اليأس من الدفاع عن اراضي الامبراطورية الاسلامية الممزقة ، وكادت اقدام المغول ان تطأ ارض مصر وعاش الناس فترة عصبية فهذه المرة يبدو الـعدو

مكتسحا الانسان بمفهومه الكلي ، غير قادر على التمييز بين المقاتل والانسان المدمن ذكرا أم انثى عجوزا ام طفلا كائن كان . يريد الاجتياح المغولي هذه المرة ان يستأصل وجود الانسان من جذور يبدو فيه الانسان قلقا خائفا على وجوده الانساني بقيمه واخلاقياته وكل ما خلفه الاباء والاجداد ، وكان على تلك الجماهير ان تدفع الثمن من اعصابها .

في ظل الخوف والقلق والضياع والتمزق ظهر قائد في فلسطين ينازل الوحش المغولي ليوقف اجتياحه ذلك هو القائد « الظاهر ركن الدين بيبرس » المرسل من الملك قطز لقيادة الجيوش المصرية المتجه الى فلسطين لايقاف المد هناك وكسره وقطع الطريق المؤدية به الى مصر . وقد فرضت الظروف على مصر ان تدخل كل معارك الدفاع ضد الغزو والاجتياح والاحتلال الاجنبي . كان على مصر ان تدافع عن نفسها في فلسطين وادرك المماليك ذلك ومن قبلهم الايوبيين والفاطميين وجميع من ملك مصر حتى اصبحت تلك الفرضية العسكرية بديهية سياسية مصر تنجو وتسلم في العمق الشامي الفلسطيني فترك الظاهر الى هناك والتقى بالمغول في عين جالوت وهزمهم وانكسرت موجة سيلهم القادمة فاختلفت كل الحسابات السياسية عند الطرفين ، وفي المنطقة باسرها .

تقهقر المغول وانبعث الامل في نفس الشعوب العربية والاسلامية واختلت الحسابات السياسية في مصر لصالح القضية العربية فقد قفز الى السلطة الملك « الظاهر » وتخلص من قطز وقطع الطريق على اي مدعي من بقايا الايوبيين . موطدا حكمه صابغا عليه صفة الشرعية بالدعوة للخلافة العباسية قاطعا بذلك اي بادرة لفتنة تمزق الوطن وتضعفه وهو مهدد من الخارج .

حكم الظاهر بيبرس :

جاءت هزيمة المغول العسكرية بحساباتها الجديدة لصالح القوى المتصدية للقوى المضادة في الداخل والخارج فارتفع الظاهر بيبرس الى سدة الحكم فكان لوجوده فوق قمة السلطة المصرية والعربية معنى اخر . اوقف الاجتياح المغولي وصفى حساب الامة العربية مع الصليبيين بكل الاساليب الممكنة فاستخدم مع العسكرية الليبلو الديبلوماسية البعيدة النظر فصحب الفكر الحربة لاول مرة

منذ تعرض الوطن العربي للغــزو والاحتلال ، وبعــد أن صفى حصونهم المنيعة واسترد مدينة صفد ، وقضى علــى الحشاشين ووضع حدا لنشاط ملوك الارض في اسيا الصغرى والحق النوبة بمصر عقد معاهدة مع الامبراطور البيزنطي ميخائيل بليولوجس حتى يتفرغ للبناء الداخلي فترك من البناء والاعمار ما ترك وما بقي خالدا يحكي عظمة الظاهر حتى اضحى للذهنية الشعبية بطل اسطوري ما زال في ذاكرتها له نفس مكان سيف بن ذي يزن وهارون الرشيد وصــلاح الدين ..

مات الظاهر فتقلبت السلطة ثم استقــرت بيد « قلاوون » فانتهج في خططه العسكرية نفس نهج الظاهر وتابع دفع المغول عن سوريا كما تعرض للافرنج وراح يستعيد منهم المدن السورية ، وقد بقي الحكم في ايدي الاسرة القلاوونية اربعة اجيال . ثم تولى العرش بالانتخاب من قبل المماليك « الملك الظاهر سيف الدين برقوق » . وكما لاي اسلوب او نظام في الحكم سيئاته ، خاصة اذا استفحلت الامور ولم تجد لها ضابط يحد من تطاولها ، فهكــذا كان لاسلوب الانتخاب من قبل المماليك سيئاته الكثيرة ، فقد جرد السلطان من صلاحياته واحالها الى مجلس الدولة وقوامه زعماء المماليك المقدمون فاضحت قراراته واحكامه خاضعة لتصديقهم فتمكنوا من مقدرات الدولة ، وكان الاجماع لديهم بمفاهيم عصبية شللية ، فقد عمل كل واحد منهم على توطيد حكمه وفئته بتعزيزها بعناصر جديدة يشتريها من اسواق النخاسة ، ويدربها وهي ما زالت بعد في سن الاحداث ، وتشب فتعمل في خدمته وتدعم مكانته فترفعه او تسقطه ، وذهب الجميع يتبارون في ذلك حتى اصبح السلاطين ارقاء والمستشارون حقيقيون يدعم كل واحد منهم وضعه الجديد بفرق عسكرية مجندة توزع على افرادها الاقطاعات لقاء خدماتهم . واضحت الاقطاعات املاكا خاصة متوارثة ، وهكذا تحولت الديمقراطية الجمــاعية في الطبقة الحاكمة الى فوضى جمــاعية ، وتعددت جهــات الحكم والسيطرة . اختلط الحابل بالنابل ، وتداخلت السلطات التشريعية والتنفيذية ، وكثرت الجهات التي تشرع وتأمر ، ولكي نتمكن مــن الاحاطة بواقع ذاك العصر والعلاقة العضوية بينه وبــين معطياته الفكرية والثقافية الادبية ومنها السيرة لذا فقد فرضنا على انفسنا الوقوف متحملين عبئه النفسي ليس فقط من ناحية اصفرار الاوراق وانما ما ورد فيها من احداث هزلية مؤلمة ، صبت جميعها في اطار

التمزق بكل أبعاده السلبية ضمن ظروف اجتماعية وتاريخية وقومية وثقافية على غاية من التعقيد والاشكالية ، عدا عـن الاندفاعات الخارجية للتتار من جهة ، والافرنج من جهة اخرى كلما استئنسوا ضعفا وانهيارا داخليا وهو بيت قصيدنا الان في وقفة الاحاطة هذه.

الصراعــات الملــوكية :

تولى الولاية بعد موت السلطان الظاهر بيبرس ابنه « الملك السعيد محمد » ففتح عهده بالصراع بين مماليك الظاهرية يتزعمهم الامير « سيف الدين كوندك الظاهري » وبين الخاصكية . *

وكان من جراء الانقسام بين الظاهرية والخاصكية ثم الطرف الثالث والذي تزعمه سنقر الاشقر اهتزاز الاوضاع الداخلية وعدم قدرة الملك السعيد على حل الازمة فقرروا خلع الملك وتنصيب اخاه الطفل « بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر » سلطانا على مصر وهو بعد لم يتجاوز السابعة من عمره ، واوصوا على العرش بالامير « سيف الدين قلاوون الالفي الصالحي » . وقد حملت النقود فيمـا بعد اسمه في وجه واسم الملك العادل في الوجه الاخر . واصبح هو المتصرف الفعلي في امور الدولة وجيوشها وخزائنها المالية وخطبت خطبة الجمعة باسم الملك واسمه في حقيقة الامر لم يبق للسلطان سلامش في السلطة الا مجرد الاسم ، اما المتحـكم الحقيقي فقـد استمال امراء المماليك لنفسه حتى اذا حانت الفرصة خلـع الامير الصغير وتسلطـن عوضه الامـير سيف الدين قـلاوون الالفي الصالحي . حصلت على عهـده تغيرات كثيرة في الوزارات حتى تستتب لـه الامور .

فقد عزل الصاحب برهان الدين السنجاري عن الوزارة وعين بدلا عنه فخر الدين ابراهيم بن لقمان ، وتولى ديوان الانشاء القاضي فتح الدين محمد ابن القاضي بدلا من فخر الدين ابراهيم . وعلى الرغم من التعديلات التي احدثها بغية تجنب وقوع حوادث تمرد ضده فقد تمرد « سنقر الاشقر » واعلن نفسه سلطانا على دمشق ، واستفرد كل امير منهم بما تحت يديه واعلن نفسه ملكا شرعيا عليها فالملك المسعود بالكرك والملك المنصور ناصر الدين محمد بحـماة والمعرة ، هذا الى جانب بتر الملك المظفر شمس الدين اليمن وانفراده بها . كما فصل صاحب مكبة والمدين وفوق هذا وذاك فقـد بقيت

الارض المقتطعة من جسم الامبراطورية الاسلامية في يد التتار والروم وهي المنطقة الشاسعة وشملت العراق والجزيرة والموصل واوبل واذربيجان ودياربكر وخلاط وخراسان والمعجم . والاحداث التاريخية لاقتتال المماليك ضد بعضها ومحاولات كل واحد منهم تجاوز اخر واعتقاده باحقية السلطان والملك دون غيره من المماليك لا لشيء الا لانه مولى فلان من الامراء او مقرب الى السلطان في مصر او الشام يملأ صفحات الكتب فقلاوون انقض على الملك السعيد محمد ابن الظاهر بيبرس والذي كان مولى للايوبيين وحين تولى قلاوون السلطان ولى مماليكه امرة الديار المصرية والشامية الخاضعة لسلطان مصر وولى مملوكه حسام الدين طرنطاي ولاية مصر . وقد اثارت سلطة قلاوون سنقر الاشقر فعقد اللواء لنفسه وسمى نفسه الكامل بعد ان دعى امراء المماليك الى الاجتماع واخذ منهم العهد بعد ان ابلغهم بخبر كاذب بوفاة قلاوون . وقد حبس كل من امتنع عن اعطائه عهد الولاء ، وبعد ان مكن نفسه من السلطة ولى على وزارة الشام محمد الدين اسماعيل بن كسيرات وبدأ يصدر اوامره وكأنه سلطان الشام الحقيقي متجاوزا بذلك سلطة قلاوون التي اصبحت شرعية بعد ان بايعه مماليك وعلماء مصر اثر خلع الملك الصغير سلامش وقد ارسل سنقر الى الافرم بتنحيته عن ولاية غزة وحين رفض الانصياع لاوامره سير اليه رجاله من الموالي والعربان لمقاتلته الا انهم هزموا . وقد حاول بعد ذلك استمالة امراء غزة وحين عرف السلطان قلاوون بتمرد سنقر الاشقر ومقاتلته لمولاه الافرم والي غزة بعث بعساكره الى دمشق لارجاع الاشقر الى الحظيرة القلاوونية ، وقد هزم وتقدمت جيوش السلطان الى دمشق فملكوها وولي ولاية دمشق احد مسجوني الاشقر ويدعى علم الدين سنجر المنصوري .

بقي سنقر الاشقر كما تروي الاحداث يتنقل من ولاية الى اخرى في الشام يطلب الولاء لنفسه . وقد ارهق ولاة المنطقة تجاوز الموالي على كل الحدود ، ولم يكن في الامكان وضع حد لتدخلهم في شؤون الملك ، ولم تبق حدود صلاحياتهم عند التأييد واعطاء الولاء بل لقد تجاوزوا ذلك فنصبوا من ارادوا كما حدث مع خسروا اخ سلامش حين نصبوه على الشام ولقبوه بالمسعود نجم الدين ، ولم يكن سوى مجرد العوبة بايديهم ، فمكنهم ذلك من التمادي في امور الدولة ولم يردعهم رادع ولا خضعوا لرقيب فانفقوا على ملذاتهم

كل اموال الدولة حتى نفد ما كان من مال وذخيرة في خزائن الكرك وقد حاصرها الافرم وضيق الخناق عليهم مع عساكر حسام الدين طرنطاي مبعوث السلطان قلاوون وانزلوا المسعود من الولاية بعد ان نصبه الموالي ، واعادوا الكرك الى الـدولة المملوكية في مصر ٩٨٥ م . تمادى المماليك في طيشهم فبلغ حد الخيانة حين كاتبوا ملك التتار « ابغـا » يستحثونه لملك الشام . اما الاشقـر فقد ملك صهيون وشيزر واستفحل امره واحس السلطان قـلاوون بخطره فارسل جيشا عظيما لقتاله ، وتقول وقائع الاحداث العسكرية ان الطرفين اشتبكا في قتال عنيف في الجسورة ثبت كـل طرف منهما حتى غدرت جماعة عسكر الاشقر به ، وانضمت الـى عسـاكر السلطان فاختل التوازن لصالح جيش قلاوون ففر الاشقر الى حصن صهيون وتحصن به وكاد ان يقع في قبضة الجيش المصري ، الا ان الخطر الخارجي ، والذي كان كاملا مساعدا لتوحيـد الصـف وتناسي الخلافات اطل من جديد يزحف على سوريا يريد رأسهـا دمشق بعد ان اجتاح حلب ودمرها وتزيد الاحداث الدامية الداخلية من اندفاعه مقدرا وواضعا في حساباته ميل الاشقـر اليه لقتـال الجيش المصري ولم تر النور تقديـراته فتساءت النتيجة ، ووقف الاشقر بمجاميعه الى جانب الجيش المصري لرد الاجتياح التتاري المدمر . وما ان تبدد الخطر حتى عادت الفرقة فحسمها الملك قلاوون بعقد صلح مع الاشقر تسلم بعدها الاخير ولاية كفرطاب وانطاكية والسويدية وبكاس ودركوش وضياع اخرى .

ساعد استتباب الامر بعد عقد الصلح على دفع جحافل التتار والحاق الهزيمة بهم رغم ضخامة جيشهم ، وقد استطاع بعد انكسار التتار تصفية حساباته مع الافرنج بعد ان سقط حصن المرقب .

كانت خلافة قلاوون جميعها حروب خارجية ومعارك داخلية استطاع منها ان يلجم اطماع مواليه ويضع حدا كذلك للاطمـاع الخارجية الشرقية والغربية مقاتلا اياها بشجاعة نادرة الـى ان توفي في ساحة المعركة وهو يستعد لملاقاة الافرنج القادمين مـن عكـا . وقد تداول الحكم من بعده كما يشهد بذلك صاحب كتاب النجوم الزاهرة ابناء من ذريتـه او من مماليكـه او مماليك اولاده وذريته * وقد تولاها من بعده مباشرة ابنه الملك الاشرف خليل ، وقد كثر عدد الامراء المماليك الخـارجين على السلطة الشرعية وعلى الرغم من ضربهم بشدة حيث كان يتم اعدامهم خنقا كما حدث لجماعة

منهم الامير « ركن الدين طقصو الناصري » ، و « جرمك الناصري » وبلبان الهاردني . الا ان ذلك لم يشكل رادعا كافيا لبقية الامراء المماليك الذين راحوا يتربصون بالسلطان حتى حانت لهم الفرصة فامتدت يدهم اليه لتذبحه وتمزقه . مبتدئا بتلك الفعلة الامير « بيدرا » اخذ البيعة لنفسه متلقبا « بالملك الاوحد » . وارتفع الغبار مرة اخرى لترى جماعة من الخاصكية التابعين **للسلطان الاشرف على مقلى العرش الجديد** الملك الاوحد الذي لم يبت في لقبه الجديد غير ليلة واحدة دفع بعدها راسه ثمنا لتلك الليلة ورفع راسه على رمح ساروا به الى القاهرة وطوفوه فيهـا ، وقابلتهم جماعة اخرى ، وكادت ان تقع بينهم مذابح كثيرة كل جماعة تقتل الاخرى ، والبلاد في كف عفريت بلا سلطان او حاكم يضع حدا للامور المهزلة قبل استفحالها فبويع الامير الصغير « الناصر محمد بن قلاوون » من قبل الامير علم الدين سنجر الشجاعي ثم بقية الامراء المماليك وقد عين ذاك الامير مع وزيرين اخرين نواب للسلطان الجديد وتقول الاخبار التاريخية ان حريقا عظيما قد شب ، في قلعة الجبل حيث ولد السلطان الجديد ، واتلف الذخائر والنفائس والكتب وغير ذلك اثناء حكم الملك الاشرف . وفي عهد السلطان الناصر كانت تدور معارك الامراء والمماليك وسط شوارع القاهرة ، وتتحزب كل جماعة مع اميرها القوي في الدولة ، كل يحاول ان يبطش بالاخر ، كما حدث بين جماعة الامير نائب السلطنة « زين الدين كتبغا » ووزير السلطنة ومدبرها واتابك العساكر الامير علم الدين سنجر الشجاعي وتحزبت كل جماعة تحزبا عنصريا مع اميرها فمال التتار والاكراد واخبار الحلقة الى الامير التتري كتبغا والتفت البرجية وبعض الخاصكية الى سنجر الشجاعي . وكان الاخير قد انفق الاموال الطائلة من خزائن الدولة لاستمالة الناس اليه وقد حوصر هو وجماعته في القلعة حتى استسلم بعد معارك دامية بين الطرفين كان السلطان فيها في موقف المتفرج ، وقد جز راس الشجاعي وحمل على رمح طافوا به في القاهرة ومصر وحملوا على جماعته الخاصكية والبرجية فسجن من سجن وهرب من هرب وصفا الجو السياسي للامير كتبغا . وقد شجعه ذلك على التمادي على السلطان الصغير نفسه فطلب من الخليفة الحاكم بامر الله ابو العباس والقضاة والامراء والجند خلع السلطان ومبايعته بدلا عنه مستغلا في ذلك حالة الفوضى التي وصلت اليها البلاد ، بعد الخراب الذي

قامت به جماعة من مماليك الاشرفية ، حين داهموا بالسلاح اسواق القاهرة واشعلوا الحرائق بباب السعـــادة بالقاهرة ، وفي نفس اليوم خلع السلطان الصغير الناصر محمد وتسلطن كتبغا وسجن طفل العاشرة في القلعة وقد لقب نفسه بالملك العادل زيـــن الدين كتبغا المنصوري ٦٩٤ هـ وولـــي امـــور السلطـــنة « حسام الدين لاجين » .

الاوضاع الاجتماعية والاقتصـــادية :

ظلت الانهيارات السياسية تتلاحق وراء بعضها ، وينعكس ذلك على الوضع الاجتماعي فتزداد حياة الناس سوء وتفاقم الازمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، حيث تطالعنا الاخبـــار على حدوث موجة غلاء فاحشة شملت الديار المصـــرية والشامية فقد ارتفع سعر اردب القمح ستة اضعاف سعره الاساسي ، ففشا الموت في القاهرة وحسب الاحصاءات الرسمية من ديوان المواريث ان عدد الوفيات لشهر ذي الحجة بلغ سبعة عشر الف وخمسمائة وفية . هذا عدا حوادث الوفيات من الغرباء والفقراء ، وهجرت مصر فقد رحل منها كثير من اهلها هربا ، وقد اتسعت الموجة حتى اكل بعضهم الميتة والكلاب من الغـــلاء .

اما على الصعيد الفكري فمن الملاحظ بعد كل ازمة مـــن هذا النوع تخيم على سماء الاحداث السياسية حكاية اسطورية خرافية يقصد بها امتصاص النقمة الشعبية وتخـــدير الناس وغرس روح الاتكالية والخنوع والاستسلام للقـــدر وتسليم امورهم لولاة الامر المتشعوذين والمنحلين ، ومن هم على نفس المشاكلة التي نحـــن بصدد سيرتها وتتبع امورها العابثة بالسلطان في الديـــار المصرية لقد ابتدعت حكاية تقول على لسان شيخ عن اهل دمشق اوردوها على لسان قاضي قرية جبة وسوف نوردها كما وردت انه تكلم ثور بقرية من قرى جبة اعسال وملخصها : ان الثور خرج مـــع صبي يشرب ماء من هناك فلما فرغ حمد الله تعالى فتعجب الصبي وحكى لسيده مالك الصنور فشك في قوله وحضر في اليوم الثاني بنفسه فلما شرب الثور حمد الله تعالى ثم في اليوم الثالث حضر جماعة وسمعوه يحمد الله تعالى ، فكلمه بعضهم فقال الثور : ان الله كان كتب على الامة سبع سنين حربا ولكن شفاعة النبي صلى اللـــه عليه وسلم

ابدلها بالخصب وذكر اي الثور ــ ان النبي امره بتبليغ ذلك ، وقال الثور ــ في حواره مع الرسول ــ يا رسول الله ما علاقة صدقي عندهم ؟ قال اي الرسول : ان يموت تمقب الاخبار . قال الحاكي لذلك : ثم تقدم الثور على مكان عال فسقط ميتا ، فاخذ الناس من شعره للتبرك وكفن ودفن انتهى

تلك اذن وضعية الناس الذهنية حكام ومحكومين بقيت الحيوانات تستقرأ لهم الاحداث القادمة وتخبرهم وتبرر لهم ما هو قائم من جوره ظلم وطغيان بعد ان شاهد المماليك كتبغا التتاري يقفز على العرش المصري وبعد ان ابيحت حرمة السلطة وقفز عليها ، كل كبير جماعة من الجند يملك الشجاعة او حتى الهوس الذي يوصله الى السلطة تطاول الجميع وطمعت فيها كل جماعة واغرت زعيمها او اغراها بمناصب وعطايات مالية لتؤازره كما فعل الامير نائب السلطنة « حسام الدين لاجين المنصوري » فقد اتفق مع الامراء على الوثوب على السلطان كتبغا ، وقد سبق وان اغراه بانتزاع الملك من السلطان الصغير محمد قلاوون مخططا للانقضاض على كتبغا بعد احراقه والدفع به لمناجزة ال قلاوون .

بدأ يقصقص اجنحة السلطان فقبض على الاميرين « بتخاص » و « بكتوت الازرق »وقتلهما في الحال ثم قصد السلطان المنهار والذي ما ان عرف بمقاصد الامير حتى استسلم ، وقد بلغ الانهيار السياسي حد القرصنة والتسلطن في الطريق وذلك ما فعله الامير حسام الدين . وفي الطريق تلقب بلقب الملك المنصور حسام الدين وتوجه الى الديار المصرية مع جماعة من الامراء وملوكها ، وثم امرهم بسهولة ويسر وخطب لهم فيها ، وقد عود المماليك الناس على الخنوع فصفقت الشام وقدمت مدينة صفد ونابلس والكرك مراسيم الطاعة وتسابق الامراء لذلك ، وانتصب المؤذنون يبشرون باسمه بعد أن توجسوا عنه شرا ، وهكذا تم انتقال الملك من يد الساطي المستضعف الاول الى يد الساطي الباطش . فقد اضحى الوضع السياسي مهترئا يتسلطن مولى ، وتصبح له حاشية ومماليك ، ثم يخلع ليصير من جملة نواب سلطان مسبق وان كان في حاشيته . حتى اصاب الناس الهم والقلق . وسقطت هيبة الملك . ويأتي اصرارنا على متابعة اخبار الانهيار السياسي لنضع ملامح الصورة امام القارىء العربي لنرى مدى انعكاساتها على الاصعدة الاخرى

ومن جهة نتبين الواقع الذي افرز ذاك النوع من الثقافة والادب ، ومنها السيرة التي نحن بصددها .

تقول الاخبار التاريخية ، أن امراء المماليك رفضوا مبايعة لاجين الا بعدد من الشروط التي تخدم مصالحهم الطبقية والسلطوية فتم تقسيم المراكز والوظائف الوزارية بينهم ثم بعد ذلك سمي له بالتسلطن وجرت له مراسيم الاحتفالات وانفق على ذلك اموال طائلة وقد تحكم بالسلطان مملوكه الصبي « منكوتمر » فاستبد بوظائف الملك ومهماته . مما اثار الناس فنقموا على السلطان وتحينوا الفرصة للتخلص من حكمه . كان هذا في الداخل اما خطر الخارج فقد بقي التتار محاصرين للارض الشامية وقد دفعت حالة الفوضى في الداخل جماعة امراء المماليك وعلى راسهم « فيجق » الى الخروج واللحاق بملك التتار غازان ، وقد فرح الملك التتاري بذلك لما فيه من عواقب وتأثيرات نفسية ومعنوية على اهل الشام ومصر .

العهد القلاووني :

بقي امراء المماليك يتحينون فرصة البطش بالملك بعد ان نسف الشروط المتفق عليها معهم قبل سلطنته ، واعادة ترتيب المناصب الوزارية للمقربين اليه ، وعلى راسهم غلامه الصغير منكوتمر ، الذي استغل منصبه وبدأ في تصفية نفوذهم في السلطة ، وحين احسوا بالخطر يداهمهم اتفقوا على قتل السلطان لاجين ومملوكه الصبي ، واعادة السلطنة الى الملك الناصر محمد بن قلاوون . واقدموا على ذبحه قبل طلوع فجر الجمعة الحادي عشر من شهر ربيع الاخر ٦٩٨ هـ ، وجيء بالملك الناصر من الكرك الى الديار المصرية . كان لاجين قد اعان الامير بيدرا على قتل الملك الاشرف خليل بن قلاوون فكانت الوقعة بداية مخططه لاستسلام السلطان الذي طمحت اليه نفسه ، وحين تسلطن لم يستطع الاحتفاظ بالسلطان سوى سنتين وثلاثة شهور .

بعد مقتل لاجين عاد السلطان محمد بن قلاوون الى مصر ، واعاد الخليفة الحاكم بأمر الله ابو العباس احمد والقضاة والامراء والجند مبايعته للسلطنة الثانية ، وهو بعد لم يتجاوز الرابعة عشر من عمره ، وخلع على الامير « سيف الدين سلور » نيابة السلطنة اي وحي العرش . ولم يستقر السلطان على عرشه حتى وصلت

اخبار تحركات التتار وتوجهم الى الشام اثر هروب جماعة الامراء المماليك برئاسة « قبجق » . واضطربت الاحوال في البلاد الشامية، ولم يهدأ روعهم الا حين راووا مطالع الجيش السلطاني قادمة من الديار المصرية ، وفي تلك المعركة انكسر اهل الشام ومصر امام جيوش التتار ، فقد سبقت الهزيمة العسكرية انهيار معنوي كان وراءه العديد من الاسباب ، ليس فقط همجية التتار وبربريتهم ، بل الشتات السياسي الذي ساد اوساط الامراء المماليك ، والتمزقات الداخلية ، وفقدان الثقة بالحاكم وعدم الاهتمام بشؤون الرعية وترك امورهم سائبة ، وعدم التنظيم والتعبئة النفسية المسبقة ، ثم فوق هذا وذاك خروج الامراء الى الملك التتاري ، وشكهم في خروج سلطان مصر اليهم ، والاخطاء التي ارتكبت اثناء القتال ، وفي وصف الحالة بعد المعركة قيل كان اكبر الامراء يرى وحده ، وقد عجز عن الهرب ليس معه من يقوم بخدمته وهو مسرع في السير متوجه الى جهة الكسوة لا يلوي على احد قد دخل قلوبهم الرعب والخوف ، تشتمهم العامة وتوبخهم بسبب الهزيمة من التتار وكونهم كانوا قبل ذلك يحكمون في الناس ويتعاظمون عليهم . وقد صار احدهم الان اضعف من الهزيل وامعنوا العامة في ذلك وهم لا يلتفتون الى قولهم ، ولا ينتقمون من احد منهم .

تلك اذن صورة حية تمثل واقع حال الامراء المماليك ، وما كان لذلك من تاثير على العامة فوقعوا في شرك الذل والهوان وما ان دخل غازان حتى خطب له يوم الجمعة بخوف ودجل وقد شجعته تلك الوضعية على ان يضع يده على اموال الناس فجمع كما يقول صاحب النجوم الزاهرة على لسان ابن المنجا ان الذي حمل الى خزانة غازان خاصة نفسه ثلاثة الاف الف وستمائة الف سوى ما حق عليهم من التراسيم والبراطيل والاستخراج لغيره من الامراء والوزراء وغير ذلك ، بحيث ان الصفي السنجاري استخرج لنفسه اكثر من ثمانين الف درهم ، وللامير اسماعيل مائتي الف درهم ، للوزير نحو اربعمائة الف وقس على هذا . ذلك حال اهل دمشق بعد الحرب فهب لاموالهم وممتلكاتهم وسبى لنسائهم بعد ان كسر جيشهم وقتل اكثر صغرهم ورجالهم . وقد ورد وصف لحال الجنود بعد المعركة وعجز اكثر الامراء والجند عن التوجه الى جهة مصر خلف السلطان بسبب ضعف فرسه ، فصار الجندي يغير زيه حتى يقيم بدمشق خفية من توبيخ العامة له ، حتى لبعضهم حلق

شعره وصار بغير دبوقه .

اما وضع العساكر المصرية فلم تكن باحسن حال من العساكر الشامية فقد ساروا وراء الملك الناصر محمد يجرون أذيال الهزيمة واكثرهم عراة مشاة ضعفاء ، وذلك الذي اوجب تأخرهم عن الدخول مع السلطان الى مصر ، واقاموا بعد ذلك شهرا حتى استقام امرهم ، ولولا حصول البركة بالديار المصرية وعظمها ما وسعت مثل هذه الخلائق والجيوش كانت الهزيمة اكبر هزيمة في ذلك العصر فمن المسؤول عنها ومن المتسبب في حدوثها ؟ اسئلة يجيب عليها سردنا التاريخي لواقع الحياة السياسية المتسببة للانكسارات العسكرية والانهيار الاقتصادي والتدهور الاجتماعي الاخلاقي والمعيشي .

بقي زمام المبادرة والمباغتة في يد التتار في ظل التدهور السياسي وغياب السلطة القومية القادرة على الحركة والردع ، وبقي الناس في حالة خوف وذعر خاصة عندما كانت تتوارد اليهم اخبار تفيد ان غازان يجمع الجموع ليسير هذه المرة الى مصر ، ووجد اهل الشام انفسهم في حالة من الضياع فالعدو امامهم يزحف عليهم ، ولا من يحشد طاقاتهم وينظمها لمواجهة الخطر الداهم فتفرقوا في السواحل وقصدوا الحصون وتشتت غالبا اهل الشام الى البلاد من الفرات الى غزة ، وخلت دمشق ووصل الانهيار المعنوي عند امراء المماليك حد بلغ فيه مداه ، حين خرج الى دمشق وحاول فرض حالته المنهارة على العامة فاخذ يخنق الناس بنفسه . وصار يمر بالاسواق ويقول : في اي شيء انتم قعود وبدل من ان يعمل على تثبيت عزائم الناس اخرج المنادين لينادوا بأهل دمشق من قعد خدمه في رقبته ، وحده لم يقدر على السفر فليطلع الى القلعة وتقول الاخبار انه سافر ذلك اليوم معظم الناس .

اما اخبار مصر الداخلية فتقول انه تم تنصيب خليفة جديد « الربيع سليمان » وقد نعت بالمستكفي ، وقد نصبه السلطان محمد وعمر التنصيب قاضي قضاة الديار المصرية . وفي ظل انشغال الحكام بانفسهم انفرطت امور الداخل ، وتمكن عربان الوجه القبلي من الطرق التجارية وتحكموا فيها وفرضوا على التجار جبايات وفرائض ، فجهزت عليهم حملة كبيرة لتاديبهم ، وما ان انتهى القتال معهم حتى توجه لقمع تطاول المتعاونين مع غازان التتاري ، فارسل عساكره الى حماة لكسر شوكة المتعاونين مع التتار قبل دخول

الحرب ضد غازان ، كما اتخذت تدابير اخرى صارمة لوقف التخاذل وقطع الطريق امام الهاربين .

تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون السلطنة في المرة الثالثة اثر انهيار السلطان المظفر بيبرس ، وقد اعلن موقفه هذا في رسالة بعث بها الى السلطان الناصر وطلب منه امرة الكرك وطمئنه الناصر لذلك ، وحين تمكن من السلطة اماته خنقا ، واجرى تعديلات في السلطة كبيرة تخلص فيها من منافسيه والذين توخى منهم المشاكل والمصاعب ، فقضى على الامير او نائب السلطنة السابق واحد الاوصياء عليه في سلطنته الثانية « سالار » وصادر امواله الكثيرة ، كما افرج عن المعتقلين السياسيين على ايام تسلطن المظفر بيبرس، واجرى تبديلات في القضاء وضرب على المعارضة بشدة وقسوة خاصة بعد ان عرف بمؤامرة تحاك منهم ضده ، وتوجها الى التتار مما اشعره ببقاء الخطر الحقيقي على الابواب فجهز جيوشه ، وحين وصلت اخبار التجهيزات الى التتار شدوا الرحال متوجهين هذه المرة الى بلادهم تاركين الارض العربية بعد حروب طويلة ودامية .

وعلى الرغم من قسوة السلطان في معاملة المتآمرين عليه . الا ان المؤامرات بقيت تحاك في الظلام تباعا . قبل ان يتمكن من السلطان . ففي ٧١٥ هـ حاول الامير « بكتمر وطناي » ونائب طرابلس الامير « تمر الساقي » الفتك بالسلطان الا ان المحاولة باءت بالفشل وتمكن بعدها السلطان من تثبيت نفسه في السلطة . فاستقرت الاوضاع السياسية لاول مرة بعد اضطرابات طويلة في الداخل وحروب دامية مع العدو الخارجي .

توجه السلطان الناصر لاصلاح الاوضاع الداخلية مبتدئا برفع ظلم الامراء السابقين على الجماهير الفقيرة فخفض سعر القمح حتى اصبح الاردب بدرهمين ونصف ، والاردب الملح بثلاثة دراهم ، وابطل السمسرة والتلاعب به ورفع الضريبة المفروضة على الدواب والفراريج ، والغى ما كان يدفع على الاقصاب والمعاصر ، وابطل جباية المراكب ، وما كان مفروضا على الاسواق والسجون و... من رسوم من الافراح او بيوت البغاء وغيره من الضرائب ، ليس فقط داخل مصر بل وفي سائر مدن وقرى السلطنة ، وكان لاجراءاته صدى عظيما في الداخل والخارج ، فهابته ملوك الافرنج والتتار وارسلوا في طلب الصلح معه . وضمن سلسلة الاجراءات الداخلية

قام السلطان بارتجاع كل اراضي المماليك واموالهم الى خزائن الدولة وقرر لهم رواتب شهرية محدودة . اما على صعيد البناء الداخلي والاعمار فسوف نأتي على ذكر ذلك مراعين التسلسل الزمني في احداث الفترة . هذا وقد قام السلطان بتوسيع طريق عقبة أيلات لمرور الحجيج منه الى مكة .

ما أن بدات الاصلاحات الداخلية تعطي ثمارها حتى أصيبت القاهرة بنكسة فقد استعرت الاحقاد الطائفية ، وكانت تعمل عملها في الخفاء حتى اليوم الخامس عشر من جمادي الاولى ٧٢١هـ فشب حريق في القاهرة مبتدءا سلسلة الحرائق ، والتي تصفها الكتب التاريخية بأنها خرجت عن القدرة البشرية « فأكلت الدور والنخيل ، وامتدت الى المراكب وخرجت الناس من دورهم ، وتعلقوا بالمآذن حتى خيل لهم ان القيامة قد قامت فما ان يطفىء حريق حتى يشب آخر وشمل المساجد والجوامع » . وجاء ذلك كرد فعل على الفعلة التي حدثت من قبل بتهديم الكنائس وقد عالجها السلطان بحكمة وتعقل مع بتركيرك الاقباط في مصر . وضرب بيد من حديد على مشعلي الفتنة الطائفية فأخمد أوارها قبل استفحالها .

يطول بنا الحديث ان قمنا بسرد تاريخي لسلسلة اعماله التي قام بها اثناء حكمه وسلطنته الثالثة والتي استمرت ثلاثين سنة ، ويكفي أن نشير الى أن الارض المصرية والشامية شهدت سلسلة من البناء والتعمير شمل دور العبادة والمدارس والقناطر والجسور ، وعمر كذلك الاراضي الصحراوية التي تقع بين المدن والقرى القريبة من بعض ، وزرعت اراض شاسعة وقامت البساتين الجميلة وبنى العديد من القصور وانشأ الميادين الكبيرة وعلى أيامه زادت الديار المصرية مقدار النصف وكانت من نتيجة الاجراءات ارتفاع سعر العملة فقد أصبح الدينار بخمسة وعشرين درهما بعد ان كان بعشرين درهما . وقد بقيت سلطنته الثالثة حتى ٧٤١هـ ، وفيها شهدت العلاقات اليمنية المصرية تحسنا كبيرا وازدادت ارتباطات اليمن بمصر .

ومن المآخذ التي عليه ، استبداده بامور الملكة وتفرده بالحكم حتى انه ابطل نيابة السلطنة من الديار المصرية ليستقل هو باعباء الدولة وحده ، فلا يستشير ولا ينتصح أي ان نظام الدولة في عهده

قام على دكتاتورية الفرد المطلقة . فماذا كان بعد الدكتاتورية "المطلقة مع أوضاع حكم ؟ للاجابة على هذا السؤال نستمر في استطر 'دنـا التاريخي .

انهيار السلطة في مصر :

انهارت الاوضاع بالكامل بعد وفاة الناصر محمد ، وعلى اثر توليه ابنه السلطان المنصور ابي بكر مقاليد السلطنة المملوكية ، وتولي نيابة السلطنة « الامير سيف الدين طقزدمر الحموي » كما اتفق الامراء على ان يكون ولـي العرش ومدبر المملكة « قوصون الناصري » ويشاركه في الرأي « الامير بشتك الناصري » ، وعلى عهده الذي لم يستمر سوى تسعة وخمسين يوما دخل المماليك في صراعات طويلة افتتحها « قوصون » و « بشتك » خلافاتهما حول الشام وكان من جرائه تجريد بشتك من جميع صلاحياته واملاكه . وقد وجد المماليك ومماليكهم في الاجواء السياسية المشجعة الفرصة مناسبة في تحقيق اهوائهم وأطماعهم السلطوية ، والامير غارق في اللهو والمجون .

في تلك الايام القليلة التي حكم فيها وقد ساعدت حالته على اسقاطه من العرش السلطاني اثر تحرك اربعمائة مملوك الى باب القلعة ليطلبوا منه أن يترك السلطنة للامير قوصون ، وقد اخـرج السلطان المنصور واخوته واهله من القلعة الى قوص منفيين ، وما هي الا فترة وجيزة حتى سقط الشاب قتيلا بتدبير من قوصون ، ليخلو له الجو السياسي فأصبح هو المتنفذ في أمور الدولة ، وليصبغ نفوذه بالشرعية فقد سلطن الطفل الملك « الاشرف علاء الدين كحك » وهو بعد دون السبع سنين .

بدأ قوصون يتصرف في أمور الدولة كما يحلو له فانعم على احد وعشرين مملوكـا من المماليك السلطانية بأمريات ، وحـين شعر مماليك الامراء بانهيار الدولة بدأوا حركة تمرد وعصيان على الاوامر السلطانية فرفضوا طلب قوصون بارسال اربعة مماليك اليه ليقيم معهم علاقات مريضة وشاذة كانت تحدث بين المماليك ومماليكهم مما ضعف هيبة السلطان والامراء وجعل مماليكهم يتطاولون عليهم ، وقد نشبت من جراء ذلك مشادة حامية تدخل فيها امراء كبار ، استنزفت

المشادات والخلافات الشخصية جهد الامراء خاصة حين كان نطاق الخلاف يتسع كثيرا كما حدث في المشادة اياها ، وقد تدخلت فيها العامة لتسفر عن نتائج وخيمة سقط على اثرها ثمانية وخمسين رجلا .

كانت فترة حكم قوصون اضطرابات وقلاقل داخلية ، فما ان ينتهي من مشكلة حتى يجد نفسه في خيوط الاخرى فقد بدأ تمرد النواب ومخالفتهم للاوامر بعد تمرد المماليك فخرج عند نائب حلب « طشتمر » ، ثم امير « اخور ايدغمش » ثم امتنعت عنه مدينة الكرك ، ولم يجد في نفسه وسيلة لمعالجة المشاكل السياسية غير القتل والاغتيال ، فأقدم على قتل جميع معارضيه بطريقة جبانة لجأ فيها الى السم والقتل السري ، كما فعل مع الملك « المنصور أبا بكر » ومع « الامير بشتك الناصري » . كما فرق اقطاعات الامراء المتعاطفين مع « قطلوبغا الفخري » . وباع كل أمير ممتلكات الامراء الاخرين ، كما فعل احد موالي « قوصون » بممتلكات « طشتمر » ، ولم تستمر حال ولي العرش قوصون كما هي ، فقد انقلبت عليه الامراء وحرضوا العامة ، فحاصروه بقلعة الجبل ونهبوا ممتلكاته وكل امواله حتى ثياب أولاده ونساءه وكل ما في قصوره ومنازله ، وحين وجد نفسه معزولا مجردا ضعيفا سلم نفسه فوضع القيد في يده وسيق الى البرج الذي سجن فيه الامير شتك وسارت جماعة من امراء المماليك الى السلطان « الناصر احمد بن محمد » في الكرك لتسلطنه بدل اخيه الاشرف علاء الدين كجك ، والذي بقي في السلطة خمسة اشهر وبضعة أيام ، وقد عاد الى كنف والدته فعاشت واياه في الدور السلطانية عيشة ذل واحتقار وهوان ، ولم تكتف الاسرة الحاكمة بهذا الحد من الحقد على بعضها بل قامت بأعمال في منتهى الاجرام والحقد يحركها في ذلك شهوة الحكم وجبروته واحتقاده فقد دسوا له السم فقتلوه « وله من العمر اثنتا عشر سنة » . مقدرين بعملهم الاجرامي ذاك قطع الطريق نهائيا أمام عودته للسلطنة او عودة نفوذ المحركين له من الامراء .

هكذا بقيت الحوادث في العهد المملوكي تتحرك تباعا ، مؤامرات مستمرة واحتقاد لا تنتهي بين افراد الطبقة الحاكمة ، تحركها المصالح السلطوية الضيقة والانية والمحدودة النفع حتى لنفسها .

صرفت اموال الدولة على العامة ونثر كل أمير بما كان تحت يديه

من أموال وممتلكات الدولة للجماعة التي تؤيده وتنادي به ، وأصبحت عملية التأييد للارتزاق تطلبها العامة وتطالب بها بالحاح ، كما حدث حين تصايحت جمهرة منهم تطالب بالامير « ان غمش » الذي سجنه قوصون في البرج فوزعت عليها الرواتب والهبات ، تشققت الاسرة المالكة بتلك الحوادث فزوجة ملكتمر الحجازي وأختها زوجة بشتك فرحتان بخروج « ملكتمر » من سجنه شامتتان بقوصون ، وبجانبهما اختهما زوجة قوصون تبكي وتنحب على زوجها ومعها اخوات وبنات الملك الناصر محمد بن قلاوون كل ذلك كان في يوم تنصيب السلطان الناصر احمد ، وقد عكس ذاك التمزق الذي أصاب الاسرة السلطانية نفسه على الامراء ، فلم تعد بينهم لغة غير لغة الضرب والقتال ، كما حدث بين الامير « يبلغا الحياوي » و « كلكتمر الحجازي » حين تحول الكلام الى خصام وانقسم الأمراء الى طائفتين ، ولبسوا آلة الحرب وواجهت كل جماعة الاخرى وايديها الى قبضة سيوفها . استعدت العامة بدورها وتجمعت تحت القلعة لنهب بيوت من عساه ينكسر من الامراء .

ان ظروف البنية الفوقية لذاك المجتمع قد عكست نفسها بصورة حادة على الجماهير الشعبية التي لم تجد في ظل التناحرات السلطوية من يهتم بها . فأكملت مشوار التخريب الداخلي بحسب التوجيهات الصادرة اليها من هذا الامير ضد ذاك ، وقد وجهت هذه المرة الى ممتلكات الامير جركتمر وأحالت مرابعه العامرة الى كومة تراب ، كما قاموا بتحريض من الامير « رمضاء » ابن الملك الناصر بنهب منزل والي القاهرة « جمال الدين يوسف » واشتبكوا مع أهله واخوته بالسلاح واشتبكت الجماعتان في قتال مرير سقط فيها وجرح الكثيرون .

وصل الانهيار في داخل قصورهم قمته حين شجع الامراء طباخيهم على بعض فقد ضرب طباخي السلطان قاضي قضاة الديار المصرية « حسام الدين الغوري الحنفي » وفرقوا ثيابه وأحرقوا عمامته في حلقة . اما زوجات الفخري نائب دمشق فقد تعرضن لكل انواع الاهانة وبولغ في الاساءة اليهن . فقد شمل سوء الاوضاع السياسية ضمن من شمل الاطفال والنساء ، وانهارت الاخلاق والقيم الاجتماعية والانسانية فديست المقدسات وانتهكت الاعراض وجرت الامور اللاأخلاقية واللاانسانية بين صفوف الاسرة الحاكمة ، ولنا ان

نقيس عليها الاستبداد والظلم والعبث بالجماهير الشعبية بوضعها الاجتماعي وحياتها المعيشية واخلاقياتها الاجتماعية والانسانية .

لم يكن للسلطان من هم سوى اللعب واللهو بعد ان اهمل كل امور الدولة ناهيك عن الوضع الاجتماعي البائس فقد احتجب عن الناس وترك مصر وتوجه الى الكرك ليعيش مع بطانيته وشق على الجميع غيبته ولننتقل على لسان شهود عيان الحالة المهترئة في ايام السلطان الناصر احمد « واما في الديار المصرية فانه شق عليهم غيبة السلطان منها ، واضطربت احوال القاهرة وصارت غوغاء ، وصار عند اكابر الامراء تشويش كثير لما بلغهم من مصاب حريم الامير قطلوبغا الفخري . وبقي الامير امدسنقر السلاري في تخويف عظيم فانه بلغه بأن جماعة من المماليك الذين قبض على استاذهم باطنوا بعض الامراء على الركوب عليه ، فترك امدسنقر الركوب في ايام المواكب اياما حتى اجتمع الامراء عنده وحلفوا له . ثم اتفق راي الامراء على ان كتبوا للسلطان الملك الناصر احمد كتابا في خامس محرم سنة ثلاث واربعين وسبعمائة بأن الامور واقفة نصيبه السلطان وقد نافق غالب عربان الصعيد وغيره وطمع ارباب الفساد ، وخفيت السبل وفسدت الاحوال ، وسألوا حضوره الى الديار المصرية وارسلوا الكتاب على يد الامير طقتمر الصلاحي فتوجه طقتمر اليه ، ثم عاد الى الديار المصرية بجوابه في حادي عشرة . بانني قاعد في موضع اشتهي ، واي وقت اردت‌حضرت اليكم . وذكر طقتمر ان السلطان لم يمكنه الاجتماع به ، وانه لعبث من اخذ منه الكتاب ، ثم ارسل اليه الجواب » . ذلك اذن واقع الحال . اهمال وعبث لا حدود له والتهاء بالمغامرات الشخصية ، التي اضرت بالمصلحة العامة وخلخلت اركان الدولة ، فانتشر الفساد في كل مرافق الحياة وبكل الاشكال والصور وبدأ المماليك يحفرون قبر ملكهم بأيديهم .

كانت الثلاثة اشهر التي تسلطن فيها السلطان الناصر احمد بداية الانهيار لدولة المماليك ، فقد تتابعت الاحداث فيها وبعدها بصورة سريعة وقوية منحدرة بالدولة الى الهاوية ، فقد سقط سعر العملة حتى ساوى الدينار خمسة دراهم ، بعد ان انفقت الاموال الطائلة على المعارك الجانبية الناشبة بين الامراء من جهة والسلطان الناصر ومؤيديه واتباعه من جهة ثانية ، وانتهت بالقبض عليه ثم قتله وجز رأسه ، وتسلطن الملك « السلطان الصالح اسماعيل بن

السلطان الناصر محمد » . وقد بايعه الامراء هذه المرة لاستقامته وتدينه بحسب فهم ذهنية العصور الوسطى ، فقد كان يشغل اوقاته بالصلاة وقراءة القرآن وقد قام بتعديلات وزارية كبيرة في محاولة لتطهير الوزارات من انصار اخيه السلطان السابق أحمد . الا ان ذلك لم يوقف الانهيار المستمر في دولة المماليك فلم يكن العلاج في تغيير شخص السلطان ، واستبدال اخلاقيات فردية من نوع معين مطلوب بدل أخلاقيات السلطانين العابثين .

استمرت الانشقاقات في الاسرة خاصة بعد خروج الامير « رمضان » اخي السلطان ومحاولة تنصيب نفسه سلطانا بدل أخيه واثناء مرضه ، جمع رمضان جمع كثير من أجناد الحسينية ومن مماليك تكا والعامة في القلعة . الا انهم ما لبثوا ان استسلموا ولم يعالج السلطان الموقف بحزم ، كما لم يفعل بحزم مع أخيه السلطان احمد وقد ظل يرسل اليه التجريدات الواحدة بعد الاخرى حتى وصل عددها الثمانية والسلطان المخلوع متشبث بقلعة الكرك .

جاء السلطان بنواب على نفس اخلاقياته المترددة ، جسد الاخلاقيات المترددة الامير انسنقر الذي لم يكن يرد قاصدا كما كان يوزع للناس اقطاعيات غيرهم دون الانضباط لابسط قواعد التشريع او تحكيم العقل والمنطق ، مما أفسد الاحوال وخلق الفوضى الداخلية وانعشها ، ولم يمتثل لاوامر احد وكان جوابه الدائم : « كل من طلب مني شيئا اعطيته ، وما أورد قلمي على أحد » . واصطدم الامراء ذوي العقلية السلطانية المترددة ببقية الامراء حول الاخلاقيات العامة واشتبكوا ضد بعضهم ، كل يحاول ان يجرح ويهين الطرف الاخر ، ولم يستطع السلطان أن يضع حدا للمشاكل الجديدة التي برزت بعد توليه السلطة ، وقد شجع ذلك المماليك والطواشي فتطاولوا على الدولة ، وعارضوا النواب في أمور كثيرة حتى صار النائب يقول لمن يسأله شيئا : « روح الى الطواشي فلان فينقضي شغلك واصبحت الوظائف والاقطاعات والارزاق لا تقضى الا بالخدام والنساء » . وفعل الطواشي كما فعل امرائهم فاغتصبوا أموال الناس وأرزاقهم ، ونهبوا الدولة وأموالها ، حتى لم يجد السلطان في بيت المال ما يعينه في الحملة التي أرسلها الى السلطان المخلوع الناصر أحمد ، وعلى أيامه استدانت الدولة من التجار والعجم ومن بنت الامير بكتمر الساقي ، وهبطت ميزانية الدولة وقل دخلها وارتفع خرجها

ومصروفاتها ، توفي السلطان الصالح في ليلة الخميس رابع شهر ربيع آخر سنة ست وأربعين وسبعمائة ، وتسلطن أخوه شعبان .

بدأ السلطان الكامل بسلسلة تغيرات وزارية جرت العادة في ظل اضطراب الاوضاع ان تحدث كلما تغير سلطان او استبدل ، وينعم على الموالين بالوزارات والمناصب ، وقد استهل السلطان حكمه بالانعام على ستين مملوكا .

أصبحت المسؤولية في العصر المملوكي انعامات وهبات وعطايا تقاسمها الامراء الجانحين الى هذا الطرف أو ذاك ، ووجد اميلا بيغرا حصته ككبير الحجاب ورميت امرة مكة للشريف « عجلان الحسني » وتلقى الامير « ملكتمر السرجاواني » نيابة الكرك واعطيت نيابة الشام لنائب السلطة الامير « الحاج ال ملك » ، وفرح الامير « اسندمر العمري » بهبة طرابلس المنتزعة من الامير « قماري » وقد بعث بالبريد من الشام الى مصر ، اما حماه فقد اعطيت للامير « ارسلان » وكانت من سابق « بيرار قطامي » الذي اعطي اقطاع « جنكالي بن البابا » ، وعبئت نيابة بغداد الشاغرة منذ مدة من الزمن « بالمير نجم الدين محمود » ، وعدا عن انعامات النيابات والوزارات والوظائف فقد صرف السلطان من ميزانية الدولة هبات وعطايا كثيرة من الصعب ان نفتح سجلها ، ويكفي ان نشير الى انه خصص لكل امير عاطل عن العمل ليس له من هم سوى اللعب مع السلطان مبلغ الفين الى ثلاثة الاف درهم وهـي مبالغ هائلة في ذلك الزمـان ، وانشغل السلطان عن أمور الدولة بأموره الشخصية العابثة مع الامراء وكثر شرب الخمر وغرقوا في القمار ، واعتدوا على اخلاقيات الناس وهتكوا بالقيم ، في استخفاف بأرواح مواطنيه فاعلن احكام الشنق لاتفه الامور والقضايا الشخصية ، وتمادى السلطان في بطشه فشنق كل من يقول منه « ارغون الصغير » ، واقتدى به الامراء والمماليك وتسلط عبيد « الطواشية » على الناس ، وصاروا كل يوم يقفون للضراب فتسفك الدماء الكثيرة واعتدوا على أموال الناس وأعراضهم فكانت الحوانيت تنهب بين الحين والاخر وكثرت الوشايات بالناس وارتفعت الضرائب واثقلت كاهل العامة وشملت نواحي عديدة لتصل الى الدواب والزرع وابتدع السلطان بدعة مست اعراف الناس وأخلاقهم في تلك الفترة فقد كان السلطان يشارك مملوكه في زوجته ويعقد عليها معه ، اي انه مارس الزواج الجمعي والمشاركة

في المرآة .

وانتزع اقطاعيات الامراء المناوئين له ، واعتمد القتل والتقتيل اسلوبا يمكن بواسطته الحصول على الاموال اللازمة للمصروفات السلطانية ، وفي ايامه قتل كثير من الامراء فقد ذبح « نجم الدين محمود » « والأمير بيدمر البدري » نائب حلب والامير « طغيتمر النجمي » بعد أن اخذت اموالهم في غزة ، كما قتل مجموعة من الامراء المسجونين بالاسكندرية ، واستمر القتل في كبار الامراء حتى وصل الدور الى وصي ومدبر المملكة وأقرب الناس اليه الامير « شجاع الدين غرلو » ثم راح يحيك المؤامرات لقتل أخيه حسين .

خاف الامراء على حياتهم بعد ان هدد بذبحهم كالحمام فاجتمعوا عليه وتولى قيادتهم « الجيبغا » وهو احد مماليكه ، وارسلو اليه بتحذيرهم « واعلمنا فساد نيتك لنا وقد قتلت أبيك وأخذت اموالهم ، وهتكت حريمهم بغير موجب ، وعزمت على الفتك بمن بقي » ثم طلبوا منه التنازل عن السلطنة او مقاتلته. وقد كانت نتيجة جبروته ودمويته ذبحه كالنعاج بعد حكم دام سنة واحدة وثلاثة أشهر .

واختلفت المماليك والامراء حول السلطان الجديد فاختار المماليك لعبتهم حسينا واختار الامراء دميتهم السلطان « الناصر حسن » ، ورجحت كفة الامراء وتسلطن طفل في الحادية عشرة من عمره فكيف كان واقع الحال على أيامه ؟

دبر الدولة على ايامه تسعة من الامراء اتفقوا على تخفيف الكلف السلطانية اي مصروفات الاسرة المالكة وتقليل النفقات الوزارية في محاولة لوقف التدهور المالي ، وضج الناس بتصرفاته ، واعدوا عمله ابشع ما مارسه سلطان في حكمه وقلده في اخلاقاته امرائه ومماليكه وجواريه وتفننوا في ايذاء الناس تحت شعار سلطانهم الكامل « خلو كل واحد يعمل ما يريد » . وبذلك اعطاهم صك الغفران للعبث بجماهير الشعب المصري الفقيرة ، ولم يستطع نوابه ان يفرضوا ، حد ادنى من احترام القوانين والشرائع العامة وشمل الهزء كل ما هو قائم وضربت احكامهم عرض الحائط ، وسقطت هيبة الدولة فالغيت كل قوانينها وعمت الفوضى السياسية والاجتماعية ، وانعكس ذلك على الاقتصاد فتدهورت التجارة وتوقفت الحركة في الوارد والصادر وقل الدخل العام فأصيبت الميزانية بعجز كبير ، واهملت الزراعة وقل ماء النيل حتى بلغت رواية الماء درهمين بعد ان كانت

بربع درهم ونصفه ، وشمل البؤس مصر والشام فاجتمع امراء الشام وقرروا خلعه في رسالة بعثوا بها اليه نقتطف منها ما يلي بشهادتهم لتدعيم ما قمنا بشرحه « انت افسدت المملكة وافقرت الامراء واجناد وقتلت اخاك وقبضت على اكابر امراء السلطان واشتغلت عن الملك والتهيت بالنساء وشرب الخمر ، وصرت تبيع اخباز الاجناد بالفضة » كما ذكروا امور اخرى خجل صاحب الكتاب من ذكرها فاكتفى بعبارة « ذكروا له أمورا فاحشة عملها » . وتفاقمت المشاكل وتفجرت الاوضاع الداخلية فقرر الامراء خلعه ولو بالقوة بعد الضغط المتزايد من الناس لاستفحال الامور وخروجها عن كل حدود الاستطاعة البشرية فساروا علــى رأس « ملكتمر الحجازي » . وانفض النــاس عن السلطان ولم يجد من يقف معه سوى المستفيدين منه من مماليكــه وطواشيه فانهار كلية وسيق مقيدا الى سجن الوهيشة ثم قتل فيه بعد حكم او بتعبير أدق بعد عبث استمر سنة وبضعة ايام اتى فيها على الاخضر واليابس وترك البلاد وهي توشك ان تهوي الى قاع التخلف والبؤس الكاملين .

سلطن الامراء كما جرت عادتهم السلطان الملك المظفر زين الدين حاجي بعد ان اخرجوه من السجن ورحب بسلطنته النــواب والمستوزرين آملين في تحسن الاحوال من وجهة نظر ذهنية القرون الاوسطية التي كانت تأمل في التغيرات السلطانية ، غير مدركة ان الانهيار السياسي يصيب الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فتنهــار بانهياره ثم يصعب بعد ذلك بل ويستحيل ايقاف التدهور واعــادة البناء الاقتصادي والتلفيق السياسي بل واكثر من ذلك فان الانهيار الاقتصادي وتخلف قوى الانتاج وعلاقات الانتاج يؤدي الى شــد الاوضاع السياسية الى الخلف ، كما قامت محاولة لترميمها واعــادة الدفع بها الى الامام ، فكيف اذا كانت الاصلاحات السياسية لا تتجاوز حدود الترقيع في عملية الاستبدال في حكم السلاطين ، ومن دون المساس بالبنية الطبقية الفوقية ككل ، ودون الوصول نهائيا الى البنية التحتية للتغير في صلبها . ولذا لم يات التبديل والتغيير في السلطة والذي كان يشمل السلاطين ونوابهم ومستوزريهم باية دفعة الى الامام ، وجاء السلطان المظفر في اوضاع انفرط عقدها ، فواصل مشوار العبث والتلهي بأموره وغرق في ملذاته الشخصية وصرف عليها ما تبقى من اموال الدولة فاصيبت الميزانية بانهيار كامل ولم يجــد

السلطان ما يصرفه غير انتزاع اقوات الجماهير بزيادة الضرائب والمكوس .

الوبـــاء :

شهدت الانسانية مأساة كبرى كانت نتيجة التراكم الكمـــي للتدهور الذي اصابها في القرون الوسطى بسبب كثـــرة الحروب وسفك الدماء والقتل الجماعي واهمال الزراعة وانتشار الاوبئـــة والامراض في الزرع والضرع ، مما سبب في حدوث مرض الطاعون مبتدءاً ببلاد البلقان الكبير ثم تبريز ماراً ببلاد الشرق جميعها : ازبك اسطنبول قيصرية الروم ، انطاكية ، جبال ابن قرمان ، وقيصرية بلاد سيس ووصل بغداد ثم قدم الى البلاد الشامية بأسرها وبلاد ماردين وجميع ديار بكر وفلسطين بسواحلها وجبالها ووصل الى جـــزيرة قبرص واستقر في مصر ، حملت الرياح الوباء فكان لا يلامس حيوان ولا انسان الا وتركه جثة هامدة حتى كادت المدن ان تخلو من سكانها، وصعقت الناس لهول ما نزل وتخيلوه غضبة ربانية فخرج من تبقى فيهم الى المساجد يقراون القرآن وصحيح البخاري ويتقربون الى الله بالذبائح ليرفع عنهم البلاء بناءا على نصيحة قاضي قضاة دمشق « تقي الدين السبكي » ، بعد ان قدم عليه رجل من جبال الروم يخبره برؤيا وقعت له في منامه تحكي ان الرسول اتى اليه وحادثه بما وقع للناس من بلاء ، فأمره اي الرسول ، ان يدعو الناس للقيام بالقراءة والتقرب والتضرع الى رب السموات والارض ، وقد نفذ النـــاس الاوامر الرسولية . وبقى الوباء مستمرا فبدت القاهرة بشوارعها المزدحمة من قبل خالية مقفرة فقد بلغت الاحداث في اليوم الواحد عشرين الف حادثة لمدة شهرين حتى بيعت كتب العلم بالاحمـــال وبأرخص الاثمان وانخفض سعر الذهب والفضة حتى صار الدينار بخمسة عشر درهما ، وعدمت جميع الصناع ، فلم يوجد سقاء ولا اغسال ولا غلام » . وعلى ذمة المؤرخين فقد قيل ان هذا الوباء بقي يدور في الارض مدة خمسة عشرسنة .

عود الى الاوضاع الداخلية في سلطنة المماليك نـــرى ان استفحال الامور بلغ حد القتل بين الامراء لبعضهم البعض دون رضى السلطان او موافقته منذ ذبح « الجيغا ارغون شاه » . وقد تسلطن

بعده أخيه الملك الصالح « صالح بن محمد بن قلاوون » بعد ثلاث سنوات ونيف من الحكم المهتريء فقد خربت في أيامه الارض الصالحة للزراعة وكثرت الحرائق والتدمير، واختلف الامراء وافتتنوا واضطربت المملكة واختلت الاوضاع الاقتصادية وفسدت الحياة الاجتماعية هذا اضافة عليه الوباء والفناء المريع الذي شمل السلطنة .

في سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة جاء الى السلطنة باتفاق الامراء والسلطان الملك الصالح صالح ، استحل فيها مال ودم كل هارب من دمشق . وكان من نتائج الثبات والصرامة انتصار جيوش مصر والشام بعد معاناة طويلة ، وهزيمة جيوش التتار وجحافله . وقد ازداد تدخل نواب السلطان في شؤونه الداخليه حتى تحكموا في مأكله ومشربه واصبح في أيديهم مجرد دمية يحركونها كيفما شاءوا مما حمله على التخلي عن السلطة واستلام احد نوابــه المدعو بيبرس السلطنة والتسلطن نيابة عنه بعد ان خلع السلطان محمد نفسه ، لم تستمر سلطنته اكثر من عشرة اشهر بلغ فيها صراع الامراء فيما بينهم اشده كما فشت بين الناس في تلك الايام أمراض حادة وعم الوبــاء وانتشر وتغلغل بين الجماهير الفقيرة وتوقفت زيادة النيل حتى ارتفع سعر القمح وسائر الغلال ونكب المواطن المصري في لقمة عيشــه فاضطربت دولة الملك المظفر بيبرس ، واهتزت من حوله الاوضاع السياسية حتى سقط بدخول الملك الناصر الديار المصرية وقد تخلى عنه اقرب المقربين اليه ثم قتل خنقا من قبل السلطان محمد .

الباب الثامن

الصراع المصري الحبشي

ليس من شك ان للشعوب الاثيوبيــة علاقات تداخل وتمازج بالشعوب المجاورة شمال شرقي افريقيا من جهة ، وجنوب الجزيرة العربية من جهة ثانية . ولقد قامت العلاقات بينهما كنتيجة طبيعية لوحدة المنطقة الجغرافية او لمجاورتها لبعض ، ولقد خضعت العلاقات القبلية بين القبائل الاثيوبية والقبائل العربية اليمنية والمصرية ، للقوانين العامة بين القبائل البشرية ، سلام وحرب واقتتال ، وكانت تفرضها المصالح الحيوية للقبيلة التي تجد ترجمتها العملية في عملية التقارب او التباعد فيما بينها . ولن نستطيع ان نتابع العلاقات بين القبائل الحبشية والقبائل العربية اليمنية والمصرية للبعد الزمني الذي امتص او احتواها . لذا فقد حاولنا القيام بعملية استكشاف لحلقات التواصل والتباعد الاتصال والانفصال بين قبائل وشعوب المنطقة في فترة زمنية محددة تهم بحثنا .

لقد شكلت المسيحية والاسلام نقاط تقارب وتباعد على المستوى العقائدي والفكري بين مصر والحبشة وكان لهذا الجانب دوره الكبير في تحديد السياسات الخارجية ورسم معالمها ، منذ ان اعتنق الملك الحبشي « عيزانا » المسيحية فقد كان لذاك الحدث التاريخي اهمية

عظيمة في **تكوين الوعي الذاتي بسمته القومية** لدى القبائل الحبشية المنتصرة ، وتميز وجه الحبشة دون غيرها من دول المنطقة وقبـل غيرها من الدول . **وبدا ذاك الوعي الديني المبـكر يشكل ملامـح الشخصية الذاتية المتميزة عن غيرها** . فاضحت القوة الرئيسيـة الحافظة والداعية للمسيحية في المنطقة ، واكسبها ذلك مكانة عنـد الدول الكبرى فقربتها روما ، وحسبت فارس حسابها ، وخافتها دول المنطقة واستعظمتها الجماعات المتدينة بالمسيحية في الشرق . ومما لا ريب فيه ان مثل هذه المكانة ستخلق ظروفا جديدة في المنطقة تشعر فيها الحبشة بواجبها ومسؤوليتها التاريخية في حماية الجماعات المسيحية اينما كانت ، فحدثت سلسلة التدخلات من قبلها في الشؤون الداخلية للجزيرة وجنوبها على وجه الخصوص ، وبقي هذا الواجب ملقى على عاتق الاحباش ، كما بقيوا يشعرون بـه حتى ومكانتهم وهيبتهم العسكرية والسياسية تشكو الازمات والانحسارات .

ولقد حاولت الاديان الجديدة وجهة الصراع بين قبائل المنطقة فنشبت بين المعتنقين للديانة والمضادين لاخـرى صراعات قويـة اوسمت المرحلة بسمات دينية بعد ان عمدت بقدسية الاديان رغم شراستها ، فقاتلت المسيحية من مستوطنتهـا الجديدة والـوثنية المتوطنة في الجزيرة وجنوبها ، في محاولة للانتشار وكسر الانغلاق والتوحد والامتداد بين شاطيء البحر الاحمر ، ولـم تسفر تلـك المحاولات عن اي انتصار حقيقي للفكر العقائدي القادم او لـذاك الفكر الديني الـوطني او حتى للمنـزر في الفيتو ، ولقد اعطـت الصراعات الطويلة نتائج جديدة لم تكن محسوبة او متوقعة مـن اي طرف من طرفي الصراع لقد برز فكر عقائدي وطني جـديد ، فشكل ظاهرة تاريخية اجتماعية ، رفضت الاشكال الدينية المتعددة السائدة والمتنازعة في الجزيرة .

ثم بدأ الفكر الوطني الجديد يأخـذ ابعادا قومية واممية ، وانتقل في خطوته الثانية الى مختلف مناطق البلاد العربية والمناطق المجاورة لها المتداخلة معها في خطوط التقاطع والتواصل ، واتبع في ذلك الامتداد والانتشار الاساليب الملائمة ، فدخل الحبشة متسللا برفق وتوئدة محمولا عبر التجار والمهاجرين ، برسائل الـى الملك ايللا أصحن ، ووصل مصر على اسنة الرماح والسيوف وبحسب مقتضيات الظروف فوضع يده على السلطة السياسية ثم بدأ ينتشر

ويتوسع بين مواطني الديار المصرية وتحول الناس مــن دياناتهم القديمة الى العقيدة الجديدة بصورة جماعية . واستقر الاســـلام في مواطنه الجديدة ففي مصر جماهير مسلمة ، وفي الحبشة سلطة مسيحية ومزيج من الوثنية والمسيحية والاسلام .

وفي ظل التمايز بين حالة المسيحيين الاقباط في مصر حيث لم يكونوا سوى اقلية بعد ان اسلمت جماعات كبيرة منهــم الشعب المصري ومنهم ، وبين حال المسلمــين الاول في الحبشة ثم حــال الاسلام ككل فيما بعد حيث دخلت فيه قبائل باسرها كقبائل « الجلا » والتي تشكل اكثر من نصف مجموع السكان وقبائل السيد أمو المعتنقة اكثريتها الاسلام والقبائل الصومالية وغيرها من القبائل الصغيرة التي اعتنقت الاسلام في مراحل زمنية مختلفة ، وعلى الرغم مــن اكثريتها العددية الا ان السلطة السياسية بقيت في يــد الامهريين المسيحيين بالرغم من قلتهم العددية منذ اصبحت المسيحية ديــن الدولة الرسمي .

هذه الوضعية الغريبة بعض الشيء بالنسبة لوضع المسيحية في الحبشة والتعصب الشديد لها من دون سائر الدول الافريقية وشعوبها والتي ما زالت اكثريتها حتى يومنا هذا على وثنيتها ، قد جعل الحبشــة ملاذ مسيحي المنطقة وغرضها حام عليهم فقد خلت في اليمن اثناء حملة ذي نواس عليهم ، التي جئنا على ذكرها سابقا ، كما احتربت مــع مصر في عصور لاحقة وبعــد ان انهت عزلتهــا السياسية الطــويلة .

الحبشــة والاسلام :

ولا بد لنا من الوقوف قليلا امام علاقة الحبشة بالاسلام حتى يساعدنا ذلك على استيعاب حقيقة الصراع المصري الحبشي فيها والذي وجدنا انعكاساته في الاداب المصرية والعربية عــامة ومنها السيرة الشعبية لسيف .

وضعت الهزيمة اليمنية للاحباش مسار الاحداث التاريخية في القرن الافريقي في اتجاه اخر لما كان مخططا له ومأمولا فيه الحبشة بعد تلك فقبعت الهزيمة في زاوية معزولة من زوايا القرن الافريقي وضاعفت مشاكلها الداخلية من ضعفها فقد عبثت قبائلها وبالذات قبائل البجة القوية بالامن الداخلي وتنقلوا بعد ان كسروا شوكة

السلطة حيثما شاءوا ، ولم تستطع الدولة الاكسومية وقف حركتهم البدوية الرعوية ، بل واكثر من ذلك فقد اضطرت الى الرحيل الى الجنوب وبقيت محشورة في المنطقة الجبلية لمقاطعة تيجري وفي مناطق قبائل الاجار الجنوبية الجبلية ، وهناك تكونت دولة الحبشة الجبلية فشملت مناطق تيجري — جوجام — وامهرا — شوا . وحين استعادت بعض قواها سارعت لاحتلال جزر دهلك وزيلع والتي ادان اهلها بالاسلام .

بقي الاسلام يتغلغل وينتشر في الحبشة وساعده في ذلك انشغال الدولة بمشاكلها مع قبائل الاجاد ، وحين تنبه ملك الحبشة لذلك في اواخر القرن العاشر طلب مساعدة كنيسة الاسكندرية وبطريركها فارسلت اليه جماعات المبشرين والمطارنة احد دعاتها واشراقها المطران « ابونا دانيل » لاسباب منها وحرص مسيحي مصر واقباطها على دولة المسيحيين في الحبشة ، هذا الى جانب حرصهم على بقاء واستمرار وانتشار وتعميق المسيحية ليس فقط في الحبشة ، وانما بين القبائل الافريقية المجاورة ، وقد بذلت كنيسة الاسكندرية في ذلك جهود كبيرة .

وانتشرت الكنائس والاديرة في طول البلاد وعرضها ،واعتمدت الدولة في تثبيت سلطاتها على الكنيسة ، فارتفعت مكانة الاقباط المصريين عند ملوك الحبشة ، وبدأت الدولة تستعيد سلطتها وهيبتها ، وتعيد تشكيل نفسها لتعود من جديد الى الساحة الافريقية دولة كبرى يخشاها جميع الجيران ،وازداد الاقباط المصريين التصاقا بها واصبحت الاحلام المسيحية الاولى ، الاولية ، التي كانت تؤلف نقطة ارتكاز لمسيحي المنطقة في بناء كيان سلطوي لهم يتمتع بثقل دولي ، هي الهدف للحركة الدينية النشطة والمكثفة من الطرفين المعنيين .

قلنا دخل الاسلام الى الحبشة متسللا بواسطة التجار والمهاجرين ، وكان يجد الفرصة للانتشار وقت ضعف الدولة وانشغالها بالصراعات القبلية الحادة والدامية خاصة وانه كان يزحف عليها من اليمن ومصر وما يهمنا هنا زحفه من مصر باعتبارها مركز الثقل الكبير في الوطن العربي ، واعدت مصر نفسها حامية للاسلام في افريقيا منذ العهد الاموي ، وحين اشتد ايذاء قبائل البجة للمسلمين في اسوان ارسل الخليفة المأمون العباسي حملة لتأديبهم ٨٣١ هـ وكانت اول حملة عسكرية عربية اسلامية ضد

الحبشة انتهت بعقد صلح بين الطرفين ثم عادت الحرب مرة اخرى وتكررت في عهد المتوكـــل .

حين اصبحت الحبشة قوة لحامية المسيحية كانت مصر قوة عظيمة لحامية الاسلام منذ العهد الايوبي ثم في ظل المماليك ، فوجهت حملات الى بلاد النوبة المسيحية ، موجـه بالتعاليم الاسـلامية البسيطة الفهم والمعنى فاستطاعت ان توجه ضربة مميتة للمملكة هناك مما ان كان عام ١٢٨٩ الا وقد سقطت المملكة بيد مصر من حيث ولائها الديني ، وقد جاء هذا التحول ليخـل بالتوازن المسـيحي الاسلامي في افريقيا لصالح الاخير .

تمكن الاسلام من النوبة وبدأ في تعريـب قبائل الشمال ولا سيما قبيلة جهينة ومن هنا كانت مخاوف الاحباش فقد كسر السد المنيع امام التغلغل الاسلامي واصبحت الجبهة الغربية تمثل خطرا كبيرا على الدولة المسيحية لا من حيث الثقل العسكري والسياسي لمصر فحسب ، وانما كذلك السطوة الدينية وخطرها على المملكة الاثيوبية فقد بدأ الناس ينساقون مـع التعاليم الجـديدة متأثرين بالقادم الغالب مما اربك الدولة في اثيوبيا واخافها . عكـس ذلك نفسه على العلاقات بين الحبشة والنوبة (السودان) وبدأ الناس يضغطون بدورهم في تغيير علاقات دولة النوبة مع جيرانها موجهين وجه الدولة شطر الشمال ففترت علاقات النوبة بجيرانها في الجنوب . وكان من نتيجة ذلك شل علاقات الحبشة وبالذات التجارية بدول ما وراء البحر الاحمر وخنق اقتصادياتها وحقها في التصدير والاستيراد فحرمانها من متنفس يصلها بالجسم الدولي يقضي علـى مقومات الزعامة للدولة الاثيوبية في افريقيا الشـرقية والجنوبية . وسبب ذلك وقوع حروب كثيرة وطويلة بين الحبشة والنوبة وزاد حـدة التوتر مع مصر ، فمصر العدو الحقيقي للدولة الحبشـية وهناك مسالة اخرى ترتبت من جراء استلام مصر لزمام الهجوم والمبادرة في الحركة اثناء حكم الايوبيين والمماليك لها ، وعلى وجه التحـديد في الفترة الظـاهرية في وقت كانـت فيه اثيوبيا تعاني مـن الضعف والانحلال من الصراعات القبلية والاسروية وقد قفزت الى سدة الحكم اسرة « زاجوي » ، والتي زعمت انها من نسل النبي موسى . وهي من قبائل الاجاد اي انها لا تنتسب الى الدم السامي الحامي فقابلت القبائل الحبشية حكمهم بالرفض المطلق على الرغم مـن محاولاتهم كسب الكنيسة ورفضها في تنصير قبيلتهم « الاجاد » وعمل ملوكهم

وبالذات الملك « لا ليبابالا » على خدمة الدين فانشأ الكنائس والاديرة الضخمة ولم يمحو ذلك ، **التفكير المتوارث القدسي البصمات في ان اسرة اكسوم هي صاحبة الحق الشرعي في العرش وتحكم بارادة الله الواصلة الى سليمان وبلقيس وهم اي اكسوم سلالتهما المقدسة وقد امتدت تلك الشرعية بحق الانتساب الى عصرنا الحديث .** وبقيت حدود مملكة الاسرة الجديدة نتيجة المقاومة في المقاطعات الوسطى في لاستاوتجراي واجزاء من بيجمدر وامهره وشوا الشمالية ثم سقطت نهائيا على يد الملك املك ١٢٧٠ م وعادت الاسرة السليمانية الى الحكم .

عمل الملك الجديد على محاصرة الخطر الاسلامي المدعوم بنفوذ مصر والمهدد للهضبة الوسطى (شوا) وهي اهم المعاقل المسيحية، وقد كان من المستحيل وصول الخطر الاسلامي اليها لولا الانقسامات القبلية والاسرية ومشاكلها ومآسيها في الداخل ، وفي الخارج الخطر المصري .

كان القرن الثامن عشر والثالث عشر من اصعب فترات النظام الحكم الاقطاعي الكهنوتي البطريركي المنغلق على نفسه وقد ازدادت حدة ذاك الانغلاق بعد عملية الدمج للدولة في الكنيسة ، وعلى الرغم من نتائجه الايجابية لكليهما وانتهاء التعارضات الداخلية كلية ، وعطاءاته الايجابية على صعيد الاداب الوطنية ازدهرت حركة التأليف وغلب عليها الطابع الديني . الا ان ذلك لم يمكن الدولة الكنيسة من تحطيم جدار العزلة السميك بينها وبين القبائل والشعوب الحبشية الاخرى وبالذات المسلمة منها فقد اصيبت بخيبة امل نهائية بعد ان كانت تراودها احلام الانفتاح السياسي مع مصر ودول العالم الاسلامي ، وبعد بصيص النور الذي القاه احد ملوك اسرة زاجوي المطاح بها وهو الملك « لاليبابالا » . زادت الحركة الدينية السياسية في الداخل . اثيوبيا اندفاعا من مسيحيي مصر وتطرفا قابله في الطرف الاخر اصرار مصر على حماية اقباطها مما كان يعني تدخلاً في شؤون مصر الداخلية تولدت على اثره ردود فعل مصرية حادة بلغ حد التحريض للقبائل المسلمة مع وجود الظروف النفسية المتهيئة لاثارة اضطرابات داخلية واحكام قبضة العزلة على الدولة الكنيسية في اثيوبيا .

ساعد مصر في النفاذ الى القبائل الحبشية وقوع معظمها في

المنطقة الساحلية واعطى ذاك التغلغل ثمارة ايجابية للقبائل المسلمة وردودا عكسية عند السلطة والنظام ، وفي الشعور القومي الديني النصراني ، وقد تمكن المسلمون الاحباش بالعون والتأييد المصري من اقامة سلطنة لهم تدعى « ايفات » شرقي « شوائم » ثم سلطنة اخرى هي « شواسنة » والتي ضمت الى السلطنة الايفاتية ١٢٨٥م للتصدي لزحف الكنيسة والدولة واحكام القبضة على مناطقهم ، وحتى لا تتسرب المسيحية ونفوذ الدولة الى خطوطهم الخلفية بنوا ترسانة بشرية وعقائدية امام الدولة وحصرها ونفوذها في مناطق تواجدها الديني .

النـزاع الحبشي المملوكي :

كانت الدولة الحبشية تدرك ان لا حـل لها للخروج مـن الكماشة الاسلامية سوى التحالف مع الاخوة الاقوياء في الدين . كما تحالف المسلمون مع مصر ، وبدات تنسج معهم عـلاقات سياسية فطلبت الدخول معهم في دبلوماسيتهم وسياستهم الخارجية فالعلاقات تفرض تحالفات ثم مواقف خاصة في ظل الظروف السياسية الدولية المتفجرة . وتداخلت الافعال وردود الافعـال واشتدت وتباينت ، واصبح من غير الممكن التميز بـين البادىء في العداء عـن طريق الاثارة والتحريض والدعم المعنوي والمادي لرعايا كل منهما عند الاخر ونقول ذلك لان الارتباط والولاء في تلك الازمنة كـان دينيا ، واذا بالاقباط المصريين العريقي المصرية هم رعـايا الحبشة ، وهـي الحامية لوجودهم وحياتهم والراعية لشؤونهم وممتلكاتهم ، وكذا واقع الحال بالنسبة للمسلمين الاحباش فمصر هـي الام وهي السنـد والحامي . ومن هنا فقد وجدت كـلا الدولتين المبـررات التاريخية والذهنية للتدخل في شؤون الاخرى ، وقد حمل ذاك العصر افكار كهذه سهلت الطريق للتدخلات وبررتها فكثرت الحروب بين الشعوب والدول في العصر الوسيط ، ووجدت النظم الاقطاعية في المبررات الدينية الغاية والوسيلة ، لتحقيق طموحاتها ومصـالحهـا المادية الاخرى سياسيا واقتصاديا ، وكذا كان واقـع الحـال بالنسبة للدولـتين .

بلغ الصدام بين مصر والحبشة اوجه في عهد الملك الحبشي « عمداسيون » على اثر تحطيم السلطان الناصر محمد قلاوون لكثير

من الكنائس القبطية بعد الصدامات الاهلية الداخلية في مصر ، وما اثاره اسلوب الاحراق لمشاهد القاهرة ومبانيها الكبيرة ، والذي جاءنا على ذكره سابقا ، وقد اتى الاحراق كرد فعل للاقباط تجاه المسلمين ودولتهم الملوكية ، وكان ان تنصل المطران منها .

فهل كانت بتحريض خارجي افرنجي مباشر ام عن طريق الحبشة ؟؟ ام حبشي صرف بدوافع دينية او باهداف سياسية ، كرد فعل للنتيجة التي اسفرت عنها تدخلات مصر في شؤون الحبشة الداخلية ، وتحريض القبائل المسلمة ؟؟ ام انه اي الاحراق **قد حدث ضمنا كاسلوب من اساليب الفتن والاقتتال الاهلي الداخلي ؟؟** ام ان تلك العوامل والاهداف مجتمعة هي التي اشعلت الفتنة الداخلية واسعرت الاقتتال والتدمير . ؟؟

يميل الكتاب والمؤرخون للتحيز الى هذا الدافع او ذاك ، ويقدمون الشروح الطويلة مسخرين فيها ما يمكن تسخيره من معلومات تاريخية لتثبيت وجهة النظر المطروحة من قبلهم ، وحتى نتجنب الحكم المسبق والموقف المسبق نرى ضرورة الغوص في لب المشكلة وتفنيدها كحقائق تاريخية ، ثم تأتي مواقفنا على ضوء الحقائق . محاولين قدر الامكان تأجيل مشاعرنا واحكامنا حتى تتضح الحقيقة ونحن ندرك ان موضوعا كهذا يتطلب الشرح الطويل والمسهب وليس في امكاننا هنا سوى الاشارة للحوادث الداخلية التي سببت ردود الفعل الخارجية ومن قبل الدول والحكومات .

في مثل تلك الظروف وحيث تنشب المشاكل الداخلية نتيجة تراكمات احداث يومية في الداخل تجد تعبيرها ومنذ تنفسها في حدث عاصف مدمر ، تندفع **عوامل خارجية متحينة الفرصة اما محرضة في السر او متدخلة في العلن** لتأجج اوار المشاكل لاهداف كثيرة وجدت **كمناسبة لاخراجها او التعبير في ذاك الشكل المتستر لها . وقد تنفجر فجاة المشاكل الداخلية دون مقدمات داخلية مرئية ، وتكون من صنع ايد خارجية وبمقدمات وممهدات من الخارج ، وتلك هي الاحداث الفجائية وهي سريعة الزوال والانتهاء ، بالرغم مما قد تتركه من نتائج وخيمة الا ان عدم وجود ارضية مادية اجتماعية يحرمها من البعد الاجتماعي وبالتالي من الديمومة والانتشار سريعا .**

فهل ما جرى في كل من الحبشة ومصر من اقتتال اهلي تحريض خارجي صرف أم ردود فعل من الطرفين القبطي المسيحي والمسلم تجاه بعض ؟؟ عبر تراكمات يومية ادت الى الانفجار وساعدت

الظروف والتداخلات الخارجية على اشتعاله وانتشاره ؟ ونتائجه المدمرة التي ادت الى تدخلات النظامين فيها لانكائهــا والاستفادة منها .

لقد كانت هذا وذاك وشد العامل الخارجي من مؤازرته للعامل الداخلي وتحركت احداث الداخل بتحريض من الخارج فتدخــل الاحباش في الشؤون الداخلية لمصر ، ووصلت حد التدخل علــى المستوى الرسمي جاءت تدخلات عمداسيون بواسطة وفوده المرسلة الى القاهرة ٧٢٦ هـ ١٣٢١ م يطالب السلطان الناصر باعادة بناء الكنائس والكف عن اضطهاد الاقباط ، وزاد ذلك الاقباط صلابة وقوة فقد احسوا بثقل دولة الى جانبهم وكذا كان واقع الحال في الطرف الاخر ، فقد حرضت مصر وشددت من ازر القبائل المسلمة في الحبشة فكونوا سلطاتهم وهم على ثقة بدعم مصر ومؤازرتها لهم . الا ان غضبة عمداسيون من الاحداث التي وقعت للاقباط في مصر جعلته يجرد السيف ، بعد ان هدد السلطان الناصر بذلك ، على القبائل الحبشية المسلمة ، وبذلك يكون قد فتح جبهة الاقتتال الداخلي في الحبشة ، ووضعــت حملته الكبيرة والشــديدة السيف في رقاب الاحباش المسلمين ايذاءا لمصر ، وانتقاما للاقباط المصريين ، فقتل الكثيرين منهم وارغم الاخرين على دخول المسيحية محاولا بذلك انهاء ما لمصر من نفوذ روحي في الحبشة ، ولم يكن من السهولة تحقيق ذلك وبلغ التشنج في الفعل ورد الفعل حد التهديد بتحويل مجرى النيــل .

نظرة شاملة للسيرة :

قبل ان ندخل الى الاهداف التي اختطتها السيرة لنفسها ، سنرد على سؤال يبدو ملحا بنفس القدر ، مر عليه النقاد مرور الكرام حين لم يذكروا شيئا الى ان السيرة رواها مجهولا ، وتداولتها الجماهير الشعبية المصرية ، ولنا اضافة في هذا المجال مستنتجة استنتاجا ، فليست هناك اشارات صريحة الى ذلك ، وعليه راينا في التحليل خير معين لنا للاجابة على الاسئلة الملحة . والسؤال من هو كاتب السيرة؟ او بتعبير ادق ، من هي الجهات التي شاركت في كتابة السيرة ؟؟

السيرة كما هو معروف **مروية شعبيا** ، وليس هناك اسم محدد لقاص وراو لها ، هذا يعني ان جمهرة كبيرة ممن تداولها بالرواية

شارك فيها وأضاف عليها ، ليس في تلك الحقبة من الزمن فقط ، وانما منذ ان حملت الموضوع القبائل اليمنية المهاجرة والفاتحة مع القائد العربي عمرو بن العاص ، والاضافات عليها متلاحقة ، وكما عرفنا سابقا انها ، أي موضوع سيف قد سخر في خدمة النزاعات القبلية بين بني كلب اليمانية وقيس المضرية ، ويعني هذا مرة اخرى ان القبائل اليمنية وعلى راسها زعماءها هم الذين طرحوه حين وجدوا فيه عاملا مساعدا لتأجيج الشعور القبلي اليمني ، ليسهل الالتفاف حولهم في صراعهم حول السلطة ، والمراكز الحساسة فيها بعد الفتح الاسلامي لمصر . وتلقف افراد القبائل اليمنية ذاك الموضوع والذي وجد قبولا واستحسانا لديهم فأغنوه ، وحصلت في موضوعه اضافات في جوانب ، وحذف في جوانب اخرى وتعديل وتغيير ، حتى يتلائم ومتطلبات الحاجة اليه من جهة ، ومن جهة اخرى فقد فعل تطور الزمن وتغير المكان فعله في التعديل والتغيير والتطوير ، ثم دون في امهات الكتب اليمنية والعربية ليبقى محفوظا فيها ، الى ان دعت الضرورة النضالية لاخراجه فاخرج هذه المرة جماهيريا ، وطرح باسلوب شعبي تفهمه الجماهير ، وتستطيع ان تحكيه وتتداوله دون اجهاد . وحاولنا ان نثبت في دراستنا ان القضية اليزنية حملت في نفسها روح الاستمرارية نتيجة التداول غير المنقطع لها مشافهة وتدوينا بحسب الحاجة وتحت ضغط الظروف . كما حاولنا ان نبرهن ان هناك احتمال تدوينه وضياعه في فترة ما قبل ظهور الناصر صلاح الدين الايوبي او بعدها بزمن وجيز ، في خضم الاحداث العاصفة التي شهدها العالم العربي في القرنين السادس والسابع حين اجتاح المنطقة غزو مدمر حاقد من الشرق « التتار » والغرب « الافرنج والصليبيين » . ومن الداخل الانهيارات السياسية المدمرة ، والفتن والحروب الاهلية الشرسة والقاسية .

في خضم تلك العوامل مجتمعة لا نستبعد الضياع والفقدان والخسران خاصة بعد محاولتنا للاقناع ان التدوين للقضية اليزنية بجانبها التاريخي والاسطوري قد تم قبل القرن الثامن في فترات متلاحقة ، لاقتناعنا الشديد بأن قصة سيف التاريخية مع غيرها من البطولات العربية الملحمية تحمل في نفسها روح الاستمرار ، كما تحملها الجماهير ذلك لحاجتها اليها وقت الشدائد والمحن ، وحين تشعر بضرورة ايجاد حافز ودافع للحركة سواء على المستوى

السياسي النضالي او الاجتماعي التشييدي والعمراني — وحتى اليوم يطرح المثقفون العرب خاصة منهم الثوريون ضرورة العودة للتراث من اجل الثورة — وكذا كان واقــع الحال في تلك الحقبــة التاريخية وعادت الحاجة لسيف ، والظاهر بيبرس ، ورأس الغول ، وغيرها من الشخصيات التاريخية والاسطورية التي وجدت الجماهير فيها بغيتها المطلوبة من دون غيرها . فدونت لها السير والملاحم البطولية مازجة اياها بالخيال المفرط والمسف في احيان كثيرة ، وهو نمط تفكير الناس في تلك الحقبة من الزمن .

ولقد استلهمت الشعوب العربية من فترة محنتها من تاريخها حركة سيف لتستطيع به ان تيقظ شعورها الوطني والقومي ، وهي عملية مشروعة ، بل واكثر من ذلك فهي ضرورية بما فيها من عوامل حية محركة ومنشطة ، ودافعة لليقظة والاحتراس والعمل ، ولذا فان ما تم في القرن الثامن للهجرة من **اعادة صياغة وتدوين لسيرة سيف** انما جاء ضمن سياق العملية التاريخية التراثية العربية الاسلاميــة المستمرة منذ فجر الاسلام ، اي منذ سيطرت روح المزاحمة والتنافس العنيفة والدموية ، مرورا بعصر تدوين قصص التاريخ وحتى تدوين الملاحم الاسطورية . وعملية التواصل تلك انما لحفظ الاستمرارية التاريخية لنضال الشعوب ، ومن ثم بقائها وتطورها وتقدمها .

حاولنا في دراستنا ان نثبت ان القضية اليزنية عبر مراحل تطورها قد تقلبت بين الايدي الشعبية والسلطوية ، وقد بدأ في القرن الثامن تداولها شعبيا ، الا ان لنا تقديرات استنتجناها نقدر فيها تدخل السلطة بهذا القدر أو ذاك لتدخل هي بدورها ما ترغب في ادخاله في السيرة ، ولتوجه في بعض الحالات ما يمكن توجيهه في السيرة لخدمة اغراضها ، فالقصص والسير والملاحم والروايات ، وكل أنواع الفنون والاداب يمكن ان تتخذ كوسائل أعلام للدولة توجه بها الجماهير الوجهة التي تريدها وتخدمها . من هنا كان اجتهادنا بأن للسلطة العليا يد فيها . هذا من حيث الفهم العام للموضوع . أما من حيث الخصوصيات التي تلقفناها في السيرة مقدرين ان تلك بايحاء من السلطة الفوقية ، فانا سنقف عندها قليلا لندلل بها على صحة وجهة نظرنا .

السيرة بأسرها تعبئة ضد الاحباش ، وبالذات ملكهم « سيف ارعد » وهو خصم عنيد لماليك مصر ، وقد وجهت السيرة الحقــد

الشعبي اليه ، وابعدت البنى الفوقية نفسها كلية من تيار الحقد الجماهيري في الوقت الذي كان يجب ان يتركز عليها بالدرجة الاولى لتعسفها واضطهادها المباشر للجماهير الشعبية في مصر والسلطة الحاكمة وفئة التجار الكبار المتنقلين بين مصر والحبشة هم الذين يعرفون الجماهير الشعبية ان سيف ارعد ملك الملوك ، وان هناك العديد من الملوك الصغار في السيرة اسلموا على يد سيف ، ومن الواقع التاريخي للحبشة كما راينا ذلك في استطرادنا التاريخي وجدت سلطنات صغيرة مسلمة بسلاطينها المسلمين المعادين لملك الحبشة الكبير عمداسيون ثم سيف ارعد ، والموالسين لسلطان مصر ، او المتعاطفين مع مصر المسلمة ، ولا شك ان الدولة او التجار المرتبطين بها هم الذين كانوا يوصلون اخبار الاقتتال والمعارك بين السلاطين الصغار المسلمين ، وبين ملوك الحبشة المسيحيين لتأجيج الشعور الديني ضد الحبشة المسيحية حامية الاقباط المصريين داخل مصر والمتعاونة معهم والمحرضة اياهم وقت الضرورة ، وعكس ذلك نفسه في السيرة الشعبية ، حيث راينا الملوك الصغار كالملك افراح قد ارتضى بالاسلام الذي بشر به سيف بن ذي يزن ، مما جعله يخرج عن طاعة ملك الملوك سيف ارعد . وقد بسطت الذهنية الشعبية ما طرح عليها من أمور سياسية ، واخرجتها بمفهومها ، وبالذهنية التي سادت في فترة تدهور وانحطاط العالم العربي ، وبالذات مصر ، بعد ان ركب سدة الحكم فيها المماليك . ومما يحملنا لذلك على ان للسلطة ضلع في السيرة هو عدم شجبها من قريب او بعيدللاوضاع السائدة والمتردية في مصر اي تحويل للاهداف والرغبات الشعبية للوجهة التي تريدها السلطة واولي الامر فيها ، بل ولقد عمدت السيرة دون استنكار للقيم والاخلاقيات الجديدة التي فرضها المماليك على المجتمع المصري ، وجعلته يتبناها ويقبل عليها ويتهرج بها . وفي واقع انحطاط الواقع الاجتماعي ككل وجدت تلك الامراض الارضية الخصبة لتتغلغل فيها ولتتفرع ، ولتصبح جزء من الاخلاقيات الاجتماعية الطبيعية رغم شذوذها ومرضيتها . وحملت السيرة من الترهات ما تمجه النفس . الا أن ذلك كان طبيعيا بحكم المستوى الذي وصل اليه الفكر . بسبب الانحطاط الكامل والشامل لمختلف مناحي الحياة في مصر وفي العالم العربي بصورة أعم . **السيرة اذن اعلام تحريض رسمي وتعبير وتنفيس جماهيري جماعي متضمن للفردي .**

أما الرغبة في امتلاك ــ المال والمرأة ــ فالسيرة منذ البداية بحث عن كنز او امرأة فما ان ننتهي من قصة حب وزواج عجول ، حتى ندخل في قصة اخرى . وسيف البطل القومي سيف القدوة هو المزواج . تعبير عن واقع حال مثله الحكام والسلاطين والفئسات الغنية في المجتمع ، وتنفيس عن رغبة مكبوتة جماعية يحلم ويطمح فيها الانسان بالوصول الى تلك الرغبات ، ولذا كان الراوي كما كان المستمع يسهب ويطنب ويتلذذ حين كان يأتي على ذكر ذلك . جعلوه مزواجا حتى يبرروا اي الطبقات الحاكمة والغنية ما كانت تقوم به من اعمال رهيبة في ذلك وليسمح لنا القاريء ان نذكر بحدث تاريخي واحد فقط على سبيل المثال ليس الا في عهد المماليك ، جمع سلاطين المماليك من النساء والجواري في قصورهم اعداد هائلة ، ولم يذكر لنا تاريخهم ان واحدا منهم اكتفى بواحدة ، ويكفي أن نـذكر منهم السلطان الكامل شعبان بن محمد بن قلاوون الذي جمع النسـاء الكثيرات حتى انه جمع بين اختين .

وسيف البطل المسلم المتعصب دينيا يشرب الخمر ، وفي ذلك تبرير لافعالهم وقصصهم الكثيرة مع الخمر ، والتي اشتهروا بها في تاريخهم ، وبقي للجماهير ان تتلذذ مع الرواية بعد ان حرمت من كل شيء في الواقع ، ويكفي العودة لمعرفة قصصهم واخبارهم السيئة الصيت الى كتب التاريخ . وتقول لنا الاحداث التاريخية انه في عهد السلطان شعبان « تهتك المماليك من شرب الخمور والاعـلان بالفواحش وركبـوا في الليل وقطعوا الطريـق على المسافرين ، واغتصبوا حريم الناس ، ثم اخذ السلطان الملك الكامل في تجديـد المظالم والمصادرات » . ولم يكتف بذلك بل احدث بدع جديدة

فقد كان يدخل ويتزوج سراريه قبل تزوجهن على طواشيه وخدمه والامر من ذلك كله الاخلاقيات الشاذة التي اتى بها المماليك وعكست نفسها في السيرة . فقد دونت كتب التاريـخ العديد من القصص والحكايات التي تكاد تبلغ مرحلة الخيال نذكر على سبيل المثال حكاية الملك الناصر احمد بن محمد بن قلاوون حين أضرب عن الطعام وهو يواجه الموت . بعد ان قبض عليه القواد العسكريين لاخيـه السلطان الصالح اسماعيل بن محمد في الكرك ، وقد رفض تنـاول طعامه « حتى يأتوه بشاب يقال له : عثمان ، كان يهواه فأتوه بـه فأكل عند ذلك » .

هذه الاخلاقيات الشاذة والمريضة عكست نفسها في السيرة. فقام الخيال الشعبي بدوره بتناولها حيث تم في السيرة بناء مجمعات ومدن خاصة لا يسكنها غير النساء من دون الرجال ، ثم مجمعات اخرى خاصة بالرجال محرم على المرأة بالمقابل الدخول اليها ، ولنسمع السيرة ما تحكيه في ذلك . دخل سيف متنكرا في زي امرأة الى مجمع البنات ووجدهن يلعبن الاكرة ولعب معهن وقد ارهقهن من لعبة وحين جلسن للراحة ، وهنا الكلام للسيرة : « اذا بالمناديات تنادي يا بنات العادة لا تبطلوها فقد اذنت لكن الملكة بذلك فما ان سمعوا البنات اجابوا بالسمع والطاعة ولكن الملك سيف تعجب لانه ما يدري ما تكون العادة فهنالك قامت البنات وجعلت كل واحدة تمسك واحدة مثلها ويضمون بعضهن بعض كل اثنتين سواء . هذا الملك سيف ما قدر يهجم على واحدة لكون انه ما يعلم فصار كل البنات يتقلبون على ذلك المرج ويركبون على صدر بعضهن البعض . فقال الملك سيف في نفسه والله ان هذه العادة لا نظير لها لكن اذا تعلقت بي واحدة منهن فماذا اصنع اذا ما اشتد الوطر .

هناك العوامل الدينية التي انبثقت كأهداف ، وفي نفس الوقت كاسلوب تحريض وقتال ، والسيرة بمجملها تصب في هذه المسيلة ، فلا يكاد سيف يخرج من معركة حتى يدخل في الاخرى ، كلها لنصرة دين الاسلام ، الذي لم يتعرف عليه سيف الحقيقة والتاريخ ، ذلك انه كان قد اتى قبله زمنيا ، وآل ذي يزن كما تذكر كتب التاريخ كانوا يدينون باليهودية . الا ان السيرة استدركت الموضوع حين جعلته مسلما على دين ابراهيم ويبشر ويناضل من أجل الاسلام بتعصب ديني لا تهادن فيه فاما الدين ، واما السيف ، وفي هذه الصورة تجسيد للواقع الموضوعي السياسي والاجتماعي في تلك الفترة التي شهدت من التعصبات الدينية ما أوصل الاحوال حد الاقتتال الاهلي ، سواء كان في مصر بين الشوفينيين المتدينين من الاقباط والمسلمين ، والذين اتينا على ذكرهم في استطرادنا التاريخي لواقع الحال في مصر انذاك ، أما كان بين مسلمي ومسيحيي الحبشة .

وهناك سؤال كبير يفرض نفسه علينا . لماذا المشاكل بين الحبشة ومصر او بتعبير اكثر واقعية ودقة ، بين نظامي الحكم فيهما ؟؟ ولقد عمل كل واحد منهما على ان يعكس خصوماته على جماهيره الطيبة والبسيطة . ان وراء كل تلك الكمية من المشاكل

دوافع اقتصادية تلبست بلبوس عديدة الا انها تبقى هي المحـرك الاول للاحداث . كانت مصر تخشى سيطرة الحبشة على المنافـذ الجنوبية الغربية للبحر الاحمر في فترة كانت تملك فيه اسطول بحري كبير . ولذلك عملت على تركيز وتثبيت النفوذ الحبشي المسلم الموالي لها في مصوع والمدن الساحلية ، دعمت مصر سلطنة « ايفات » الاسلامية لتسيطر على طـريق التجارة ، وجاءت سيطرتها هـذه لتفسح الطريق امام التجارة المصرية فقد كان المنفذ الى الداخل ميناء زيلع يقع تحت سيطرتها . كما اصبحت هرر الشرقية الاسلامية مركزا تجاريا هاما ، وفوق هذا منبرا للدعوة الاسلامية بزعامة مصر .

تحركت الخصومات السياسية الدينية بمبررات دينية ، في الواقع وفي السيرة ، فالمعارك السياسية مع ملوك الحبشة ، ومع الخصوم المتناثرين على امتداد مجرى نهر النيل وحتى منابعـه ، والواهلين من تحركاتهم السياسية الاستعمارية حتى اليمن — حتى يصبح حبك السيرة متماسكا ومتناسقا — انما جاءت في السيرة بمبرر ودافع ديني ، وهو نصرة دين ابراهيم الحنيف ، وكـان ذلك هو نفس المبرر في الواقع السياسي ، خصومات تتبعها معارك واقتتال بين الطرف المسيحي الحبشي والمسيحي القبطي المصري من جهة ضد الجبهة المضادة سلطان مصر المماليك وسلاطين السلطنـات الاسلامية في الحبشة كسلطنة ايفات ، وسلطنة هدية ، وسلطنـة « فتاجار » ، وعكست السيرة ضمن افقها النظري الاسطوري واقع ذاك الصراع السياسـي الديني ، « الاسلامـي المسيحـي » ، « والاسلامي — الوثني » ، الذي كان يبشر به السلاطين الاحباش المسلمون في المناطق والمرتفعات الحبشية ، والتي بقي اهلها على دين الوثنيـة .

المعالم الاساسية واحدة في الواقع والسيرة ، ولذا فاننا نـرى السيرة انعكاس وتعبير عن الواقع مثلها مثل اي فن أدبي ، ترتبط مع الواقع بعلاقات جدلية تؤثر فيه وتتأثر به ، وهي مرآة تعكس صورته فيها ، والراوي فيها هو الذات الحساسة التي تنفعل وتتفاعل مع الموضوع . فتحدد هدفها بأهدافه ، ومن اهدافه وغاياته وحركتـه ترسم الصور المؤثرة والمعبرة عن الواقع بما فيه وبما يصبح بـه من حركة وتفاعل .

ذلك وضع اهتمامات مصر الاقتصادية والتجارية في الساحل،،
ومصدر خوفها وقلقها من اغلاق الموانيء الحبشية الشرقية في وجهها ،
ولذا حرصت على قيام كيانات اسلامية هناك ودعمت تلك الكيانات
للبقاء والاستمرار ، وكان الرعب الاكبر لها النيل ، وفوق هضبات
الحبشة حاولت أن تساعد الكيانات والسلطنات الاسلامية خاصة
في اقليم « شوا » لحراسة منابع النيل ، وحتى لا يتم تنفيذ تهديدات
ملوك الحبشة بتحويله ، وكانت مغامرة سيف بن ذي يزن في السيرة
الشعبية ، الوصول الى منابع النيل والحصول على كتاب النيل
ليتحول من يد الاحباش المسيحيين الى الايدي المسلمة ، وكان سيف
هو بطل تلك المغامرة الصعبة ، فالنيل يجب أن يبقى متدفقا على مصر
فقد كانت مصر تتأثر حتى بانخفاض تدفقه حين كانت تقع بفعل عوامل
الطبيعة ، فقد كان يسبب لاي حكومة مصاعب كثيرة وكذا للشعب
المصري مهما كان الثمن ، وعليه فلتحشد جميع الطاقات ، وليطوع
الفن والادب في خدمة الاهداف الكبيرة . واذا لم تستطع الاداب ان
تؤدي دورها في الحياة العامة السياسية والاجتماعية فلا مبرر لها ،
وهذا ما جعل السيرة تكتسب طابعا شعبيا متداولا . لا بد من التعبير
عن الاهداف والطموحات فيها ، وفي غيرها من السير الادبية الشعبية،
وتلقفتها الجماهير ، وعلى راسها الراوي الشعبي المجهول بحماس
كبير فقد هيأت عبر فترة زمنية طويلة ذهنيا ونفسيا للتعصب الديني ،
وهو الذي اخفت السلطة وراءه مآربها السياسية ، وحقيقة مطامعها
الاقتصادية ، وشاركت معها الجماهير في عداواتها الدينية
والاقتصادية . خاصة ما يتعلق منها بالنيل ومياهه . وانفعلت
وتفاعلت مع القضايا الاساسية المروية بالسيرة الشعبية ، وزادت
فيها واغنت ، وسهلت طرحها وبسطت اسلوبها متعمدة، وغير متعمدة
فقد كانت افكار الناس وثقافاتهم في مستوى من التردي والانحطاط
بعد سيادة الفكر الغيبي الاسطوري في زاويته الحادة « الخرافية »
فيه . فكانت تلك الاضافات الشعبية في السيرة وقفت في فترة
سابقة من التاريخ ضد نفس عدو المرحلة المملوكية ، وهم اساطين
الحبشة ، لقد اختيرت شخصية سيف بعناية ، وبهدف اذكاء الروح
القومية او باكثر دقة النعرة القومية ضد الاحباش بحكم العداوات
التاريخية المزمنة لاسباب كثيرة . الا ان السبب والعامل الاقتصادي
هو الاكثر حدة وضراوة .

كانت السيرة مسيسة الاهداف والمقاصد ، وجهتها الدولة للاهداف التي تريدها ضد حكام الحبشة ، أي الاقطاع الاسلامي المتستر وراء سيف ، والمستغل لاسمه ضد الاقطاع الاوتوقراطي الديني في الحبشة ينازله في حروب مستمرة بواسطة سيف مباشرة في اغلب الاحيان ، وعن طريق المناوشات والعصيانات الداخلية من قبل القوى الحبشية المسلمة . كان ذلك في السيرة كما في الواقع السياسي في الحبشة ، وبين مصر والحبشة ، ولقد عرجنا على ذلك في سردنا التاريخي للعلاقات السياسية بين مصر والحبشة . ولم تكن السيرة بأهداف رومانتيكية غير محددة ولا مفهومة كما صورها نقادها الذين اتينا على ذكرهم سابقا .

ومن أهم اهداف السيرة وهو الهدف الذي وجد اصداء كبيرة عند الانسان المصري ، فقد كان السيطرة على منابع النيل خاصة اثر تهديدات الملك الحبشي « عمداسيون » ومن بعده « سيف ارعد » بقطع ماء النيل ، اي تحويل مجراه عن مصر ، وارعب ذلك المصريين حكومة وشعبا سلطة وجماهيرا . فحشدت لذلك جميع الطاقات ، واستعدت مصر للمواجهة السياسية والعسكرية ، وحركت في الداخل القوى الحبشية المسلمة المتعاونة معها .

من هنا كان ذلك هو الاطار العام والكبير الذي سارت فيه السيرة الشعبية ، أما التفاصيل الجزئية الصغيرة فليست سوى الترجمة الحقيقية للافكار العامة الكبيرة في السيرة ، وفي هذه التفاصيل صال وجال الراوي الشعبي ، وكيفها ، مدركا بذلك أو غير مدرك للقضايا الرئيسية العامة ، وهي بالدرجة الاولى سياسية وضعتها الدولة . اننا نريد أن نتوصل الى الاهداف التي من أجلها وضعت السيرة ، وعلى هديها سارت بأكثر تحديد ودقة ، متجاوزين مبدأ التعويم الادبي الذي انتهجه النقاد من قبلنا ، وهم يقيمون السيرة ويضعون اهدافها بنوع من التبسيط والتسطيح للامور .

بعد أن استعرضنا مجموع الاهداف لمختلف النقاد التي قيلت في السيرة والغاية منها ، سندلو بدلونا في تحديدها لنقترب من استكمال ملامح السيرة . ووضعها في أطارها الصحيح ، ولقد قررنا اهداف ثلاثة رئيسية واساسية كتبت السيرة لاجلها ، أو بتعبير اكثر دقة امتلأت السيرة بهم .

لقد وضعت السيرة كما لمحنا الى ذلك سابقا **لهدف سياسي املته السلطة مباشرة او بواسطة التاثير غير المباشر على القاص الشعبى بهدف تحريض الجماهير المصرية** . أي انها اتخذت من السير وسائط تحريض ودعاية لها ضد اعدائها في الداخل او الخارج ، وهم في الداخل حملة الصلبان ــ على حد تعبير السيرة ــ وفي الخــارج نظام الحكم في الحبشة ، وهو الحليف الطبيعي للفريق الاول في الداخل ولقد أرادت بذلك حشد الطاقات الشعبية ، وتوجيهها الى أهدافها السياسية ، واستعانت من اجل ذلك بشخصية تاريخيــة ارتبطت بنضال شعب وأمة تدفقت في اختباراتها السياسية لسيف ، وملكت قناعاتها الجماهير الشعبية بواسطة الحكاية المروية ، واستطاعت ان تعبأ طاقاتها وتوجهها الوجهة التي تريد .

الباب التاسع

وجهة نظرهم ووجهة نظرنا

بعد ان انتهينا من محاولة رسم معالم الحياة السياسية في مصر ، وايضاح علاقاتها السياسية مع الحبشة ، وانعكاس ذلك الواقع المادي على الفكر الذي أنتجع السيرة الشعبية برؤيتها الاسطورية ، رغبنا ان ندلو بدلونا مع من دلوا بدلوهم في تحديد زمن كتابة وتدوين السيرة ثم تفسير وتحليل الملابسات الذي أحدثه تداخل الشخصيتين الرئيسيتين (سيف بن ذي يزن) الملك الحميري (وسيف بن ارعد) ملك الحبشة ، على الرغم من البعد الزمني بينهما، فاصيب المهتمون بالسيرة بدهشة واستغراب ، ورمى على الراوي الشعبي مسؤولية عدم التوفيق في اختيار الاشخاص ، وقد قال عنه الدكتور فؤاد حسنين علي « ولكن بينما نجد مؤلف السيرة يختار سيف بن ذي يزن قائدا للساميين اذ به يسند زعامة الحاميين الى ملك حبشي يدعى (سيف ارعد) **فكان في اختياره للشخصية الثانية غير موفق** . وقد أجاب على ذلك الراي فاروق خورشيد حيث يقول « والواقع ان السيرة الشعبية لا تعترف بمنطق التاريخ في تركيبها الروائي » ولذلك فهو يراها « أقرب الى الاسطورة منها الى الرواية بمعناها المصطلحي الحديث .. وكاتب السيرة لا ينظر الى الصدق التاريخي بقدر ما يهتم باختيار ما يلائم **الهدف الاساسي** الذي يكتب

سيرته من أجله» . ويقترب محمد رجب النجار من ابانة حقيقة ذاك الاختيار للشخصيتين غير الموفق على حد راي الدكتور فؤاد حسنين رادا بذلك على الدكتور حسنين فيقول : « ان هذا التناقض (أي بين زمن الشخصيتين) (ث. م) سرعان ما يزول اذا عرفنا ان هذا صنيع القاص الشعبي دائما في سائر الاعمال الملحمية بل في المأثور القصصي الشعبي بعامة ذلك ان القاص لا يعنى بالواقع التاريخي الا بقدر ما فيه من رموز وان تضارب الزمان والمكان فالذي يهم هو التجربة التاريخية ودلالتها لا الحقيقة التاريخية ، وبمقدار ما تمثل هذه التجربة التاريخية من وظائف حيوية تؤكد له فضيلة انسانية او مثلا اخلاقية أو مزية قومية او قضية اجتماعية مجتمعة بقدر ما يكون احتفاؤه بها » . لقد جاءت تلك الردود ضمن اطار الذهنية الليبرالية وفهمها للامور ، وجاء حكمها ، وهو النتيجة ، مبنيا على تخمينات فكرية ليس لها اساس مادي موضوعي . ولقد تحملنا وحملنا معنا القراء مشقة البحث الطويل في الاحداث السياسية ، وانعكاساتها على الذهن ا والجوانب الفكرية عند انسان ذاك الواقع لنخرج بتصور موضوعي ، وفهم واقعي لحقيقة ما سمي بالالتباسات الزمنية، والتناقض في الاختيار .

ولقد سرنا بسيرة سيف مع الاحداث في مختلف القرون ، وحين دعت الضرورة التاريخية (سياسية او اجتماعية) لاستدعائه من الذاكرة العربية ، ووصلنا بالتتبع التاريخي حتى الحروب الصليبية وهي في قمة انتصاراتها ، والجيوش العربية الاسلامية مكسورة ومهزومة ، والوطن العربي ممزق ومثخن بجراح الحروب الصليبية . وحاولنا ان ندلل ماديا ، ونثبت بالتحليل المنطقي ، تداول السيرة اثناء الحروب الصليبية ، واستدعاء سيف للضرورة القصوى لشخصيات من ذاك الطراز الوطني والقومي بما جرت عليه من احداث انتقال فاحتضان عربي له ، خاصة وقت الضرورة والحاجة التي فرضتها التدخلات الاجنبية في الوطن العربي بأسره ، وبقيت الذهنية العربية تلهج بسيرة سيف بعد ان اختارته بطلا وطنيا وقوميا للاسباب التالية : لاستمرارية التداول التاريخي لسيرته عبر الازمنة المختلفة ، ومنذ ان حملته القبائل اليمنية معها ، وقد تكيف ذاك التداول بمقتضيات الحاجة اليه فسيف في الفترة الاولى جسد بطل للقبائل المهاجرة تعتز به وبالانتساب اليه ، ثم سيف معين في الصراعات

السياسية القبلية بين بني كلب اليمانية وقيس المضرية ، فهو الخلفية السياسية والعقائدية لليمانية في صراعهم مع القبائل العربية الاخرى على المراكز السلطوية في العهد الاموي ، وحين انتهت الظروف السياسية المتأججة للسيرة والمنشطة لتداولها جماهيريا عاد سيف الى كتب التاريخ المقروئة بعد ان كان مسموعا ومتداولا ، ثم برز شعبيا من جديد في الحروب الصليبية لحاجة الوجدان العربي اليه ، لما فرضه الواقع الموضوعي المفروض من حالة تمزق وضياع عاشه العالم العربي لاول مرة بعد خمسة قرون من الازدهار والتماسك ، لم يشهد فيها الوطن العربي الاسلامي تدخل اجنبي المنشا والدين الا في تلك الفترة ، وبعد خمسة قرون كان فيها العرب هم الفاتحون والغزاة ، فاذا الواقع ينقلب عليهم واذا بهم محل اطماع الاخرين فأضحوا مهاجمين بعد ان كانوا مهاجمين ، وهي حالة لم يعشها العرب الا قبل ظهور الاسلام ، وقت ان كان العالم العربي ممزقا بين الامبراطوريتين الاعظم ، وفي خضم الصراعات القبلية المتأججة بالتدخل الاجنبي . وزادت التدخلات الاجنبية من الدول المجاورة الوطن العربي بؤسا فوق بؤسه خاصة جنوب الجزيرة العربية ، فتشابهت الصورة في واقع الوطن العربي بين المرحلتين الزمنيتين المختلفتين المتباعدتين ، الوطن العربي قبل الاسلام وهو مهدد بالقوى الخارجية وممزق بينها ، وجنوب الجزيرة والجزيرة يتعرضون لاحتلال جيش بيزنطي نصراني لم تدحره غير حركة سيف بن ذي يزن الوطنية ، ثم هو في القرن السادس مهدد ومحاصر ، بل وممزق بين اطماع ملوك الافرنج وامرائهم ، والتدخل الاجنبي حالئذ له والمحتل القادم نفس ملامح وصفات الغازي انذاك . جيش بيزنطي نصراني ، ثم افرنجي نصراني ، وبنفس الاهداف والشعارات الاستعمارية الدينية .

هاتان الصورتان الشبيهتان ببعضهما فرضتا انتزاع البطل بعد اختياره بدقة وعناء ان يمثل دور البطولة الموكل اليه من قبل الواقع في الوجدان الشعبي . فأتت عطاءات ذاك الوجدان الادبية مستجيبة للواقع ومتجاوبة معه ، حتى انتفت الحاجة لظهور بطل حقيقي هو « الملك الناصر صلاح الدين الايوبي » . و « أن وجد الماء بطل التيمم » على حد راي المثل الشعبي . وملامح الصورة في الوطن العربي ، ويفرض واقعا جديدا ومغايرا . وتتحول صورة سيف وسيرته البطولية الى فلكلور ادبي شعبي يروى مشافهة . حتى تطل على الوطن

العربي عصور اخرى ، ويتحول واقع الحـال في الارض العربيـة بالتدريج وعبر تراكمات سياسية سلبية ـ على الرغم من الاشراقات المحدودة ـ الى واقع حال تعاد فيه كل صور التمزق ، وتسير فيه الامور الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الى التدهور والانحطاط والشلل الكامل ، وقد أتينا على سرد ذلك لابانة الصورة وتوضيحها فيما سبق ، واسهبنا في شرح الاوضاع السياسية في عصر المماليك والذي تم فيه كتابة السيرة . ونختار للتعبير بدقة اعادة صياغة السيرة بما يتطلبه الواقع الموضوعي في القرن الثامن وبالذات العلاقات المصرية الحبشية ، ثم تدوين ذلك واخراجه على الصورة التي بين أيدينا . فما تم اذن ليس تأليف وكتابة ، وانما هو **((اعادة صياغة وتدوين)) لسيرة متداولة وفلكلور ادبي شعبي مسموع فالاختيار موفق وجاء مستجيبا لحاجات الواقع ومالبيا له** . وهي لذاك تعترف ـ اي السيرة ـ بمنطق التاريخ بل وتجاوره حسب حاجياتـه . وكاتب السيرة يتناول الحقيقة التاريخية ويتعامل معها بقدر مـا تحتاجه من صور منزوعة تلائمها ، ولذا ليس هناك من تناقض زمني بين الشخصيتين ، وانما هناك **بعد زمني معطاء ياخذ ويعطي حسب** الحاجة ، ولا يعطل رغم تباعده العملية الديالكتيكية بـين الصورة **والواقع لشخصية البطل المعني** .

والقاص الشعبي تهمه الحقيقة التاريخية بنفس بالقدر الذي تهمه التجربة التاريخية ، وبمقدار ما تتطلبه الحقيقة التاريخية يقيد عليها تفصيل التجربة التاريخية بما يزيد وينقص ، وبما تتطلبه من وظائف حيوية تؤكد له قضية اجتماعية ، او تثبيت موقف او وضع سياسي ، او تعمل على خلق قيم اخلاقية اجتماعية او سياسية . على الرغم مما ساد السيرة من صور اسطورية ، او بتعبير اكثر دقة على الرغم من السرد الاسطوري للسيرة ، والذي جاء كمنتجع للذهنية الاسطورية الغيبية في القرون الوسطى (مرحلـة التدين) وهي الامتداد الطبيعي للذهنية الاسطورية الخرافية في (مرحلـة السحر والشعوذة) ولذلك لا غرابة ان راينا في السيرة الشعبيـة تداخل للمرحلتين وانتزاع الصور الاسطورية منها ، ويربطهما بلحمة روائية امتعت القارىء والمستمع ، الا انها اربكت المؤرخين والنقاد واستفزتهما بمقدار ما جرتهما . ولاجل ذلك تجرانا مرة اخرى لنقوم بتحديد الفترة الزمنية التي اعيدت فيها صياغة السيرة بعد ان عومها

المهتمين بالسيرة . فقد كتب الدكتور فؤاد حسنين يقول : « وكتابة هذه السيرة التي يرجح انها وضعت عقب وفاة سيف ارعد اعني حوالي نهاية القرن الرابع عشر او أوائل القرن الخامس عشر » (*) انتهى كلام الدكتور **في التحديد الزمني لصياغة السيرة** بصورة مطاطية وتقريبية طويلة زمنية ، وتكاد تشمل قرنين من الزمن ، وعلى اساس ان ما تم هو **كتابة اي تاليف للسيرة ، وليس اعادة صياغة** ، ولنا في ذلك وجهة نظر في التقدير الزمني ، بعد ان طرحنا وجهة نظرنا في موضوع اعادة صياغتها .

ان ما يحملنا على تقدير الفترة الزمنية التي اعيد فيها صياغة السيرة بتلك المحددة والممتدة من عهد قلاوون الى ما قبل كارثة الوباء والفناء الجماعي اي اثناء العهد القلاووني هو الرؤية الموضوعية للسيرة . فلو أن اعادة الصياغة تمت بعد الوباء فان من المستبعد جدا خلوها من ذكر الفاجعة المروعة التي شملت كل الانسانية ، فلم تترك بيت الا وافنته او تركت بعض منه يبكي الاجزاء المفقودة فيه ، لذا فقد انتزعت الكارثة اهتمام الاجيال البعدية فتأثروا بما حدث وعكسوه في ادابهم الروائية والقصصية والشعرية وغيرها . كما ترك بصماته في تفكيرها وفلسفتها فازدادت الافكار الغيبية رسوخا وطرد او بعبارة ادق وطوردت الاراء والافكار العقلانية والعلمية وهزمت في هذا العصر هزيمة شنعاء ، على الرغم من صحتها المعرفية ، ولم تستطع بعد ذاك القرن ، وحتى الان ان تسترد انفاسها في العالمين العربي والاسلامي . ومع ادراكنابأن الافكار العقلانية كانت على وشك أن تنهزم لمجمل الظروف التي حكمت الواقع العربي وبالذات في القرون الثلاثة الممتدة من السادس حتى الثامن للهجرة الا ان الهزيمة الانسانية المتجسدة في الكارثة العظمى « الفناء الجماعي » قد عجل في وأد ودفن الفكر العقلاني العربي الاسلامي ، لهول الكارثة وضعف القدرات البشرية انذاك على كبحها والحد من عتوها ومحاصرة نكبتها وفجيعتها .

لذا اخذنا على عاتقنا مهمة تحديد الفترة الزمنية التي أعيد فيها صياغة السيرة ، حتى نقطع الشك باليقين . فمن غير المنطقي أن تكتبسيرة متداولة وشعبية بعد فاجعة انسانية عظيمة ومروعة دون ان تأتي على سيرتها او تشير اليها ، أو تمر مرور الكرام على ذكرها .

ومن الاسباب التي تجعل تقديراتنا محددة ومحددة للفترة الزمنية هي أن السيرة التي بين ايدينا والمتداولة شعبيا منذ العصور الوسطى وحتى يومنا هذا ، احتواءها لقيم واخلاقيات سادت في العهد القلاووني أتى بها سلاطين ذاك العهد ثم عكسوها بدورهم على الجماهير الشعبية ، فتأثر بها العامة من الناس ، ومارسوها في سلوكهم اليومي ، كما يبدو ذلك من خلال السيرة الناطقة والمعبرة عن الشعور والممارسات باعتبارها انعكاس شرطي للحياة الاجتماعية بمجمل قيمها . تحتوي السيرة لقيم واخلاقيات بعيدة عن القيم الانسانية السليمة والسوية ، سنأتي على ذكرها فيما بعد .

ومرة أخرى يختلف مقيمو السيرة عن الاهداف التي من أجلها كتبت السيرة ، وينتحو بذلك شتى المناحي . فمنهم من يرى الهدف برؤيا رومانتيكية ، كما يؤكد على ذلك الدكتور عبد الحميد يونس ، والذي يرى ان الملحمة او السيرة تحكي : الرحلة من واقع يؤكد العجز والقيد الى مثال يشيع منه العدل ، ويتسع فيه الشعور بالقدرة فتتحرر الارادة — على حد تعبيره — كما يتحرر العقل والضمير » . هكذا لخص الدكتور هدف السيرة بكلمات تحمل من الغموض ما يخلق حولها من الاشكالية في التحليل الشيء الكثير . الا اننا نختلق عذرا للدكتور فقد تناول السيرة ادبيا وجماليا ، وكنا نفضل الا يخوض في تحديد أهداف السيرة ما دامت رؤياه ادبية وليست تحليلية نقدية فلسفية . أما عملية التطويع القسري ، للرؤيا الفلسفية للنهج الادبي الرومانتيكي ، غير المحدد ، فهي عملية مرفوضة ، كما انها ساقطة معرفيا لانها لا تعطي المعاني ابعاد معرفية مفهومة ومحددة وملتزمة .

يلخص فاروق خورشيد هذه السيرة بقوله : « ان الهدف الانساني من هذه السيرة هو رسم صورة هذا الانسان القلق الباحث عن المعرفة ابدا . التعرض لكل اسباب السيرة في سبيل اهم غرائزه واقواها واكثرها دلالة على انسانيته ، اعني غريزة الفضول وحب الاستطلاع او غريزة المعرفة » . ويتابع رأيه بقوله : « القضية الانسانية الكبيرة التي تعالجها السيرة اذن هي رسم صورة الانسان الباحث عن المعرفة » .

هذا هو هدف السيرة من وجهة نظر « فاروق خورشيد » البحث عن المعرفة ، وقد حركه الى ذلك غريزة حب الاستطلاع .

نحن اذن في طور الغرائز ليس الا ، ويبدو انه ليس هناك محل عند فاروق خورشيد للاهدا فالسياسية والطموحات الشعبية للتخلص من أوضاع والتطلع الى أوضاع اخرى مغايرة يجد الانسان فيهـا ذاتيته الانسانية والاجتماعية . نحن فقط امام دوافع فردية ، على الرغم من جماعية الاستماع والتداول للسيرة . ومرة اخرى ندخل في اشكالية التلبيس والتركيب التعسفي لما يطرحه الكاتب على حقيقة وواقع السيرة بأهدافها غير المرئية أو المباشرة . ولذلك ارجأنا رأينا في الموضوع حتى نلخصه في نهاية استعراضنا لآراء النقاد في السيرة الشعبية والاهداف التي كتبت من اجلها .

أما الدكتور فؤاد حسنين فيرى ان هدف السيرة هو التبشير بالاسلام في الجاهلية . وليس لنا اعتراض على ذلك . الا من حيث كونه يمثل **هدف من الاهداف العديدة** التي وضعتها السيرة ورواتها نصب اعينهم .

ويلخص غالي شكري في كتابه أدب المقاومة هدف الملحمة بالعقدة اللونية ، فيرى انها تؤرخ للصراع القادم بين الملك اليمني الابيض ، وملوك الاحباش السود ، ومن ثم — على حد تعبيره — فهي تكاد تحمل لواء التفرقة العنصرية بين الساميين والحاميين (*) . ويحمل نفس الراي الدكتور اليمني « الظافري » . وعلى الرغم من عدم استبعادنا لدخول العامل اللوني كدافع من الدوافع الكثيرة التي حفز ت اليمنيين للثورة ، وهو دافع نفسي اكثر من كونه مادي . الا انه ليس العامل الوحيد ولا يمكن ان نعد الصراع اليمني الحبشي بسطحية وتبسيط صراع لوني ، فنخلص عداوات تاريخية وبمعطياتها السلبية اقتصاديا وسياسيا واجتماعيا بمجرد التحسس النفسي اللوني من قبل اليمنيين ضد الاحباش .

ويلامس الاستاذ محمد فهمي عبد اللطيف الحقيقة طفيفا ، وفوق هذا يلخصها الى الحد الذي كاد ان يضيعها من يديه ، حين كتب يقول : « انما كتبت بهدف ديني ، وهدف سياسي ثم هي قصة الوحدة التي كان يمثلها صلاح الدين الايوبي . وكنا نأمل من الاستاذ ان يقول لنا : هل خطط للاهداف من قبل الجماهير او الدولة ؟؟ ثم كيف استوحي في ان القصة تجسد الوحدة التي كان يمثلها صلاح الدين الايوبي ؟؟ كيف استنتج ذلك ؟ وما هو الداعي لإستعارة سيف بن ذي يزن الحميري بطل لوحدة حققتها شخصية

اخرى ، هي الشخصية الايوبية التاريخية ؟! ان العسف والمقدمة الخاطئة في تركيب الاحداث ، يؤدي الى نتائج خاطئة وقسرية .

يبدو ان تقديرات الدكتورة نعمات احمد فؤاد حول هذه الملحمة لو ضمت الى الاهداف التي وضعها الاستاذ محمد فهمي للامست الصورة المكتملة الحقيقية . الا ان راي الدكتورة ، بالرغم من عدم استحسان الجميع له ، فقد كادت ان تلامس لب العقدة ، وصلب الموضوع خاصة لو استطاعت اظهار ذاك الخوف في اطاره المادي الاقتصادي ، كتبت تقول : « تعكس الملحمة ، خوف مصر التقليدي على النيل من فرط تعلقها به » . كنا نتمنى ان تتوقف الدكتورة قليلا عند ذلك ماديا واقتصاديا لنطمئن الى رايها ، الا انها بترت تقييمها لهدف الملحمة ــ حين واصلت حديثها عن ذلك . فقالت : « تخشى عليه بحبها له الحدثان والانسان والمطامع » .

ويرى صاحب الرسالة محمد رجب النجار ان السيرة كتبت لتنقية العقيدة من شوائب السحر والخرافة وبقايا الاسطورة ــ هكذا فسر محمد رجب امتلاء السيرة بالموروث السحري ، والصراع القائم بين الدين الجديد الداخل مصر ، والموروث السحري القديم فيها ، ولا ندري كيف توصل ، محمد رجب النجار الى ان امتلاء الملحمة بالموروث السحري ، انما هو بهدف تنقية العقيدة من شوائب السحر والخرافة ، وان الصراع الذي كان يخوضه ــ باعترافه ــ سلاح علوم الاقلام والحكمة والسحر ، انما هو ضد السحر والسحرة ، كما اننا في حيرة من وصوله الى نتيجة ان الملحمة تدين السحر والكهانة ــ على حد تعبيره ورايه ــ منذ صفحاتها الاولى . « وهدف الملحمة رغم ما حفلت به من كم هائل من السحر انما جاء لا بقصد التاييد والتمجيد والاقرار له ، وانما بقصد محاربته والقضاء عليه لتخلص منه ــ كما يرى الاستاذ النجار ــ الذات العربية العامة . ويواصل كلامه ، « ومن ثم تخلص العقل العربي من قيود السحر والخرافة . كما تخلص الفكر الديني من براثين الوثنية الكامنة في الذات العربية بعامة » .

ويرى النجار ان مهمة البطل في الملحمة فهي محاربة السحر بمختلف ضروبه ، أكان ذلك من المعتقد الديني ، أم من الفكر ، والسلوك والقول ، ويجعل من ذلك غاية ينشدها . (ث . م) ــ « ان

القضية المميزة لرسالته هي تحرير الانسان العربي من براثين الوثنية وتحرير العقل — من ثم — من شوائب السحر والخرافة ، ويواصل النجار تحليله للملحمة وللهدف الذي تبنته متصورا بذلك انه قد وضع يده على الحقيقة ، او بتعبير أدق « وينبغي ان نضع في اعتبارنا ان الملحمة تجعل من الكون وحدة واحدة متصلة لا فرق فيه بين عالم الانس أو عالم الجان ، ورسالة البطل متصلة وواحدة في الحالين » .

هذا ملخص موجز لبعض الاراء التي قيلت في السيرة ، والهدف من كتابتها وروايتها ، من وجهة نظر المتناولين لها . فما هي أهداف السيرة برؤيا مادية نحاول بها الاقتراب من الحقيقة ، لنتجنب الاراء غير المحددة والغامضة ، ونضع النقاط على الحروف .

لقد حملت الفترة الممتدة من القرن الثامن حتى القرن الحادي عشر بوادر نهضة تجارية بورجوازية مبكرة ، وفرخت معها ذهنيتها العقلانية العلمية ، على الرغم من بقاء التشكيلات الاجتماعية الاخرى، وبالذات الاقطاعية منها ، والتي سرعان ما انقضت وبشراسة عليه حين وجدت الفرصة مناسبة اثر تغلغل الاقطاع الاسلامي الى العالم العربي ، فتواطآ معا لاجهاض البوادر الاولى لمجتمع راسمالي تجاري السيادة فيه للفكر العقلاني ، وكان من نتائجتطور التواطؤ احكام قبضة الاقطاع بفصائله الاكثر تخلفا ، ولم يطل القرن الثالث عشر ، والرابع عشر الا وقد انعكس التواطؤ بحلقته المتخلفة على الحياة الاجتماعية في العالم العربي ، وزاد من هجمة قوى التخلف الاقطاعية تعرض الوطن العربي للغزو والاحتلال الاجنبي المتخلف الشرقي ممثل بالمغول ، والغربي وقد مثله الصليبيون ، ثم التسلسل للاقطاع الشرقي المسلم الى سدة الحكم والسلطة ، وفتح الطريق الى ذلك الايوبيون ومثل قمته المتخلفة المماليك ، وفي هذه المرحلة — اي مرحلة سيطرة الاقطاع المتخلف العربي والاسلامي وجد الفكر العقلاني مصرعه ، وكان لا بد من شغل الفراغ بفكر تستطيع الذهنية الاقطاعية المتخلفة ان تستوعبه ، وهو نتاج طبيعي للواقع المتخلف والمتردي ، والذي سيطر فيه الاقطاع على بنيته الفوقية ، وأملى على الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي كل ارهاصاته الفكرية المتخلفة فسيطر الفكر الغيبي الاسطوري بعد ان هزم تاريخيا الفكر المتنور والعقلاني ، وتدافعت الموروثات السحرية بجسارة وتحد من

مرحلة السحر ـــ اي مرحلة ما قبل التدين . وتقافزت المردة والجان والشياطين بجسارة لا تحد بعد ان ربطت عقالها وسيستها ـــ الاديان السماوية ـــ والاسلام على وجه الخصوص . ولم ترفض وجودهـا او تلغي دورها ، ثم حاول الفكر العقلاني في مرحلة سيادته ضربها والقضاء عليها . الا ان الهزيمة التي لحقت به من جراء ذاك التواطؤ قد سمحت للموروث السحري وابطاله المردة والكهنة والجان للعودة الى مسرح الحياة الفكرية ، وتأديـة ادوارهم فيهـا على الصورة المطلوبة ، والموكلة اليهم من قبل الانسان بذهنيته الاسطورية المتقهقرة معرفيا رغم تقدمها الزمني .

ولقد حفلت السير ، وغيرها من السير التي دونت في تلك المرحلة المتقهقرة ، بكم هائل من الموروث السحري كنتيجة طبيعية وحتمية للتقهقر الذي اصاب الواقع العربي ـــ الاسلامي وذهنيته ، وصبغت مرحلة الانحطاط الذهن العربي بصبغتها المتخلفة ، وعليه لم يأت امتلاء السيرة بذاك الكم الهائل من الموروث السحري ليمثل كما يعتقد الاستاذ محمد رجب النجار ، الصراع القائم بين الدين الجديد الداخل مصر ، والموروث السحري القديم فيها . بل جاء ليعيد الحياة اليـه ويصبح امتدادا له بالتواطؤ مع الذهنية الدينية الاسطورية المشوهة والمشوهة ، والا كيف نفسر استعانة سيف في السيرة بالسحـرة والمردة والجان والكهنة ؟! ـــ الطيبين منهم ـــ على حد رأي الذهنية الشعبية الاسطورية ، وقد جاءت تخريجاتهم التعسفية ، وبالذات « النجار » حول امتلاء السيرة بالكم الهائل من الموروث السحري ، على انهـا تنقية للعقيدة من شوائب السحـر والخرافة وبقايـا الاسطورة ، ولا ندري كيف توصل الى هذه النتيجة ، سيرة ممتلئـة بالسحر والخرافة ، كما يؤكـد هو ، لتنقية العقيـدة من شوائب السحر والخرافة ؟ ولم يكتف بذلك ، بل واصل اصراره على ان ضراوة القتال الملحمي الذي خاضه بطل الملحمة كان ضد السحـر والسحرة ، ولم يقل لنا بمن خاض سيف قتاله الملحمي ، كما لم يقل لنا من اين استنتج فكرته القائلة ان الملحمة تدين السحر والكهانة منذ صفحاتها الاولى ـــ على حد تعبيره ـــ ويواصل تخريجاته الذاتيـة البعيدة عن حقيقة وهدف الملحمة ، مركبا في ذلك ، رغباته الشخصية وأحلامه ، على ملحمة جاءت تعبير عن واقع انحطاط وتدهور ، وذهنية غارقة في التخلف ، بل وهي نتاجه الطبيعي ، وفي ذلك يقـول :

« الملحمة تحكي فترات التحـول الحضاري » ـــ **ما هي صفة ذاك التحول ؟؟** لا نعرفه فلم يتفضل ليقول لنا عنها شيئا ـــ (ث. م) . ويواصل : « التي تخوضها الذات العربية العامة تأكيدا ، واثباتا لحقها في الوجود الحر الكريم العزيز » . اذن في فترة الانحطـاط تحكي الملحمة فترات التحول الحضاري ، ولو قال لنا ان الملحمة تناضل في واقع الانحطاط والتدهور من أجل التحول الحضاري لكانت مقبولة وطبيعية ، اما عبارته ان الملحمـة تحكي فترات التحـول الحضاري فانه لم يوفق فيها . هذا اضافة الى تحميل المرحلـة صفات ليست لها ، ولا تعبر عن حقيقة الواقع العربي في تلك الفترة التاريخية . كما يصر على ان الملحمة انما حفلت « بذاك الكم من السحر والخرافة لا لتؤيده او تمجده او تقره ، وانما لتحاربه وتقضي عليه لتخلص منه الذات العربية العامة .. ومن ثم تخلص العقـل العربي من قيود السحر والخرافة . كما تخلص الفكر الديني من براثين الوثنية الكامنة في الذات العربية بعامة . والبطل بحسب رايه ، ومن وجهة نظره « يحارب السحر بمختلف ضروبه أكان ذلك من المعتقد الديني ، أم من الفكر والسلوك والقول ، ويجعل من ذلك غاية ينشدها فانه يحق لنا ان نقول ان القضية المميزة لرسالته هي تحرير الانسان العربي من براثن الوثنية ، وتحرير العقل ـــ من ثم ـــ من شوائب السحر والخرافة » . تلك اذن النتيجة التي توصل اليها المؤلف النجار محاربة السحر والخرافة ، ولم يفطن الى ان نتيجتـه هذه ستتناقض وافكاره المسطرة التي ترد بعد قليل من نتيجته بل على اثرها مباشرة حيث يقول « ينبغي ان نضع في اعتبارنا ان الملحمة تجعل من الكون **وحدة واحدة متصلة لا فرق فيه بين عالم الانس او عالم الجان** . انه يقر بوحدة اسطورية خرافية حملتها الملحمة ثم يصر على ان الملحمة وبطلها كانا لمحاربة السحر والخرافة . وليدعنـا نساله في حدود الملحمة ، من كان يأتي بالسحر والخرافة ؟؟ اليسوا السحرة والمردة والجان الذين يقر هو بوحدة عالمهم مع عالم الانسان . لقد أوقع الكاتب نفسه في تناقض عاصف ، فحين يسخر الملحمـة لمحاربة السحر الذي يأتي به الكهان والجان ، وحين آخر يقر بوحدتهم الطبيعية مع الانسان ، وهو معذور في ذلك . فان التمزق الذي يقع ضحيته ذوي الذهنية الغيبية الميتافيزيقية الاسطورية ، بين المعقول البسيط غير المعقد ، وبين المعطيات الايمانيـة بجانبها اللامنطقي

واللامعقول ، يجعل التمزق ومن ثم التناقض قائما في ارائهم وكتاباتهم. لقد كان من الممكن ان يقول ان السيرة حفلت بكم هائل **من الموروث السحري** ، ويتوقف دون ان يصدر حكمه الفوقي **من انهاحفلت به لتحاربه وتقضي عليه** .

لقد جاء امتلاء السيرة بالسحر والخرافة لا ليحاربهما ، ويقضي عليهما ، وانما ليعبر عن واقع الحال في عصر الانحطاط ، ويجسد مأزق الذهنية الاسطورية المتخلفة الذي وجدت نفسها واقعة فيه بحكم التخلف والانحطاط والتدهور العام ، وبحكم ذاك التخلف والانحطاط وجد الموروث السحري القديم المناخ مناسبا في الواقع المتدهور ، وفي الذهنية المتقهقرة لينقض عليهما من جديد ويفرض نفسه . ثم ليسيطر ويحرك كيفما اراد ذهنية الفرد والجماعة ، ويترك بصماته ؛ بل ويطبعهما بطابعه ، فيأتي العطاء الثقافي والفكري مصبوغا بصبغته ، متلونا به كحتمية موضوعية . فعطاءات الفكر مستقاة من الواقع الموضوعي المتخلف ، والواقع ذاك بتدهور جوانب الحياة المتعددة فيه ، بعد تواطؤ الاقطاع العربي — والاسلامي للانقضاض على البشائر الاولى للفكر المادي — الهرطقي — العقلاني ، على اثر تلك الهجمة افسح للموروث السحري وللفكر الاسطوري من جديد بالعودة . بل وبالتجذير والتصليب في الذهنية الغيبية الاسطورية المهزومة والمندحرة معرفيا ، والنشطة تاريخيا واجتماعيا .

من هنا يأتي امتلاء السيرة بالموروث السحري . كانتجاع طبيعي للذهنية الاسطورية المتخلفة ، وليس لمحاربته والقضاء عليه والتخلص منه ، كما لا يأتي امتلاء السيرة به ليمثل الصراع القائم بين الدين الجديد الداخل مصر والموروث السحري القديم فيها ، ففي تلك الفترة لم يعد الدين الاسلامي في مصر جديدا بعد مرور ثمانية قرون من الزمن ، بل هو انذاك في طور التدهور والانحطاط ، ولذا اصبح الدين يستدعي ويستعين بالموروث السحري القديم لينصر كل طرف منهما الاخر على بقايا الفكر المتنور هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى تثبيت دعائم الاقطاع الاسلامي المتخلف ممثلا بالمماليك . فلا هناك صراع بينهما — اي بين الدين والموروث السحري القديم — الا في ذهن الكاتب فقط . واذا ما قفزت الى السطح تساؤلات من حارب اذن سيف في الاسطورة ؟؟ سيرد على السؤال سؤال من

نوعيته هو جواب له في نفس الوقت وبمن حـــارب سيف الجبهـــة المضادة ؟ وكل ذلك يأتي في سياق تخريجات الذهنية الاسطوريـــة المسيطرة على انسان تلك المرحلة . ولذا جاء الموروث السحري ضد ومع الشخصيتين التاريخيتين « سيف بن ذي يزن » اليماني الحميري و « سيف أرعد » الحبشي الامهري ، وهي مع الاول قوى اسطورية خرافية خيرة ، اما مع الثاني فقد مثلت قوى سحرية شريرة . هكذا ارادت الذهنية الشعبية الاسطورية ، وذلك كان انتجاعها الروائي الفني لا للمحاربة ولا للمنازلة ، بل هو افرازات طبيعية لطبيعتها المتخلفة الغارقة في الاسطورة والخرافة .

الباب العاشر

سيف في الأدب اليمني المعاصر

بعد أن استعرضنا شخصية وحركة سيف التاريخية وسيف السيرة الشعبية ، وقمنا بتحليل لها ، وحاولنا الخروج بتقييم شامل يضمن للقاريء التعرف على آراء اخرى جديدة في قضية اشبعت بحثا ونقاشا ، وما زالت بحاجة الى البحث والنقاش ، ليس من قبيل الترف الفكري ، وانما كما نظن لانصاف بعض القضايا والامور التاريخية للاستفادة في حياتنا العملية من ماض هو بالنسبة لكتب التاريخ قد انتهى وأصبح مجرد روايات ، الا انه في وجدان الشعب اليمني يستمد منه زخم روحي وطني وقت الحاجة والضرورة ، خاصة لاولئك الذين يريدون أن ينفخوا في الصور روح الحياة لشعب عانى من ضروب التخلف اكثر من اي شعب آخر ، ولقد تناول الادب اليمني المعاصر المنثور منه والموزون القضية اليزنية بالرمزية والمباشرية اما الرمزية فقد خاطبت في كثير من الاحيان روح سيف بقصد الاثارة ، واحيانا اخرى بقصد التقريع والايلام المقصود منه العافية . فوجه شاعرنا اليمني عبد العزيز المقالح ديوانا بكامله الى سيف بعنوان « رسالة الى سيف بن ذي يزن » ولا ندري هل

يسمح المجال هنا لان نقتطف بعضا من الابيات لعلها تعطي صورة لمكانة سيف في ضمير شعبنا اليمني حيث يردد شاعرنا حديث الحب .

موالا من الاشواق
صنعنا منك يا انساننا المصلوب في الافاق
وفي الاعمـــاق
حفرنا رسمك المشـــوق
في الاحــداق
وفي افواهنا ما زلت اسطورة
وفي تاريخنــا
في جيلنــا تتوهج الصورة

وننتظــر . . .

ما زالت الجماهير شعبنا اليمني تنتظر طلوع فجر النهضة تأمل في القادم وتبشر به وشاعرنا الكبير يردد :

واشرعة النهار على الجبال الربد تنكسر
وتحتــضر
ونغرق في مواجعنــا
ويغرق حلمنا الاخضر
وعبر شواطيء « العربي والاحمر »
تظل جموعنا تسهر
وترقب فوق موج الليل
تشهد عند خط الافق خيل العائد الاسمر

ويستحث شاعرنا الشعب ويستحث الاحداث فالزمان يسير ، بل ان عالم هذا الزمان يكاد يطير من سرعة حركته لا ينتظر احد . فمتى يستيقظ هذا الشعب ومتى تصل كتائب تبع ؟؟ وكان الشاعر بتساؤلاته التنبؤية كان ينتظر المولود الجديد .

ولكن الزمان يسير
وعالمنا يطير يطـير
وانت هناك لم ترجـــع
ولا عادت من المنفى
كتائب « قيلنا » تبــع
لقد هدمت معابدنــا

وجه الشمس لم يطلـــع
ونحن على مشارقها
عراة نشتكي نركع
فلا سمعت
ولا انت الذي تسمع

ويتأثر شاعرنا بأحاديث السيرة الشعبية التي تحكي رحلـــة سيف بن ذي يزن الى الحبشة لاخراج كتاب النيل وامتلاكه، ويعكسه على واقع الاوضاع السياسية بعد ثورة ٢٦ سبتمبر والمساعدات الكبيرة التي قدمهـــا الشعب المصري للشعب اليمني في الدفـــاع عن ثورته ، فيجمع سيف بن ذي يزن في حوار مع ابي الهول على اسطر القصيدة ليسجل ما قدمه ابي الهول (الشعب المصري) لسيف ابان محنته . كما جاءت لتذكر بالزخم المعنوي العظيم الذي قدمه سيف للشعب المصري ولشعوب المواجهة للاستعمار الصليبي في القـــرن الثاني عشر ميلادي الثامن للهجرة .

الا تتكلم . . .؟
الا تتألم . . .؟
على شفتيك بعينيك عاصفة تتحطم
وبين يديك وضعت جراح اليمن
وفوق الرمال نثرت اغترابي . . .

الى ان يقول على لسان سيف محاولا بذلك ان يهز ابا الهول :

اتيتك اشكو اليه البـــثور
ابثك حزني ، وانزع عن كاهلي مثقلات الصخور

ثم يذكره بالمأساة المشتركة بينهما في الظروف الراهنة مصر واليمن ، وفي واقع الانهيار حيث الكل غريب في وطنه .

كلانا غريب الخطى
وكلانـــا حزين
تفرق اتباعك المخلصون انطوي تحت ليل الرمال الرجال
واتباعي ابتلعت شوقهم في الظلام الرمال

ثم يذكره بمحنة مصر في تلك الفترة الصعبة وهي تواجه الانهيار الداخلي في العصر المملوكي وموقف سيف الاسطورة والرمز من ذلك ، وقد اراد له الشاعر كما ارادت فيه الجماهير الشعبيـــة في مصر ان يكون هو الامل .

أتذكر حين اختفى النهـــر
حين اختفت في الشطوط الشجر
تقدمت في موكب الشمس
أطلقته من سجون القدر
فعـــاد
وعاد النخيل وعاد الثمر

ثم يذكره بمحنة اليمن في العصر الحديث ، والموقف الدقيق الذي عاشته بعد تفجير ثورة ٢٦ سبتمبر ، والتي لولا مساعدة الشعـــب المصري العظيم والجبار لكانت تلك الثورة قد انتكست كما انتكست قبلها انتفاضة عام ١٩٥٥م وانقلاب ٤٨ ضد الائمة .

وما زلت اذكر يوم أتيت شجاعا
لتدفع عن سور « صنعاء » عن « مأرب » هجمات التتار
وتزرع في كل درب تمر به زهرة للنهار .

تلك نماذج من رسالة الشاعر اليمني الى سيف بن ذي يزن ، وسيف هو اذن الصرخة المدوية في ضمـــير الشعب ، وهو نموذج المتيقظ الجديد القادم للشعب اليمني مع الاخذ بعين الاعتبار مفارقات المقاومة . ويشترك العديد من الشعراء اليمنيين في هـــذا الشعور ويتعاطف معهم المهتمون بالتاريخ والمثقفون الثوريون ولن ندخل هنا في هذا المجال الا مع الشعراء مخافة من طول الحديث :

يا من تغادر القبور
يا شعبي الذي يثـــور
لا بد من أن يعود (ذو يزن)
وثائرون يهتفون في (عدن)
و (مأرب) وحضرموت لليمن

ويذكرنا بالغزو والاحتلال الاجنبي ، ورمزه هنا بالغزو الحبشي البربري الذي تعرضت له اليمن قبل ظهـــور الاسلام وعانت منـــه بمرارة وقسوة رغم قلة سنين وجوده .

غدائري سنابك الخيـــول
مجنونة تـــدوس (أبرهة)
وتختفي الى الابـــد
عيون ليلـــه المشوهة .

ويتمنى الشاعر ان يوصل مشاعره الى كل بيت وكل فرد يريد ان يحضهم على الثبات والصبر والشجاعة على لسان سيف :

اود أن تدق باب كل بيت
تحكي لها العذاب او تقولَ
شيئا من الثبات والصمود
فبالدماء تكتب الشعـوب .

لبعض تولدت بينها احقاد وثارات . سياسية واجتماعية ، وتمزق الشعب اليمني بين اكثر من دين ، وفي اكثر من تكتل ولقد ادرك سيف هذه الحقائق ، ورای في الوجود الاستعماري الحبشي عين الداء ورای ان القضاء على الافات المولودة يكمن في طرده من اليمن ، وتخليصها منه . وان **لا سبيل الى ذلك الا بتكتل جماعة** من الفئات الاجتماعية العليا ، والتي تستطيع الحركة ، ولديها من القدرة مـا يمكنها من ذلك لتقود الطبقات والفئات الاجتماعية الاخرى .

استطاع سيف ان يكتل جماعة ويضع نفسه فيهـا ليتزعمها ويقودها وكان قيامها ضرورة ملحة ، ولقد رأت وهي تتداول المشورة فيما بينها اهمية التنسيق والتعاون مع القبائل العربية في الجزيـرة فارسلت وفدها الى قريش ثم الى الشام .

لقد تمكنت الجماعة ان تحدد عدوها القومي ، وحليفها الحقيقي في تلك المرحلة ، وناصبت الاول العداء واتجهت الى الاخـر تطلب المعونة وتطالبه بالوقوف الى جانبها وفرضت بذلك نفسها على التاريخ **كحركة وطنية مرهصة بوعي وطني** . انقذت اليمن ودفعت الاخطار عنه وحمت الجزيرة ، وابقتها خـارج الاسوار الحديدية للاحتـلال الاجنبي . وغيرت مجرى التاريخ وبدلت سير الاحداث فاذا بالاسلام ينهض من الجزيرة العربية بعد أن وجد الظروف والاجواء مهيأة له ، فاذا بصاحب الدعوة يكمل بها مشوار الحركة الوطنية اليمنية ليتمثلها ويضيف عليها من عبقريتها الفذة .

لقد كانت حركة سيف الوطنية موضوع استلهام للاسلام لقرب عهدها ومكانها منه ، فاستطاع ان يستوعبها ويفيضها . فقد ولد الرسول في السنة التي انتصر فيها اليمنيون على الاحباش ، وفي السنة نفسها كان وفد قريش بزعامة جد الرسول « عبد المطلب ابن هاشم » يصل اليمن ليقدم تهاني وتبريكات قريش والقبائل العربية ومن هنا كان الرسـول على صلة مباشرة باحداث اليمن واختزنهـا

وجدانه منذ طفولته الاولى ، كما شكل سيف وجماعته القدوة والمثال له ولاصحابه فأكملت الحركة الثانية في قلب الجزيرة العربية بزعامة ورعاية قائدها النبي العربي محمد بن عبد الله ما بدأته الحركة الوطنية اليمنية تحت قيادة سيف بن ذي يزن . دحرت الاولى وجود اجنبي من جزء من الارض العربية فحققت لها التحرر والسيادة وصانت استقلال الاجزاء المتحررة من الجزيرة ، فيما اكملت الثانية تحرير الاجزاء المستعمرة في أرض الرافدين وسوريا وفلسطين ومصر ثم المغرب العربي .

ان الحركة التي بدأت معركة التحرر في الجزيرة جديدة اليوم بأن تكون موضوع استلهام ليس لليمنيين وحدهم بل للوطنيين والتقدميين العرب جميعا . كما كانت ملهمة للحركة العربية حين كان التتار والصليبيون في القرن الخامس السادس للهجرة يعيثون في الارض العربية فسادا . وحين تمزق الوطن العربي ايام المماليك في القرن الثامن بين الحركات الداخلية المنغلقة والاخطار الخارجية التي تحيط به من كل مكان ، وحاولت التيارات الشعبية المنتفضة ان تستلهم في سيف بن ذي يزن القدرة على التصدي والصمود وتحتفظ بشخصيتها الوطنية في وجه التيارات القومية الشوفينية والاستعمار الشرقي والغربي وكافة الامراض الداخلية من سلالية وعرقية وشعوبية . ولذا كان سيف دائما ومنذ اربعة عشر قرن هو البطل المنقذ ولو في الاسطورة .

اننا حين نستلهم من الحركة صلابتها وتكتلها فلاننا نعيش واقعا يشبه في سماته العامة مرحلة ما قبل الاسلام المعروفة بالجاهلية . الوطن العربي مشرذم تتجاذبه اوضاع عربية رجعية متخلفة تعيش في جاهليتها الاولى وتسربل ذاتها بأقنعة الدين والوطنية . يفرض كشفها واسقاط الزيف عنها حركة عربية صلبة تستوعب الملائق الداخلية في الحركة اليزنية الوطنية لعلها تجد فيها وتكتشف عناصر القوة والقدرة على الحركة والمبادئة للتصدي على الصعيد العام لمخططات الامبريالية والصهيونية المختفية وراء الرجعية العربية والرجعيات المحلية ، وايقاف نزيف التمزق والتشرذم ، واعادة بناء الوطن العربي الواحد والقومي .

أما الموضوعة الثانية التي نحن بصددها نستلهم منها مواقف محددة لظروفنا الثورية المعاشة في اللحظة الراهنة لا تعني التبني

للموقف اياه بحرفيته ، وانما هي لاستلهام كيفية التصدي للتحديات والمؤامرات الداخلية والخارجية الهادفة تركيع الوطن واذلال قواه الثورية . لسنا هنا بصدد الاستعانة بفارس ، ولا يعني الاستلهام التبني للموقف بحرفيته متجاوزين بذلك الاهمية المكانية والزمانية للحدث ، وانما يأتي الاستلهام من الحدث لموقف ثوري في شرطيه المكاني والزماني وما يدور فيهما من أحداث بين القوى المتحالفة والمتعادية في عصرنا الراهن .

ان **الموقف الوطني الاختياري** الطوعي الذي اتخذه سيف وجماعته هو موضوع استلهامنا فقد سعى الى **التحالف مع فارس ،** ولم يكن ليغيب عن باله ما للدول الكبرى من مصالح ومطامع ، فحاول حملها على الوقوف الى جانبه ومساعدته بتقديم الاغراءات بعد أن صمد ، واجتاز المرحلة الاولى في الصد الذي ابداه كسرى فقد كان يدرك ان في هذا المكان سيولد او سيوأد طموحه الشخصي والوطني في تحرير أرضه واستعادة عرش آبائه واجداده . كان الحاحه على طلب المساعدة قضية حياة أو موت فقدم تنازلا شفويا ، واقر بما كان متفق عليه بين القبائل والدول الكبرى ، اقر دفع الجزية والخراج كعرف معترف به ومتداول في تلك الازمان ، وواصل مسيرته مبحرا الى ارض الوطن ، وتم الانتصار على الاحباش وتوج ملكا ، وحين استقر فوق عرشه الرفض الانصياع لرغبات ابناء الفرس ، ولم يكن على استعداد ليتلقى منهم الاوامر لقد أرادهم حلفاء لا آمرين ومتحكمين ، كان يعمل لابقاء الارادة اليمنية مستقلة ، ودفع حياته ثمنا لذلك فقد تآمر عليه « الابناء » . حين رأوا فيه العقبة الكؤود التي تنتصب في طريقهم لتحول دون تحقيق رغباتهم ومطامعهم .

لقد فرضت عليه الظروف ، وكان يدرك ذلك جيدا ايجاد حليف قوي يسنده مقابل التحالف المضاد للحبشة وروما وبعد ان ادرك ان الشرط الذاتي للحركة بقي مشطورا ومجزوئا اثر الموقف المتردد والرافض للقبائل العربية تجاه دعوة الحركة اليزنية ومناشدتها للقبائل بالوقوف ومؤازرتها في محنتها الوطنية ، وقد ولد ذاك الموقف السلبي **التصور بتملية جوانب الضعف والعجز الذاتي للحركة عن طريق البحث وبالحاح عن شرط يوفر الحماية ، ومن ثم الحياة والاستمرارية** باعتباره لذلك موضوعة حياة ووجود . **فتمت الاستعانة بفارس لتملأ الفراغ الذي خلفه غياب الشرط الذاتي** ، ومدت الجسور معها

للتحالف معا ضد الحكم الاستبدادي الحبشي في اليمن ، ومن يقف وراءه من الاقطاع في كل من الحبشة وروما ، ومن هنا أتت عروض سيف بن ذي يزن لكسرى أنوشروان للذهاب الى أرض اليمن معتمدا في ذلك على اسلوب الترغيب والاغراء كخطوة اولى لسحب فارس وانتزاع الموافقة منها للزج بثقلها السياسي والعسكري مع اليمنيين في صراعهم ضد الاحباش لاراضيهم ، ومن يقف وراء ذاك المحتل من قوى دولية كبرى .

ان هذا الادراك لاهمية الدعم الخارجي لتوفير افضل الضمانات للنجاح والنصر لقوى الحركة الوطنية اليزنية قد حدث عند قوى الثورة ، اثر المعاناة الطويلة وسلسلة الفشل الذي منيت به القوى القبلية المتمردة في الداخل على نظام الحكم الاستبدادي الفردي الابرهي كما تحكيه النقوش ، التي أتينا على ذكرها سابقا ، فقد حمل الفشل معه دروس كثيرة استفادت منها الحركة اليزنية في عدم المواجهة لعدو قوي وشرس في أرض مكشوفة ، ومن دون تأمين الغطاء المطلوب للحماية . وكانت فارس حينها هي ذاك الغطاء .

وعلى الرغم من وجود التشابه في ظروف الوطن العربي الممزق في تلك المرحلة ، والمرحلة الحالية ، وتحت الحاح الواقع الذي فرض التحالف مع فارس انذاك ويفرض البحث اليوم عن حليف ، الا ان ذلك لا يعني النقل الحرفي للعملية ليفرض حليف الامس حليفا في اليوم . كما لا يعني وضع عدو الامس عدوا في اليوم ، وان معرفة العدو كما ان البحث عن حليف للحركة الثورية اليمنية والعربية المعاصرة **تفترض معرفة الواقع المعاش ومعرفة خصائصه واكتشاف** العلائق الداخلية التي تحكم حركته لتتسنى للحركة عملية التعامل معه .

ان معطيات وافرازات العلاقة بين الحركة الوطنية اليزنية وحليفتها فارس ، تحملنا ونحن نستلهم منها مواقف محددة ، ان نضع امامنا اولا وقبل كل شيء خدمة القضية المعاصرة لجماهيرنا العربية وان نحسب الحسابات الدقيقة في الاخذ والعطاء مع الحليف الحقيقي للثورة العربية المعاصرة .

وتشير القضايا السياسية والفكرية هذه الايام نحو التدويل والعالمية وتترابط الامبريالية والصهيونية بعلائق داخلية وشيجة ، وترتبط معهم الرجعية وتأتي حركة التغيير والثورة في العالم ، لتحملها

على ان تصبغ نفسها بصبغة عالمية وتتجاوب مع الاحداث في كل مكان لتشكل من نفسها ، وبوحي من قوى الامبريالية العالمية اداة قمع غليظة ضد الشعوب وقواها الثورية ، وتتحرك الرجعية العالمية لتسند ظهر الرجعية المحلية اينما احست بالضعف والانهيار تحت الضربات الموجهة اليها .

وفي مقابل هذا الترابط العضوي واللاشرعي بين الامبريالية والصهيونية من طرف ، والامبريالية والرجعية من الطرف الاخر ، وفي ظل تدويل القضايا السياسية ، في العالم ، ومن ثم تعليق حلها وربطه بالسياسة الدولية ككل ، تفرض هذه الظروف في المقابل الترابط العضوي والتلاحم النضالي بين قوى الثورة العالمية .

ان قوى التحرر الوطني ، مطالبة اليوم في ظل عالمية الثورة المضادة ان توحد كفاحها وتلتحم مع قوى الثورة العالمية ، وضمن هذا الاطار العام ، وهذه العلاقة الواسعة تأتي ضرورة خلق الجديد (الامل) ليس من العدم لانه ليس نبتا شيطانيا ، ولا هو فيض احلام رومانتيكية ، بل هو ارهاص هذاالواقع المجزأ ، يأخذ بعين الاعتبار التمزق بكل الوانه واشكاله القديمة والمستحدثة ويدخل في حساباته قضايا تدويل الصراع بين قوى الثورة والقوى المضادة لها .

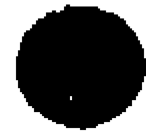
ان سيف الامل ليس بطولة فردية ينتجعها الفكر المثالي الاسطوري بل هو **اداة تغيير ثورية نامل في خلقها** ، وننتظره من الثوريين والتقدميين في الساحة العربية يعمل على تفجير الصراع مع القوى الامبريالية مباشرة ليهز مصالحها في المنطقة العربية .

ان سيف الامل اداة تغيير ثورية تخلق في الساحة العربية ، كما خلق سيفا البطل القومي ، وتضع نفسها في الاطار العام للثورة العالمية فتقيم علاقاتها معها على اساس الموقف الموحد من القوى المضادة الموحدة .

ولا بد لهذه الاداة من حليف حقيقي لها يقف الى جانبها ويملأ نقاط الضعف ، ان وجدت ، قوة ليكسبها مناعة وقدرة على الصمود والتحدي . وليسقط بذلك محاولات وضع القوى العالمية الثورية والمضادة في نفس الكفة وعلى نفس الميزان . ان من يقف معنا من الاصدقاء والحلفاء لا يساوي ، وان اجبنا بالجهر ، مع من يقف مع عدونا وضد مصالحنا ، بل ويعمل على نهب وسرقة خيراتنا باسرع وقت وبأكبر كميـة .

ان الامل الذي نسعى للوصول اليـــه انما هو مرشد عملنـــا الثوري ، ومنظم حركة جماهيرنا العربيـــة التواقة الى استعـــادة كرامتها الوطنية من بين مخالب ساحقيها من حكامها الرجعيين حلفاء اعداءها التاريخيين .

ان على دول الصمود مسؤولية خلق الامل لتنتقل من مواقفهـــا القومية الى مرحلة ارقى يصبح للتصدي فيه معنى . وحيث يخلق سيف الامل ينتهي في سيف الاسطورة والخيال .



المراجع

ابو الحسن الهمداني
الاكليل — ج ٢ تحقيق القاضي محمد علي الاكوع سنة ١٩٦٣ .
ابن الاثير
الكامل ج ١
ابن خلدون
العبر وديوان المبتدا والخبر — القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ
ابو الفرج الاصفهاني
الاغاني ج٢ تحقيق ابراهيم الابياري دار الشعب سنة ١٩٧٠ .
ارنست كاسيرر
الدولة والاسطورة ، ترجمة احمد حمدي محمودي . الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٥ .
ارنولد توينبي
مختصر دراسة للتاريخ ج ٢ الجامعة العربية سنة ٦٥ .
الفة الادلبي
الاهداف القومية في سيرة حسين ، مقالة .
الحيمي الحسن بن احمد
سيرة الحبشة ، دار العالم العربي — القاهرة .

— ب —

برو كلمان
تاريخ الشعوب الاسلامية
تومس برترام
العربية السعيدة ، مطبعة جوناثان كيب ، لندن سنة ١٩٣٢
تومي ، باربرا :
البحث من سبا ، مطبعة جون مري ، لندن سنة ٦١ .

جرجي زيــدان
تاريخ التمدن الاسلامي ــ دار الهلال .
جمال الدين ابن المحاسن الاتابكي
النجوم الزاهرة ، سلسلة تراثنا المؤسسة المصرية العامة .
د. جــواد علي
المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام
سير جيمس فريزر
الغصن الذهبي دراسة ــ ترجمة د. احمد ابو زيد الهيئــة المصرية العامــة
السير جون ا. هامرتن
تاريخ العالم م٤ ــ مكتبة النهضة العربية .
راشـــد البراوي
الحبشة بين الاقطاع والعصر الحديث ــ مكتبة النهضـــة المصرية سنة ١٩٦١ .
حنــا خبــاز
جمهورية افلاطون ، دار القلم ــ بيروت .
د. خليل احمد خليل
مضمون الاسطورة في الفكر العربي ــ بيروت سنة ١٩٧٣ .
سعــدي يوسف
الميثالوجيا الاشورية ــ البابلية ، مقالة . الاقـلام العراقية العدد ٢ سنة ٧٢ .
سيلاسي : سرجيو هبلي
تاريخ اثيوبيا والعصور الوسطى حتى سنة ١٢٧٠م .
سيغموند فرويد
مستقبــل وهم . بيروت سنة ١٩٧٣
شوقي الحكيــم
اساطير وفولكلور العالم العربي منشورات روز اليوسف .
صمويل نوح كريمــر
اساطير العالم القديم ــ ترجمة أحمد عبد الحميد . الهيئــا المصرية للكتاب سنة ٧٤ .
د. الظفــاري
مقالة الحركات الشعبية في اليمن الثقافة الجديدة سنة ٧٤ عدن

عبد العزيز المقالـح
رسـالة الى سيف
عبدالله فــارع
مقالة مترجمة رسالة متبادلة بين ماركس وانجلز الحكمة عدد ١٧ سنة ١٩٧٢ .
عبده عثمــان
مأرب يتكلم ، الدار الحديثة للطباعة والنشر ، تعز .
عمانوئيل كنــت
نقد العقل المحدد . دار اليقظة العربية .
عمر ابو النــصر
سيف بن ذي يزن الملك العربي السوبرمان دار الجيل بيروت .
عزيــز حــداد
جلجامش حول شخصية وعلاقة الاسطورة بالشعر . مقالة مترجمة الاقلام العراقية ، العدد ١ سنة ١٩٧٢ .
د. لويس عوض
اسطورة أوريست والملاحم العربية دار الكاتب العربي سنة ٦٨
محمد رجب النجار
البطل في الملاحم العربية من رسالة دكتوراه جامعة القاهرة .
محمد عبده غانم
سيف بن ذي يزن ــ دار العلم للملايين ــ بيروت .
محمد محمود الزبيري
جزيرة واق الواق . دار العودة طبعة ثانية سنة ١٩٧٨ .
محمد سعيد القشاط
الادب الشعبي في ليبيا دار العودة بيروت سنة ٧٧ .
د. مصطفى الجوزو
من الاساطير العربية والخرافات دار الطليعة بيروت سنة ٧٧
مهندس فتحي غيث
الاسلام والحبشة عبر التاريخ مكتبة النهضة المصرية
الدكتورة نبيلة ابراهيم
قصصنا الشعبي من الرومانسية الى الواقعية بيروت سنة ٧٤
نشوان ابن سعيد الحميري المتوفي سنة ٥٧٣هـ
ملوك حمير واقيال اليمن المطبعة السلفية سنة ١٩٦٥ .

ول ديورانـــت
قصة الحضـارة ج ١١ ـ الطبعة الثالثة ـ جامعة الـــدول العربية ـ سنة ١٩٧٣ .
هـ. ج. ولـــز
معالم تاريخ الانسانية م٢ ـ الطبعة الثالثة ـ لجنة التأليف والنشر ـ سنة ١٩٦٩ .
ياقـــوت الحموي :
معجم البلـــدان .
الاب فؤاد جرجي بربارة :
الاسطورة اليونانية ـ مطابع وزارة الثقافة دمشق سنة ١٩٦٦
فؤاد حسنين علي
قصصنا الشعبي . دار الفكر العربي سنة ١٩٧٤
فاروق خورشيـــد
مقالة الحب بين الانس والجن ، الدوحة .
الدوريـــات :
مجلة الحكمة : عدن ـ عدد ١٧ ـ ١٩٧٢ .
« الثقافة الجديدة ـ عدد ١٠ ـ ١٩٧٤ .
« دراسات يمنية ـ صنعاء ـ عدد ١ ـ ١٩٧٨ .
المعرفة ـ دمشق ـ عدد ١٤٤ ـ ١٩٧٤ .
الاقلام العراقية ـ بغداد ـ عدد ١ ـ ١٩٧٢ .
الاقلام العراقية ـ بغداد ـ عدد ٢ ـ١٩٧٢ .
روايـــات شعبية :
سيرة سيف بن ذي يزن المطبعة السنية
سيف بن ذي يزن الملك العربي السوبرمان ـ دار الجيل بيروت
قصة فتوح اليمن الكبرى الشهير براس الغول
مكتبة الجمهورية العربية
قصة الزير سالم الكبير ـ مكتبة الجمهورية العربية

هذا الكتاب

سيف بن ذي يزن قائد اول حركة وطنية في الجزيره العربية اثارت حركته جدلا كبيرا في اوساط المثقفين اليمنيين والعرب لما احاطها من غموض والتباس .

وهذا الكتاب محاوله لاجلاء الغموض وتحديد الخطوط المتداخلة بين الجانب الحقيقي والجانب الاسطوري من شخصيته التاريخية ، واضعا شتى القضية في الاطار التاريخي لها . فما هي حقيقة الظروف التي احاطت بالحركة الوطنية والاخرى التي افرزت الاسطورة ؟؟ اسئلة يجيب عليها الكتاب مستمدا منها زخما تراثيا ثوريا يساهم في صنع الثورة العربية المعاصره .